الدكتور صالح الخرفي



في
رحاب المغرب العربي

الدكتور صالح الخرفي



دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
1985

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

وحدة الشمال الافريقي

حيثما توجهنا إلى ناحية من نواحي التاريخ، وجدنا هذا المغرب العربي - طرابلس، تونس، الجزائر، مراكش - يرتبط بروابط متينة، روحية ومادية، تتجلى بها وحدته للعيان. ولسنا نريد هنا أن نتحدث عن التاريخ القديم، وإنما نريد أن نعرض صفحة من التاريخ الحديث الجاري.

مضت حقبة من الدهر، كاد فيها الشرق العربي، أن ينسى هذا المغرب العربي، وإلى عهد قريب، كانت صحافة الشرق - غالباً - لا تذكره إلاّ كما تذكر قطعة من أواسط إفريقيا ومجاهلها. بل في هذه الأيام، يغمط حقه، ويتجاهل وجوده في كتب لها قيمتها كـ «ضحى الإسلام» وغيره.

ولكن هذا المغرب العربي - رغم التجاهل والتناسي من إخوانه المشارقة - كان يبعث من أبنائه، من رجال السيف والقلم، من يذكرون به، ويشيدون باسمه، ويلفتون نظر إخوانه المشارقة إلى ما فيه من معادن للعلم والفضيلة، ومنابت للعزّ والرجولة، ومعاقل للعروبة والإسلام

عبد الحميد بن باديس

مجلة (الشهاب) ج 5 م 13

جمادى الأولى 1356 هـ يوليو / تموز 1937

عروبة المغرب العربي

عروبة المغرب العربي عروبة أصيلة خالدة، لأن الإسلام كان، ولم يزل، المدخل التاريخي لها. أصّلها بقوة الروح، وخلدها بصلابة العقيدة، ظلل أرضيتها بالدستور السماوي، وربط مقومها الأساسي بلسان عربي مبين.

وأنت إذا أردت أن تدخل هذه البيوت المغربية من أبوابها، فادخلها من الإسلام وبالإسلام، فستتكشف لك العروبة في أصفى منابعها عراقة، وأروع مواقفها بطولة، وأسمى غاياتها إنسانية.

ولولا الإسلام، لما بقيت للعروبة بقية في هذه الربوع التي ظلت على مرّ العصور هدفاً للحملات الصليبية المتعاقبة، وحسبك مائة وثلاثون عاماً، استيطاناً مسعوراً، وتغريباً مسموماً، وفرنسة حاقدة.

وكما أدرك المواطن بأصالته، أن المدخل الطبيعي لعروبته هو الإسلام، أدرك المحتل الغاصب بدهائه ومكره، ومع طلائعه الأولى على شواطىء شمال إفريقيا، بأن محاربة الإسلام هي

المخرج الحتمي للمواطن من حضارته العربية الإسلامية إلى الحضارة اللاتينية الرومانية الغازية.

قال (الكاردينال لافيجري) رائد الحملة الصليبية في ظل الغزوة الفرنسية لهذه الربوع:

«علينا أن نخلص هذا الشعب، ونحرره من قرآنه، وعلينا أن نعنى على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادىء غير التي شب عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل، أو طردهم إلى أقاصي الصحراء، بعيدين عن العالم المتحضر».

وبعد مرور مائة سنة، أو تزيد، على هذه القولة المسعورة، لـ (لافيجري)، مائة سنة من النار والحديد لوضع هذه المقولة موضع التنفيذ القهري على رقاب الناس وعقولهم. جاء رئيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، والتي رفعت الإسلام والعروبة دستوراً لها، الإمام عبد الحميد بن باديس، ليقول سنة 1936:

«إن هذه الأمة الجزائرية، ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تكون فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين، هو الوطن الجزائري».

ودخول العروبة إلى هذه الربوع في ظل الإسلام، هو الذي

ضمن لها المقومات الأساسية، من لغة وحضارة، وفكر وثقافة، ودعم هذه المقومات بالروح والعقيدة، وخفف من غلواء العرقية التي تعاني منها قوميات كثيرة، لم تؤت ما أوتيته العروبة من رعاية الإسلام لها، وسهره عليها، بمقومات تسمو فوق العرق، ومميزات ترقى فوق الجنس:

«ليست العروبة بأحدكم من أب ولا أم، ولكنها اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي».

ومن هذا المنطلق، حفظ الإسلام للعروبة في شمال إفريقيا مواقف وبطولات على مرّ العصور، وأنجب لها أبطالاً وقواداً، وبناة حضارة، تخطوا العدوة المغربية إلى الأندلس، وحسبك من هؤلاء، ومن كثرتهم، كما قال ابن باديس:

«القائد الفاتح، والخطيب المصقع (طارق بن زياد) ثم ما قامت مملكة من أبناء هذا الوطن، إلاّ وهي عربية في كل شيء، مثل سائر الممالك العربية في المشرق، بل فوق بعضها».

ذلك، في العهد البعيد زمناً، الماثل انتماء وتواصلاً، وإذا التفتنا إلى العصر الحديث، فإننا نجد العروبة في المغرب العربي، تعيش أعز أيامها بطولة، واستماتة، في أحلك أيامها اضطهاداً من المستعمر، فبقدر ما استهدفت العـروبة لغـة وثقافـة وحضارة، واضطهدت روحاً وفكراً وجسداً. بقدر ما تأصلت في الأعماق، وتجذرت في النفوس بفضل الإسلام، وتواصلت في السر، عندما

ضاق عنها العلن، وتعانقت في المشاعر، عندما طوحت بها المسافات والحدود. يقول عبد الحميد بن باديس في الثلاثينات:

«إن الاتحاد الإسلامي، والوحدة العربية بالمعنى الروحي، والمعنى الأدبي والمعنى الأخوي، هما موجودان، تزول الجبال ولا يزولان، بل هما في ازدياد دائم، بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب، ضد العروبة والإسلام».

هذه الصرخة القومية، تصعدت في ذروة الكيد الاستعماري لعروبة الشمال الإفريقي، وبطشه بالإسلام. في الثلاثينات، يوم تصور المستعمر أن (**البربرية**) يمكن أن تكون حربة في ظهر الإسلام والعروبة، وأن الصليبية يمكن أن تكون البديل، في ظل سطوة عسكرية، لم يغمض لها جفن على مدى قرن من الاحتلال، فأعلن (**الظهير البربري**) في المغرب في مايو/ أيار 1930. واحتفل في نفس السنة، في استعراضات عسكرية مستفزة، بالذكرى المائة لاحتلال الجزائر، وعقد المؤتمر (**الافخارستي**) في تونس في نفس الفترة.

كان المؤتمر الأفخارستي (**ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي، جاءت لتمثل مأساة الأندلس من جديد في شمال إفريقية**) والكتاب الذي حمل هذا الاسم، والذي صدر في القاهرة سنة 1349 هـ عن مكتب الأخبار التونسية، يقول:

«إن المؤتمر الأفخارستي أصبح مظهراً للحملة العدائية العنيفة

التي يقوم بها رجال الكنيسة ضد الإسلام، والتي أخذت تتشكل بشكل خطيـر فـي هذه الأيام، فقد أعلنوا عن هذا المؤتمر بأنه (حملة صليبية) وبأن الدافع لهم على عقده هنا، هو تحقيق الفكرة التي كانت تدور بين جنبي «لويس التاسع» والتي حملها بعده الكاردينال «لافيجري» وليست هذه الفكرة سوى ما كان يقصده «لويس التاسع» وهو إرجاعها إلى الصليب الذي أجبرت على قبوله بعسف الرومانيين».

كانت الفترة فترة حملة حاقدة على الإسلام، متأرجحة بين الترغيب والترهيب، بين الوعد والوعيد، الترغيب والتلويح ببعض الحقوق المزعومة ولكن على حساب الشخصية العربية المسلمة، والتجنيس بالجنسية الفرنسية.

كانت خطة مبيّتة، وعلى جبهات متجاورة، وبأسلحة متكاملة لضرب الإسلام، ووحدة أبنائه في شمال إفريقيا. فجاء التحدي بـاسـم (**العروبـة والإسلام**) شعـاراً لـ(**جمعية العلماء المسلمـين الجزائريين**) التي تأسست سنة 1932. وتصاعدت الانتفاضـات الوطنية، وحميت المواجهة في كل من تونس والمغـرب في وجه (**الظهير البربري**) و(**المؤتمر الأفخارستي**). الأمر الذي زاد اللحمة الإسلامية وثوقاً، والوشيجة العـربية تمـاسكاً وصـلابة، وأتـاح الفرصة من جديد لبلورة فكرة العروبـة، وتأصيلهـا في نفوس الشعب بمختلف أعـراقه كـما قال عـلال الفاسي زعيم حـزب الاستقلال في المغرب:

«إن القضية، ليست قضية جنسية أو عنصرية، ولكنها قضية واقع وفكر وثقافة، والقبلية لا محل لها في بلد وحده الإسلام، ومنحته العربية القرآن، وعلوم اللسان».

ويلتقي زعماء الإصلاح، والحركات الوطنية في أقطار المغرب بالنسبة لهذه القضية التاريخية، والمواجهة المشهودة، والمنعرج الحاسم، على فكرة واحدة، ومنطلقات متحدة، بدون سابق تنسيق أو تخطيط، إنما هي الرسالة الجامعة، والعدو المشترك. فالإمام (**محمد البشير الإبراهيمي**) زعيم الحركة الإصلاحية في الجزائر، يلتقي والزعيم (**علال الفاسي**) في نفس المفهوم لعروبة المغرب العربي، وينتظمان جبهة واحدة للدفاع عن هذا المفهوم في مختلف مواقعه:

«عروبة الشمال الإفريقي بجميع أجزائه طبيعية، كيفما كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء، والينابيع التي انفجرت منها الأخلاق والخصائص والنواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد، وهي أثبت أساساً وأقدم عهداً. وأصفى عنصراً، من إنجليزية الإنجليز، وألمانية الألمان».

ويوم كان المستعمر يستدرج (البربرية) لضرب الإسلام، كان أبناء الإسلام والعروبة من (الامازيغ)، يرابطون في الصفوف الأولى المتصدية للمؤامرات الاستعمارية، ويكافحون روّاداً في الحركات الإصلاحية، وكتاباً وشعراء في الصحافة الوطنية، ومعلمين أحراراً في المدارس الحرة للحفاظ على العروبة

والإسلام، وغرس النخوة بهما في الشبـاب، والتحدي بهـما في وضح النهار.

فـ (الفتى الزواوي) باعزيز بن عمر، وهو من روّاد الحركة الإصلاحية في الجزائر، ومن دعاتها قلماً ولسـاناً في الثـلاثينات والأربعينات، في مجلة (الشهاب وجريدة (البصائر) يقول وهو من بلاد القبائل:

«وإننا لنشعر من قبل ومن بعد بدم العروبة يجري في عروقنا وهو صافٍ لم يمازجه كدر، وإن اختلف المظهر، ونسمع صوتها الحنين يرن في آذاننا، فنفتح له الطريق، إلى قلوبنا وأعماقنا.

فالعروبة حيه فينا، ونحن أحياء فيها، ما دامت السماوات والأرض».

* * *

ومن مظاهر الوفاء للعروبة والإسلام من أبناء هذا الجناح الغربي من الوطن العـربي، أن الذين هـاجروا من أبنـائه إلى المشـرق، عندمـا خانتهم الحيلة في البقـاء الشريف في الـوطن الصغير. فتحوا هنالك، بدافع الشعور بأنهم لم يتخطوا حدود الوطن الكبير، جبهات جديدة لنضالهم وكفاحهم، وإنك واجدهم في كل موقف بطولي، وثورة مسلحة، بل هم في الصدارة من الحركات الإصلاحية، والتنظيمات السرية، والمؤسسات العلمية التي رادت النهضة العربية الحديثة.

فالشيخ طاهر الجزائري (1852 - 1920) وهو ينحدر من جبال القبائل في الجزائر، يعتبر أب النهضة الحديثة في بلاد الشام، فهو مؤسس (دار الكتب الظاهرية) في دمشق ومديرها، ومؤسس (المكتبة الخالدية) في القدس، وباني المدارس الحديثة، وعاقد الحلقات التي تعتبر بداية الوعي العربي الحديث في بلاد الشام.

وعن الشيخ طاهر الجزائري، يقول محب الدين الخطيب أحد أقطاب النهضة العربية الحديثة، ومؤسس (جمعية النهضة العربية) في الآستانة في مستهل القرن (1887 - 1969):

«من الشيخ طاهر الجزائري، عرفت عروبتي وإسلامي».

ويضيف محب الدين الخطيب

«هو الذي ربى عقلي، وهو الذي حبب إليّ هذا الاتجاه الفكري، منذ كنت طفلاً إلى أن صرت رجلاً، ولا أعرف مؤلفاً، ولا حامل قلم في ديار الشام، إلاّ وقد كانت له صلة بهذا المربي الأعظم، واستفادة من عقله وسعة فضله.

وكل الذين جاهدوا هناك لأجل الحرية، وفي سبيل المعارف، ولإحياء علوم السلف، ولإعادة مجد العروبة والإسلام. إنما كانوا من إخوانه وهو واسطة عقدهم، ورأس مجالسهم، أو من طبقة تلاميذه، وهو مضرب المثل عندهم، في كمال العقل، وسعة الاطلاع التي لا حد لها».

وبالإجمال، هو جرثومة الخير الأولى، من أيام ولاية مدحت

باشا على سوريا (1878) إلى أن هاجر هذا الرجل العظيم إلى مصر سنة 1907.

ويقول الأمير مصطفى الشهابي، مؤرخ (**القومية العربية**):

«**ثم برزت هذه اليقظة الأدبية في دمشق في زمن الوالي (مدحت باشا) وكان الشيخ طاهر الجزائري، أكبر العاملين لها**».

أما يوسف أسعد داغر في كتابه (**مصادر الدراسة الأدبية**) فيدرج اسم الشيخ طاهر الجزائري في الأبواب الآتية من كتابه:

في حقل الإصلاح الاجتماعي والديني، في البحث العلمي وحركة النشر والإحياء، وفي البحث التاريخي، في التربية والتعليم، في الشؤون الوطنية والوعي القومي.

وعلى مشانق (**جمال باشا**) السفاح، علق أبناء المغرب العربي مع شهداء العروبة سنة 1916، وكان من بينهم (**أركان حرب سليم الجزائري**) وهو من أصل مازيغي من جبال القبائل، و (**الأمير عمر الجزائري**) نجل الأمير عبد القادر.

ومن أبطال ثورة (**الغوطة**) وشهدائها، ضد الجيش الفرنسي سنة 1925 الأمير عز الدين الجزائري، وهو من أسرة بطل المقاومة الجزائرية الأمير عبد القادر.

و (**بدر الدين الحسني المراكشي 1851 - 1935**) لم يكن (**محدث الشام في عصره**) فحسب، كما قال الزركلي في (**الأعلام**)

ولا الزاهد في البيعة على الخلافة من أهل دمشق في وجه (الاتحاديين) وبطشهم، وإنما كان الأب الروحي للثورة ضد الاحتلال الفرنسي لبلاد الشام. قال عنه سعيد الحمزاوي نقيب الأشراف بدمشق، لما قامت الثورة على الاحتلال الفرنسي في سورية «**كان الشيخ يطوف المدن السورية، متنقلاً من بلدة إلى أخرى، حاثاً على الجهاد، وحاضاً عليه يقابل الثائرين، ويغذيهم برأيه، وينصح لهم بالخطط الحكيمة، فكان أباً روحياً للثورة والثائرين المجاهدين**».

وبين (**الشيخ طاهر الجزائري**) أبا للنهضة الحديثة في الشام، و (**بدر الدين الحسن المراكشي**) أباً روحياً للثورة والثائرين والمجاهدين، والشيخ (**محمد الخضر حسين التونسي**)، مؤسساً في (**جمعية الشبان المسلمين**) و (**مجمع اللغة العربية**) في القاهرة. وشيخاً للأزهر الشريف. بين هذه الوجوه الرائدة من أبناء المغرب العربي، وجوه عديدة وأجيال متعاقبة في الإصلاح الديني، والنضال السياسي والأدب والشعر (**هم بعض من عناهم عبد الحميد بن باديس بقوله سنة 1937 في مجلة (الشهاب)**):

مضت حقبة من الدهر، كاد فيها الشرق العربي، أن ينسى هذا المغرب العربي، وإلى عهد قريب، كانت صحافة الشرق - غالباً - **لا تذكره إلاّ كما تذكر قطعة من أواسط إفريقيا ومجاهلها. بل في هذه الأيام، يغمط حقه، ويتجاهل وجوده في كتب لها قيمتها كـ «ضحى الإسلام»** وغيره.

ولكن هذا المغرب العربي - رغم التجاهل والتناسي من إخوانه المشارقة - كان يبعث من أبنائه، من رجال السيف والقلم، من يذكرون به، ويشيدون باسمه، ويلفتون نظر إخوانه المشارقة إلى ما فيه من معادن للعلم والفضيلة، ومنابت للعزّ والرجولة، ومعاقل للعروبة والإسلام.

روّاد على طريق الوحدة

لئن كانت الفترة فترة استعمار فرنسي لهذه المنطقة، فيصح القول بالأحرى أنَّها كانت فترة تفجير للطاقات القومية الكامنة، ومحنة ترسيخ لمقومات الدفاع عن الذاتية، وتلمس لأسباب المناعة فيها، ديناً صحيحاً يريد المستعمر مسخه، ولغة وطنية تريد الفرنسة طمسها، ووحدة قومية ينشد الدخيل شتاتها.

وفي غمرة المواجهة مع المستعمر تبرهن الذات عن أصالتها، تربية واعدة، وإصلاحاً اجتماعياً، ووعياً سياسياً، وثورة مسلحة. وبين التربية الواعدة، والثورة المسلحة، يسجل التاريخ حركات رائدة في الإصلاح، ومواقف خالدة في التأصيل، وينجب التاريخ للتاريخ شخصيات منائر في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض.

ومن هذه الزاوية يصح القول مرة أخرى بأن الفترة الاستعمارية، كانت في الطرف المواجه، من أزهى الفترات أصالة، وتعبيراً صادقاً عن المقومات الأساسية للشخصية العربية المسلمة في هذه الربوع، ودفاعاً مستميتاً في سبيل الحفاظ عليها، وتطلعاً صادقاً للأخذ بأسباب التماسك والوحدة في غمرة التمزيق

والتشتيت. وبفضل الأرضية التي مهَّدتها هذه الأصالة، تجذرت الحركات الإصلاحية، وأثمرت المنظمات السياسية، وانتصرت الثورات المسلحة.

ويقتضي الوفاء لهذه الأصالة، الذي هو في الوقت ذاته، وفاء للذات، أن تكون المواقف الوطنية في فترة التحدي، ماثلة لنا ولأجيالنا، ففيها تكمن الروافد الأساسية لكل تطلع ينشد الوحدة، ولأي تواصل صادق مع تاريخنا وحضارتنا، فإنَّ الأصالة لا تكتشف جوهرها إلاَّ في فترات التحدي، وكثيراً ما تلاشى هذا الجوهر في فترات الاسترخاء أمام الجهاد الأكبر.

كان الاستعمار حرباً على العروبة والإسلام في هذه المنطقة، فكان التحدي بالعروبة والإسلام، وجاء المستعمر للتمزيق فكانت الوحدة، وتفنن في اصطناع ما يفرق، فاستمات المواطن في تأصيل ما يوحد. شبهات التفريق في حساب المستعمر ماثلة ومفروضة، وحقائق التوحد في أعماق المواطن أزلية وحتمية، يتحدَّى بها المستعمر في وضح النهار، وعلى رؤوس المنابر والأشهاد.

كتب الشيخ (**عبد الحميد بن باديس**) في افتتاحية الجزء الخامس من المجلد الثالث عشر من مجلة (**الشهاب**) سنة 1937 وتحت عنوان (**وحدة الشمال الإفريقي**) يقول:

«حيثما توجهنا إلى ناحية من نواحي التاريخ، وجدنا هذا

المغرب العربي طـرابلس، تونس، الجـزائر، مـراكش، يرتبط بروابط متينة، روحية ومادية تتجلى بها وحدته للعيان، ولسنا نريد هنا أن نتحدث عن التاريخ القديم، وإنَّما نريد أن نعرض صفحة من التاريخ الحديث الجاري».

وهذه الافتتاحية من رجل العروبة والإسلام عبد الحميد بن باديس، لها مناسبة تندرج في سياق الوحدة العـربية، وتعـطي لوحدة المغرب العربي بعدها القومي على الطرف الآخر من المشرق العربي. فقد أصدر: **(محب الدين الخطيب)** عدداً ممتازاً من مجلة **(الفتح)** بمناسبة دخولها السنة الثانية عشـرة، خصصه لـذوي الفضل عليه، وعلى حركته الإصلاحية وجهاده في سبيل العروبة والإسلام، فكان منهم من المغرب العربي: الشيخ طاهر الجزائري، سليمـان الباروني الـطرابلسي، والشيخ محمـد الخضـر حسـين التونسي، والشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي، والشيخ إبراهيم اطفيش الجزائري.

اغتنمها الإمام عبد الحميد بن باديس فرصة، وأعاد نشر ما كتبه **(محب الدين الخطيب)** تحت عنوان **(أبناء المغرب العربي في المشرق العربي)** وأضاف يقول في الافتتاحية:

«مضت حقبة من الدهر، كاد فيه المشرق العربي، أن ينسى هذا المغرب العربي، وإلى عهد قريب كانت صحافة الشـرق ـ غالباً ـ لا تذكره إلاَّ كما تذكر قطعة من أواسط إفريقية ومجاهلها. بل في هذه الأيام يغمط حقه، ويتجاهل وجـوده في كتب لها

قيمتها كـ (ضحى الإسلام) وغيره. ولكن هذا المغرب العــربي ـ رغم التجاهل والتناسي من إخوانه المشارقة ـ كان يبعث من أبنائه من رجـال السيف والقلم من يذكـرون به، ويشيـدون باسمه، ويلفتون نظر إخوانه المشارقة إلى ما فيه من معادن للعلم والفضيلة، ومنابت للعز والرجولة، ومعاقل للعروبة والإسلام».

وزعيم جمعيـة العلماء المسلمين الجـزائريـين التي شعـارهـا **(العروبة والإسلام)** يقف بالمـرصاد لكـل من يشكك في هـذا الشعار، أو يحتكم إلى الظواهر السطحية فيصدر الحكم الجائر على عروبة هذه المنطقة، وناهيك إذا كان الحكم من ذوي القربى.

كتب الأستاذ عبد الحميد العبادي في **(الرابطة العربية)** مقالاً تحت عنوان **(بلاد عربية تحتضر فيها العـروبة)** وقـال: «**لست أقصد أيها القارىء الكريم بتلك البلاد إلّا المغرب الإسلامي**» وأعاد الشيخ ابن باديس نشر المقال في مجلة **(الشهاب)** (ج3م 1937/13) واحتفظ له بنفس العنوان، وعلّق عليه باسم الشهاب بقوله: «**كلاً، بل هي اليوم تزدهر، فقال لهم الله موتوا، ثمَّ أحياهم**».

وجاء في الفقرة الأخيرة لمقال الأستاذ العبادي:

«**الحق، أنَّ العروبة والإسلام ماتا في الأندلس بالسيف، أمَّا في المغرب فيقضيان صبراً**» فعلّق (الشهاب) بقوله: «**لا**».

فما مات، من كانت بقاياه مثلنا   شبـاب تسامى للعـلا وكهول

في الثلاثينات، وفي سورة التسلط الاستعماري على هذه المنطقة، وقهر الأنفاس والأفكار، تتجلى الوحدة القومية لابن باديس سنة 1937 عملاقة جبارة، يحتكم فيها إلى حتمية التاريخ، هادىء الأنفاس، مطمئن الخطوة، جبار التحدي، بينما يتملك الهلع والشك والتردد كل طاف على الظواهر الخادعة.

«هذه الأمة العربية تربط بينها - زيادة على رابطة اللغة - رابطة الجنس، ورابطة التاريخ، ورابطة الألم، ورابطة الأمل، فالوحدة القومية الأدبية، متحققة بينها، ولا محالة».

«إنَّ الاتحاد الإسلامي، والوحدة العربية، بالمعنى الروحي، والمعنى الأدبي، والمعنى الأخوي، هما موجودان، تزول الجبال ولا يزولان، بل هما في ازدياد دائم بقدر ما يشاهد من عمل في الغرب ضدَّ العروبة والإسلام».

وإيمان عبد الحميد بن باديس بوحدة المغرب العربي، امتداد أصيل لهذا الشعور الوحدوي على الصعيد القومي، فالوحدة عنده لا تتجزأ، والكل عنده كل مقدس، فبقدر ما أعطى للجزائر من جهاده ونضاله، إنَّما هو العطاء الأوفى للمغرب العربي، والوفاء الأصدق للوطن العربي، حتى أنَّ (ابن باديس) ليشعر بالخجل من التخصيص وهو الداعية للشمول، ومن قطرية المناسبة، وهو الوحدوي المبدأ، فيوم وقف لإلقاء محاضرة عن (الجزائر) في (قصر الجمعيات) (دار ابن رشيق) سنة 1937 بدعوة من جمعية الطلبة الجزائريين بتونس، والجمعية الودادية الجزائرية الإسلامية

بتونس قال في افتتاح المحاضرة:

«إنَّ الجمعيتين اختارتا أن يكون الكلام عن الجزائر، وأنا أحب أن يكون الحديث عن عموم المغرب العربي، لأني أؤمن بأنَّ هذا الشمال الإفريقي، لا ينهض إلاَّ بتضامنه مع بعضه بعضاً، لكن إذا تحدثت عن الجزائر، فإنما أتحدث عن جزء من كل، وأذكر عن الأخ ما يسر إخوانه».

كان عبد الحميد بن باديس في تونس في ربيع 1937 ممثلاً للجزائر في ذكرى أستاذه البشير صفر. والأستاذية في الزيتونة أو الخلدونية أو الصادقية في تونس، أو (القرويين) في فاس، أو **(معهد عبد الحميد بن باديس) في قسنطينة، هي إحدى دعائم** الشعور الوحدوي في المغرب العربي. يقول ابن باديس للتاريخ:

«وأنا شخصياً أصرح، بأنَّ كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم، الغزيرة العلم، هي التي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمتي وقومي، والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جندياً من جنود الجزائر».

وكذلك كانت أيام الدراسة في تونس، لزعيم الحركة الإصلاحية في الجزائر، رصيداً من المحبة لا يفنى، ومعيناً من الاعتزاز لا ينضب. وكانت ذكرى أستاذ الأجيال البشير صفر فرصة لابن باديس لبث هذه العواطف، فكتب يقول تحت عنوان **(في تونس العزيزة) (الشهاب: ح /5 م 10/13 جوليت 1937).**

«حقاً إنَّ لتونس هوى روحياً بقلبي، لا يضارعه إلَّا هوى تلمسان. أعرف ذلك من انشراح في الصدر، ونشاط في الفكر، وغبطة في القلب، لا أجد مثلها إلاَّ في ربوعها. ومن نعم الله علي في العهد القريب، أن يسر لي التردد بين (الخضراء) و(البهجة) وقد كانت أخراهما في تونس ذات مظهر ممتاز ومغزى سام».

كانت تلك آخر زيارة لتونس من عبد الحميد بن باديس، الذي لبَّى نداء ربه في 16 أفريل 1940، بعد ثلاث سنوات من هذه الزيارة التي تمَّت في **(منتصف أشرف ربيع عمره)** كما خط بيده.

* * *

وعبد الحميد بن باديس ليس نسيج وحده في هذه المسيرة الوحدوية، وإنَّما هو إحدى العلامات البارزة في هذه المسيرة، وأحد الأبناء البررة للعروبة والإسلام في هذه الربوع، هو صلة وصل متميزة بين الحاضر والماضي. وبين الأجيال المتعاقبة، ولفتة وفاء عارم في غمرة نكران داهم، ونظرة استشراف صادق في كبوة واقع عاثر. وقبل ابن باديس، وحوله وبعده **«رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه»**.

ولولا ريادة صادقة سبقت ابن باديس، وطينة زكية تعهدته بالرعاية. ولولا مناخ صحي، رجولة وإخلاصاً، وتربة معطاء، عروبة وإسلاماً، لتلاشت جهود ابن باديس أدراج الرياح،

وتبخرت صيحته دون أصداء وأبعاد.

بل إنَّ هذا الجناح من الوطن العربي، ما استكان في يوم من أيام مأساته الاستعمارية لدواعي التشتيت والتفرقة، ولا ينفك يفرض إرادته في الوحدة. ويتحين لها الفرص، ولا يزيده فشل هذه التجربة إلاَّ إيماناً بتجديد المحاولة، واقتناعاً بأنَّ التجربة إذا فشلت في الجهود الشخصية، فهي محققة في جهود الأجيال.

إنَّ (**عمر بن قدور الجزائري**) صاحب جريدة (**الفاروق**) أوَّل جريدة إسلامية في عاصمة الجزائر (**1913 - 1915**) قد يكون من بين الروَّاد الأوائل في التطلع إلى هذه الوحدة يوم نادى سنة 1914 بتأسيس (**جماعة التعارف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا**).

ومن غير شك، فإنَّ صيحة وحدوية كهذه في سنة 1914 تثير هلع المستعمر، وقد تثير إشفاق المواطن نفسه، مما يدركه حق الإدراك، من تربص الدخيل بكل خطوة تؤلب المنطقة في مواجهته. فتوالت الضغوط على عمر بن قدور ليراجع مشروعه جغرافياً، فكتب يقول في (**الفاروق**) عدد 70 يوليو 1914:

«حدا بي إلى الخوض في هذا الموضوع، ما أشعرني به أحد المفكرين الموثوق بسمو مداركهم، بأن نجاح مشروعنا العظيم موقوف على تخصيصه بالوسط الجزائري، فلا يتعداه إلى التخوم الشرقية والغربية، ومستند هذا المفكر الخبير وجيه جداً بالنظر إلى المحيط السياسي».

«أمّا مأمورية (الفاروق) في إيجاد هـذا المشروع، فـإنّها عامة، لأنَّ له من القراء في تونس ومراكش ما يعادل قراءه في الجزائر، وقد لا يناقض هذه المأمورية نزوع كل قطر من هذه الأقـطار الثلاث إلى الاستقـلال في تشكيل جمـاعات التعـارف الإسلامي، كل يعمل في حيزه المخصص به، بما يوافق حالته العلمية والاقتصادية والسياسية. بيد أنَّ «الفاروق» لا يستطيع أن يتنازل عن تعميم دعوته، مهما اختلفت الأميال، لأنَّه مـرتبط بمبادئه الإصلاحية التي عليها مدار شيوعه وانتشاره وبثباته في خدمة أمَّة شمال إفريقيا الإسلامية».

تلك صورة من صور التشبث بالوحدة، مبدأ، ولو فرضت التجزئة واقعاً، وتلك رؤية واضحة للوحدة الغاية، مهما اختلفت الوسائل القطرية إليها، وما أن نادى عمر بن قدور بـ (**مشروعه العظيم**) كما سماه، حتى كان أوَّل المستجيبين له الأديب والمفكر التونسي حسين الجزيري، فبرهن عن وجه أصيل لعملة أصيلة واحدة، وكتب يقول (**الفاروق عدد 13/69 يوليو 1914**) تحت عنوان (**التفرق داء والالتئام دواء**):

«قام اليوم، غيور الإسلام، صاحب (الفاروق) يدعو إلى تكوين جماعة التعارف الإسلامي، الجزائرية التونسية المغربيّة، فهل نرى لدعوته من تأثير على الأفكار، وتحريك للعقول؟ ربما يستهين البعض باقتراحه وبعده مما يسطر، فيقرأه، فيتموج مع الهواء، وهو مشروع لو يبرز من حيز القوة إلى الفعل، لكنت

أنا الضمين بسعي السعادة لمسلمي شمال إفريقيا، والتحاقهم بمن أدركوا كيف يكون تركيب الدواء».

ويبادر حسين الجـزيري بـالانضمام إلى (**جماعة التعـارف الإسلامي**) ويوجه صورته إلى جريدة (**الفاروق**) لتنشر على صفحاته مذيلة بفقرات لحسين الجزيري نفسه بعنوان (**ساعدوا على الإصلاح**) فقرات أشبه ما تكون بأداء القسم عند الانضمام إلى تنظيم سياسي:

«ها أقدم لكم يدي، وأصادقكم الود الصادر من سويداء القلب، بواسطة أسلاك من الإخلاص، وأحالفكم على خدمة الملّة والوطن، وأعمل لصالح الإسلام والمسلمين حتى آخر نسمة من الحياة.

إنَّ حرصي على إيجاد التعارف، وشغفي بربط العلائق الودية مع إخواني المصلحين، وزملائي الكتابيين، دفعني لأن أقدم لهم رسمي تذكاراً باقياً حتى يذكروني به إذا ما عدت فيها خلقت منها، وأصبحت أثراً بعد عين»

* * *

البشير صفر، وعمر بن قدور، وحسين الجزيري، قلَّة من كثرة في مسيرة تاريخية جماعية، مهَّدت لابن باديس، فكان له في هذه المسيرة الفضل الأوفى على قصر في العمر، فخلفه على المسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي، رجل العروبة والإسلام مغرباً ومشرقاً. وفي القضايا القومية المصيرية لا يتحدَّث الإبراهيمي إلاَّ

باسم العروبة، ولا يستنهض إلاَّ أحرار العرب، وتأتيك صيحاته القومية من عاصمة ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي. قرناً ويزيد.

ولم تزل قضية فلسطين منذ نذرها الأولى مع إطلالة القرن العشرين محك العروبة في أصالتها، وامتحان العرب في وحدتهم، ولم يكن في مقدور المستعمر الذي جثم على أنفاس هذه المنطقة، لينال من هذه الأصالة، بل ربما ميَّزها بوضوح رؤية، ورسوخ موقف، لم يسعفا أقطاراً عربية طليقة.

عالج الإبراهيمي نكبة فلسطين سنة 1948 على صفحات جريدة (البصائر) فلم يعالجها باسم أبناء الجزائر، وإنَّما باسم عرب الشمال الإفريقي ولم يستنفر عرب الشمال الإفريقي فحسب، وإنَّما استنفر العروبة والإسلام:

«أمَّا عرب الشمال الإفريقي، فهم عرب ولا فخر، وواجبهم في إنقاذ فلسطين هو واجب جميع العرب، مع اعتبار العذر. ولكن. الله لعرب الشمال الإفريقي، وما يلقون من ظلم الجار، وبعد الدار، وعنت الاستعمار، يتجاورون مع اليهود في وطن، ولكل منهما في فلسطين هوى ملح يصهر الجوانح، ولكن أحد الفريقين، يعلن هواه إلى حد العربدة، فيعذر ولا يعذل، والآخر يخفي هواه، ويخشى أن تنم عليه نأمة فيناقش الحساب».

«أيها العرب حرام أن تنعموا وإخوانكم بؤساء، وحرام أن

تطعموا وإخوانكم جياع، وحرام أن تطمئن بكم المضـاجع، وإخوانكم يفترشون الغبراء.

إنَّ العروبة لفي حاجة إلى ذلك الطراز العالي من بطولة العرب:

وإنَّ الإسلام لفي حاجة إلى ذلك النوع السامي من الموت في سبيل الحق ليحيا الحق».

إنَّ المغرب العربي اليوم، وهو يتطلع لمواصلة مسيرة الوحدة، إنَّما يستجيب لحتمية تاريخية، وقدر أزلي، تفرضه العروبة، وينادي به الإسلام قبل أن يفرضه أي اعتبار آخر، ومن الوفاء لأنفسنا حاضراً، أن نكون أوفياء لرواد هذه المسيرة ماضياً، فإن لهم فضل الريادة في أحلك الليالي؛ فإن واصلنا فلنا فضل الوفاء في أسعد الأيام، فوقفة حق في ليل الاستعمـار سيدة أختهـا في شمس الحرية.

العشرينيات
وأثرها في النهضة الفكرية والأدبية
في المغرب العربي

مدخل

شهدت العشرينات، مشرقاً ومغرباً، هزات عنيفة، فجرها التصادم مع المد الاستعماري، وتغلغله في العالم الإسلامي وشملت هذه الهزات كل جبهة من جبهات المقاومة الوطنية، ثورة مسلحة، أو انتفاضة سياسية أو دعوة إصلاحية، أو تفجراً فكرياً أدبياً، يحيل النظر في كل ما حوله ويراجع المسلَّمات، ويتجاوز الرتابة، وينشد الثورة على السكون.

إنَّ بذور هذه الهزَّات وبواعثها سبقت العشرينات، ونتائجها وذيولها انسحبت على العقود اللاحقة، ولكن تبدو لي العشرينات هي ذروة التصعيد البركاني، وفورة الغليان بمختلف وجوهه، وقمة المراجعة الذاتية لكل مظاهر الحياة في الوطن العربي.

إنَّ الموروث ـ فكراً كان أو أدباً ـ يتجذَّر في النفوس، ويتقدَّس في الأذهان ويوصد كل أبواب الاجتهاد، في حالات الضعف، ومراحل الدفاع السلبي المغلوب على أمره، لأنَّ الموروث يصبح المهرب والعزاء في وجه الحياة العاثرة.

(*) ألقيت هذه الدراسة في الندوة العلمية لحسينية الشابي من 9 - 12 أكتوبر تشرين الأول 1984 بـ (توزر).

ولكن عندما تتحدَّث النفس بالثورة، وتتجاوب الجبهات في أصداء ثورية متناغمة، عنفاً مدوياً في وضح النهار، أو تنظيماً سرياً في جنح الظلام، منبر خطابة في محفل سياسي أو هدير جموع في ساحات منتفضة. صرير قلم وراء أبيات مجنحة، أو أزيز مطبعة وراء حروف هادفة.

عندها تتفجر الجرأة على المراجعة الحاسمة، وتتقاطر نقاط الاستفهام، والتعجب والإنكار، وتتلهف الأفكار لكل جديد ومستجد في (أل) التعريفية في كل مظاهر التعبير عن الذات المضطهدة، والحياة القائمة.

ما هي الحياة؟! ما هي الحرية؟! ما هو الأدب؟! ما هو الشعر؟! هي وغيرها، أسئلة معهودة، ومجترة على مرِّ العصور، ومبتذلة. لكنها في المنعرجات التاريخية الحاسمة، تحمل معها لقاح الجدَّة، والإبداع، وتدفق الحياة، وتطور الإنسان.

وإذا صحَّ أنَّ الثورات الوطنيةَ، لا تعدم أدباً رائداً مهَّد لها، وبشَّر بها، وهيأ الأرضية الروحية، والمعنوية لبطولاتها. فليس من الخطأ في شيء القول بأنَّ هذه الثورات تهيىء الأسباب لقلقلة الظواهر الموروثة الآسنة، وصياغتها صياغة جديدة، بما في ذلك الأدب الذي ينتقل من دور الريادة لثورة سياسية، إلى ريادة ثورة داخلية ذاتية، تشكله تشكيلاً منسجماً مع العهد الجديد ومع الأذهان المتفتحة لتقبل التغيير.

إنَّ الأحداث الوطنية التي شهدتها العشرينات في المغرب

العربي، والتي طرحت قضية (الحرية) بمفهومها السياسي، هي ذاتها التي ألهبت (الحرية) بمفهوم الإبداع.

يقول (النيال) في تقديمه لكتاب (زين العابدين السنوسي) «**الأدب التونسي في القرن الرابع عشر**» والكتاب وليد العشرينات[1]:

«**أليس نبوغ الواحد من هؤلاء لا ينشأ إلاَّ بانتصار خلق الحرية فيه على ناحية من نواحي طباعه المكتسبة بالوراثة والتقليد؟**

هكذا الشاعر أو الكاتب ينبغ بالتفوق على مستوى الكاتبين والشعراء بانطلاقه من عبودية كل مألوف، وعدم مبالاته من كل مكروه ومحذور».

إنَّ هذا الموقف المتمرد، المتحدي، غذته وفجرته سلسلة من الأحداث الوطنية بلغت ذروتها في العشرينات والثلاثينات. فالثورة كل لا يتجزأ، والعبقرية هنا ليست فردية، بقدر ما هي عبقرية مجتمع هيأ الأسباب لكهربة الإحساس المرهف في السياسي، والمصلح، والأديب، والشاعر.

في المشرق العربي

ولم يغفل المؤرخون للنهضة الأدبية الحديثة، مشرقاً ومغرباً، والمسهمون في بنائها، هذه العلاقة التجاذبية بين الثورة السياسية

والثورة الأدبية، فالعقاد في كتابه (شعراء مصر) يقول[2]:

«ظهرت طلائع النهضة الشعرية في مصر حين ظهرت فيها طلائع الثورة التي عرفت فيها بعد باسم (الثورة العرابية)[3] ولم تسبقها نهضة مذكورة بعد الركود الذي أصاب الشعر العربي كله في أعقاب الدولة العباسية.

ومغزاها أنَّ البواعث الحقيقية لصوغ الشعر، قد ظهرت بعد أن كانت مفقودة أو محجوبة، وإنَّ الأذواق الحية، قد أخذت تحلُّ محل القواعد الدراسية، ولا يحدث ذلك إلَّا بعد أن تحدث في الأمة أمور كثيرة متشابكة مختلفة تتناول عناصر الحياة فيها من جميع النواحي».

(الثورة العرابية) مضرب مثل، وشرارة أولى، لسلسلة متداخلة من الثورات، والبطولات العربية الحديثة، عرفتها العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن، وانتظمت كل جبهات الوطن العربي، فتركتها معالم بارزة، ومواقع خالدة في مسيرة النهضة العربية الحديثة، مروراً بـ(**الثورة العربية 1916**)[4]. و(**مشانق أحرار العرب 1916**)[5] و(**ثورة 1919**)[6] و(**ميسلون 1920**)[7] و(**الغوطة 1925**)[8] والثورة العراقية على الإنجليز. والرواية لم تتم فصولاً.

هذه الثورات - تمثيلاً لا حصراً - كانت المناخ الطبيعي للانتفاضة الأدبية الحديثة في العالم العربي، وإنَّ النهايات القائمة

التي منيت بها كل هذه الثورات، هي التي فجرت البدايات المشرقة لذلك الأدب.

تلك جولات عرفتها ساحات المشرق العربي، ولكن كان من بين أبطالها وشهدائها أبناء العروبة والإسلام من المغرب العربي[9].

وفي المغرب العربي

لعلَّ **(أبا القاسم الشابي)** سبق **(عباس محمود العقاد)** في تأكيد هذه الظاهرة التاريخية، وهذا التجاذب الأزلي بين التطور بمفهومه السياسي والاجتماعي والتطور بمهومه الفكري والأدبي، في مراحل الانقلابات الكبرى في التاريخ ففي مقال بعنوان «**الأدب العربي في العصر الحاضر**» أي عصر الشابي في العشرينات ـ قال أبو القاسم:

«في أطوار الانقلابات الكبرى، التي يريد فيها التاريخ أن يدور دورته المحتومة الخالدة، تأخذ نفسيات الشعوب ـ التي ستولد مرَّة ثانية ـ في التطور والتحرر والاستحالة، فتستيقظ أحلامها النائمة، وتتوهَّج أشواقها الخامدة. وتصبح نفسها شعلة متأججة بنار الحنين، وينقسم قلبها الثائر إلى شطرين، شطر ملول، متبرم بالحاضر وما فيه، وشطر مشوق طامح إلى المجهول، وما فيه».

كانت أقطار المغرب العربي، أو الشمال الإفريقي كما عرف في ذلك العهد منذ بدايات القرن العشرين، مسرحاً لأحداث دامية، وثورات جامحة وتصادم مستمر مع الاستعمار، جاثماً أو غازياً، وكانت الحرب العالمية الأولى، وقد دفع فيها أبناء الوطن المحتل، ضريبة الدم والروح، مظلة لكل ثأر مهدور ودم مطلول، وجاء **(مؤتمر السلام)** بمبادىء **(ولسون)** (10) فألهب المشاعر ورص الصفوف، وحرك الوفود والمطالب، فإذا الأرض تميد تحت أقدام الغزاة.

ولو أردنا أن نرسم خارطة لأقطار المغرب العربي في هذه الفترة، ذات بقع ملتهبة، لجاءت حمراء قانية، يكاد يتلاشى فيها أي لون آخر غير لون الدم والمشاعر المتأججة.

ولو أردنا، مرة أخرى، أن نسمي ـ استشهاداً لا استقصاء ـ لجاءت ثورة (عين التركي) سنة 1901 وثورة (عين بسّام) سنة 1906 في الجزائر. ثم برزت الملحمة البطولية الليبية (11) في وجه الغزو الإيطالي في صدارة هذه الأحداث، تلك الملحمة التي هزت العالم الإسلامي، واستنفرت أحراره، وفضحت أغواره طيلة عشرين عاماً، وكان وقعها على أبناء المغرب العربي، وهو تحت نير الاستعمار الفرنسي أشد، يستسرون الالتحاق بجبهاتها، فإن خانتهم الحيلة، مدوها بالمال والسلاح. والملحمة في كل منعرجاتها كراً أو فراً، حرباً أو صلحاً، معركة في الساحة، أو خبراً في الصحيفة، وثبة على صهوات الخيول، أو تدلياً في المشانق، هي في كل ذلك

بؤرة التهاب وطني عارم، كانت له آثاره في مختلف مظاهر التعبير والإبداع.

(الأحداث الدامية في تونس 1912)[12] **(ثورة الأمير عبد المالك في وجه الاستعمار الفرنسي في المغرب 1915 - 1925)**[13] **(ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في الريف 1920 - 1926)**[14].

ولو التفتنا إلى الساحة من زاوية التململ السياسي لوجدناها هي الأخرى في فترة العشرينات بالتحديد، حافلة بالفعل وردٍّ الفعل بين المستعمر والمواطن، زاخرة بالانتفاضات الحزبية، والتكتلات الوطنية، والتصادم المتصاعد مع قوات الاحتلال، تحدوه تطلعات تحررية، وتتحدَّاه قوانين استثنائية، وتفجره إجراءات قمعية.

(حركة الأمير خالد الجزائري 1919 - 1925) [15] **(الحزب الحر الدستوري التونسي 1920)** [16] قيام **(نجم شمال إفريقيا في باريس 1926)** [17] إرهاصات الحركة الإصلاحية تحت شعار العروبة والإسلام والتي حملت فيها بعد اسم **(جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931)** [18] **(الحركة السلفية في المغرب)** في أواسط العشرينات[19].

قائمة القوانين الزجرية والقمعية من طرف المستعمر، لم تعدم هي الأخرى نفساً متواصلاً متصاعداً، يزيد المعترك احتداماً. ويجعل المنطقة شظايا متطايرة، وبطولات متلاحقة.

(قانون الأهالي)[20]الذي يمثل شريعة الغاب، جدد العمل به في الجزائر سنة 1912، وفي نفس السنة صدر **(قانون الخدمة العسكرية الإجبارية)**[21] للجزائريين في الجيش الفرنسي، وفيها اعتقل الزعماء الوطنيون في تونس بعد الأحداث الدامية[22].

وتحت كابوس الحرب، ووطأة الحكم العسكري، رفعت الأقلام، وجفَّت الصحف، ولم تستعد الصحافة أنفاسها في تونس إلاَّ في أوائل العشرينات[23]، وجاء **(الظهير البربري)** سنة 1930[24] حشرجة استعمارية يائسة لضرب الوحدة الوطنية في المغرب.

ومع حلول سنة 1930[25] تــوالت احتفالات الجيش الفرنسي بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، والذكرى المئوية لاحتلال كل مدينة، فهو استعراض للقوَّة في حساب المستعمر، ولكنه تحريك للثارات في تاريخ المواطن بصورة أنكأت الجروح وما هي بنائمة، ووضعت المسيرة الوطنية على عتبة الثورة والاستقلال.

وإنَّ النهاية القاتمة ـ مرَّة أخرى ـ التي كتبت لهذه الثورات والانتفاضات في العشرينات، كما كتبت لأخواتها في المشرق، استشهاداً للأبطال أو تهجيراً للزعماء، اضطهاداً لهم وراء القضبان، أو في المنافي البعيدة، هذه النهايات المختنقة، كانت بداية الانبعاث الممدود النفس. والآمال التي تصاعدت في موجة

هذه الانتفاضات، لم تتهاو مع مصارع أبطالها، والقصائد التي ترنحت بين استقبال البطل ووداعه، بين تحية القائد ورثائه، لم تعش الأحداث أنفاساً متقطعة، وإنّما أبعاداً متوالدة متجددة مع تجدد الذكريات الطعينة.

في الساحة الفكرية والأدبية

لن أطيل الوقفة بالنسبة للنهضة الأدبية الحديثة في المشرق العربي في فترة العشرينات، فهي مدروسة، ومستوعبة، ولكن سأوجز القول بأنّ المدارس الأدبية من **(الأحياء)** إلى **(الديوان)** إلى **(المهجر)** إلى **(أبولو)**[26] هذه المدارس المتزامنة، والاتجاهات المتعاصرة، لم تعرف المواجهة الساخنة مثلما عرفتها في العشرينات والثلاثينات، وقد تولدت عن هذه المواجهة صحف ومجلات وتفتحت لها أندية ومحافل، وتعصب لها حواريون ومريدون، وتمخضت عنها كتب[27] ودراسات لم تزل المرجع الأساسي لتحديد البدايات لمدارس أدبية لم نزل نعيشها اليوم.

وبالعكس مما سبق، سأطيل الوقفة في مغربنا العربي فلم يزل في حاجة إلى الدراسة، إن لم يكن بالأحرى في حاجة إلى التعرف الأمين على أحداثه وظروفه، قبل الإقدام العاطفي على دراسته وتقييمه.

ليس من قبيل الصدفة بالمرة، أن تشهد فترة العشرينات

ميلاد الكتب الثلاثة التي ضمت أوَّل مجموعة شعرية حديثة في أقطار ثلاثة من المغرب العربي، متتابعة في صدورها، كالطرقات على باب عهد جديد، متجاوبة الأفكار في مقدماتها، نقدية النظرة في الترجمة لشعرائها، وإن اختلف أسلوب المعالجة من كتاب لآخر.

وقد ضمت هذه المجموعة **(كماً)**[28] من الشعراء، إن تمايزوا على مر الأيام، فذهب الزبد، واحتفظت الأرض بما ينفعها، فإنها المجموعة التي ضمت واحتضنت الشعراء الذين يعتبرون علامات مضيئة في مسيرة النهضة الشعرية الحديثة في المغرب العربي، وفي طليعتهم **(أبو القاسم الشابي)**.

1 ـ شعراء الجزائر في العصر الحاضر ج (1) (1926)
محمد الهادي السنوسي الزاهري [29] ج (2) (1927)
2 ـ الأدب التونسي في القرن الرابع عشر (1926)
زين العابدين السنوسي[30]
3 ـ الأدب العربي في المغرب الأقصى (1929)
محمد بن العباس القباج[31]

وسبق هذه المجموعات ديوان مصطفى آغة 1920 وديوان محمد الشاذلي خزندار 1924 و1925 ثمَّ ديوان **(السعيديات)** لسعيد أبي بكر، ويعتبر هذا الديوان نفساً جديداً في التجربة الشعرية شكلاً ومضموناً. وفي سنة 1927 صدر في تونس للناقد الشاعر الجزائري **(رمضان حمود)**[32] كتاب **(بدور الحياة)** يضم

مقالاته المتسلسلة عن (**حقيقة الشعر وفوائده**) التي نشرها بمجلة (**الشهاب**) الجزائرية و (**الترجمة وتأثيرها في الأدب**) و (**دعاة التجديد**). وحمود ومضة أخرى في الحركة النقدية والشعرية في المغرب العربي، درس في الزيتونة، واخترمه الموت سنة 1929 كمعاصره الشابي، ولم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره، وقد خاض معركة القديم والجديد تنظيراً وشعراً، ووقف من مدرسة (**الأحياء**) ممثلة في (**شوقي**) موقف جماعة (**الديوان**) منها، ولكنه تميز بتجرد الفكرة، واستقلال الرأي وربما سبق (**العقاد**) في كثير من آرائه في (**شوقي**).

ومع الأنفاس الأخيرة للعشرينات، تتفجر قنبلة الموسم (**الخيال الشعري عند العرب**) للشيخ أبي القاسم الشابي[33].

ويكفي لكي نتمثل دوي هذه القنبلة ووقعها على الأوساط الفكرية والأدبية، أن ننقل هذه الفقرة لزين العابدين السنوسي[34].

«لما سمعت هذه المسامرة لأول مرة، خرجت من قاعة الاجتماع مهتم العقل، أكثر مما كنت منبسط النفس، بل يمكنني أن أقول، إني خرجت من تلك الجلسة منكمش النفس، واجفها، مع أني كنت ممن صفقوا لأكثر مقدماتها، والمعجبين بدعاماتها، ولغتها الشعرية الفصيحة. بل كنت أنا نفسي الذي قدم حضرة المسامر إلى مئات المستمعين منوهاً بنبوغه الباكر، ووجهته في التجديد الأدبي ولا غرابة في ذلك! ما دام الشيخ أبو

القاسم أول خطيب تونسي يسمع تونس مثل هاته اللهجة، ويطرق الموضوع على منبر عمومي، تحضره طبقات مختلفة من الثقافات المتفاوتة، والمدارك المتباينة».

لست في مقام التحليل لأبعاد **(الخيال الشعري عند العرب)** في الحركة الفكرية والأدبية طيلة نصف القرن الذي انصرم بعد إلقائها، ولا في مقام تلمس الأبعاد التي ستتوالد عن هذه المحاضرة على مرّ السنين، ولكن يكفيني القول بأنَّ ما تميزت به هذه الوقفة الشابية من جرأة في الفكرة، وموضوعية في التحليل، وبراعة في الاستشهاد والمقارنة، وبراءة في المكاشفة والمصارحة يجعلها في مصاف الكتب والدراسات التي هزَّت المجتمع العربي الإسلامي منذ بدايات القرن حتى فترة العشرينات والثلاثينات.

(الإسلام وأصول الحكم)[35] **(تحرير المرأة)**[36] **(في الشعر الجاهلي)**[37] **(الديوان)**[38].

(الخيال الشعري عند العرب) كانت ثورة في أسلوب التفكير، ثورة في مقاييس الإبداع، ثورة في مفهوم الوفاء للتراث، كانت هذه المسامرة التي حضرها بضع مئات من المستمعين بقاعة **(الخلدونية)** الشعلة المضيئة التي عرَّت خبايا الظلام الدامس، وكادت تذهب بالأبصار. كانت العلامة التي ميزت العشرينات في المغرب العربي.

* * *

إنَّ المقدمات التي صيغت بعناية للمجموعات الشعرية، وليدة

هذا العقد، واختير كتابها من منطلق مواقعهم المتصدرة في النهضة الأدبية والنضال السياسي هذه المقدمات تضافرت على إحكام اللحمة بين الروح السياسية والروح الأدبية، وتلاقت على مباركة الوثبة التي يعيشها الشعر، والدفقة الدموية النشيطة التي سرت في عروقه على أعتاب نهضة شاملة.

فـ (**محي الدين القليبي**) في مقدمته لديوان (**خزندار**) يؤكد في سنة 1924 ما أكّده (**العقاد**) في (**شعراء مصر**) سنة 1930 من هذه العلاقة العضوية بين الثورة بمفهومها السياسي، والثورة بالمفهوم الأدبي:

«إننا اليوم في بداية نهضة، وفي عصر انقلابات مختلفة، يوشك أن ينالنا منها ما قدِّر لنا، وما أعددنا أنفسنا لقبوله وهضمه، فخليق أن نضيف إلى تلك الروح السياسية روحاً أدبية، حتى تستكمل النهضة أركانها، وتتم أسباب التطور والحياة».

ويقول (**محمد بن المبارك الميلي**) مؤرخ الجزائر في مقدمته للجزء الثاني من (**شعراء الجزائر**):

«شعر شعراؤنا بحياة جديدة فنفضوا أيديهم من ذلك الأدب البالي المشوه بلغة التأليف، ونفذوا إلى الأدب الغض، واستمدوا من شعورهم الرقيق الطاهر، وعلى أمثال هؤلاء الشباب، نعلق آمالنا في تجديد الأدب الجزائري، ورفع مستواه».

وإذا كان كتاب (**شعراء الجزائر**) بجزأيه طبع في تونس، وجلّ ما جمع من قصائد سبق نشره في الصحافة التونسية، أو ألقي في المحافل الوطنية في الخضراء لشعراء درسوا في (**جامع الزيتونة**) و(**الخلدونية**) وتخرجوا في الأندية الثقافية، والأمسيات الشعرية، وانخرطوا في الأحزاب السياسية، فإن (**راجح إبراهيم**)[40] في مقدمته لديوان (**السعيديات**) يزيدنا تعريفاً بالملامح التي ميزت تونس في هذه الفترة، تلك الملامح التي سبقت الإشارة إليها في مستهل هذه الصفحات:

«وكانت تونس بين هاتيك الأمم، فقد نهضت من سكونها خلال هاتيك الفترة الحالكة، وقامت بحركة جليلة، فأبرزت صحفاً، وألّفت حزباً سياسياً، ذا بنود مقررة، وغاية مقصودة، وأوفدت إلى عاصمة الحماية وفوداً، وقد تردد ولا يزال يتردد في أنحاء العالم صدى هاته النهضة الجليلة.

في هاته الأونة، نبغ من الكتاب والشعراء كثيرون، بدت في نفثاتهم النثرية، وزفراتهم الشعرية، روح حساسة، وشعور نبيل فأصبحوا ينطقون بلسان الشعب، ويعربون عن آماله وآلامه وهذه الحركة داخلة تحت سلطان النواميس الكونية، وخاضعة لحكم الحوادث والظروف، يعتريها ما يعتري كل كائن حي من نشاط وفتور، وصحة واعتلال، وحسبك أنَّ الفكرة لا تموت، وأن الكلمة الأخيرة للحق، وما ضاع حق وراءه طالب».

(راجح إبراهيم) بلور ملامح التربة الطيبة، التي احتضنت

البراعم الشعرية، بما أوتيت من ازدهار معرفة، وما أتاحت من فرص تعبير، وما أحكمت من هذه اللحمة بين التململ بمفهومه السياسي، والتململ ببعده الإبداعي، و(**زين العابدين السنوسي**) يضع ذلك كله في الإطار الذي يخدم الوحدة الطبيعية والرابطة الفكرية، والعروة اللغوية في المنطقة. يقول في حفل التكريم الذي أقامته (**جمعية قدماء الصادقية**) سنة 1927 (41) بمناسبة صدور الجزء الأول من كتاب (**شعراء الجزائر**):

«**الكتاب الذي نجتمع اليوم له، ونوادع صاحبه اللوذعي الشاعر، يحمل في كل صفحة منه حجة على ما نقول، فأكثر من ترجمهم ممن اغتذى لبان تونس، وكرع من حياض أدبها، بل إنَّ اجتماعنا هذا نفسه دليل على تلك الوحدة الطبيعية، والرابطة الفكرية والعاطفية بين الأختين**».

إنَّ من بين النتائج البارزة للهزات التي اكتنفت العشرينات، أنها جذرت الإحساس بالمقومات الأساسية للشخصية الوطنية في غمرة الفرنسة والتغريب ووثقت الشعور بالوحدة التاريخية والمصيرية في سورة التشتيت، وطغيان التفرقة. أفلا يعجب المرء، والوطن محتل، وقبضة الغاصب على حبل الوريد، أن تتحدث النفوس الكبيرة عن الوحدة والتكامل، والتحرر والسلام؟!.

تلك هي المعاني والأماني التي ما انفك (**زين العابدين**) يشيد بها، ويلوح بأعلامها في كل وقفة تاريخية، تشد أزر قطر من أقطار المغرب العربي في المحنة الجاثمة على الجميع، يقول في مقدمته

لكتاب (بلاغة العرب في الجزائر)[42] والكتاب من مواليد 1925 للأستاذ عثمان الكعاك ويندرج في حسنات العشرينات:

«وفي اعتقادنا أنَّ تعميم الإحساس بالتماس التاريخي، والوحدة اللغوية، هو أضمن طريق يسار به إلى التكافل المنشود، ريثما يتيح الزمان لهذا الشرق نفض الكابوس عنه، وإعلان رغبته الصريحة في الوحدة والسلام اللذين لا تشوبهما تهمة جبن، ولا مداجاة لأنهما يعبران عن نفس مؤمنة قوية تعرف مركزها في العالم، وحقها في الحياة».

وحتى لا تختلط التواريخ، أود التأكيد بأنَّها فقرات كتبت في سنة 1925 ونيست فقرات يمكن - بل من المحقق - أن تعاد في سنة 1985. أي بعد ستين عاماً.

و (التماس التاريخي) الذي أشار إليه زين العابدين، هو إحدى جبهات الكفاح الوطني في فترة العشرينات، فقد تركزت فيها جهود المؤرخ في المغرب العربي على الكشف على أصالة هذه المنطقة، وعراقتها في الحضارة، والتصدي للجهود الاستعمارية اليائسة، لتشويه تاريخ المواطن، وزعزعة الثقة به، وطي المرحلة المشرقة للعروبة والإسلام في تاريخ المغرب العربي، وحصره تعسفاً في الموجات الغازية، الوافدة من وراء البحار، تمهيداً لاقتطاع الأرض للجمهورية الفرنسية، واحتساب المجتمع للحضارة الدخيلة.

وقد تصدى أبناء الشمال الإفريقي لهذه المؤامرة المفضوحة

بروح وحدوية في ذروة التمزيق، وأصالة عربية في قمَّة التغريب، واعتزاز بالعروبة والإسلام في وجه الأكذوبة الاستعمارية: (**المغرب اللاتيني والروماني**).

وكما توالت كتب الأدب. توالت كتب التاريخ في أواخر العشرينات فالكعاك يكتب عن (**بلاغة العرب في الجزائر**) وزين العابدين ينشر الكتاب في مكتبة: (**العرب**) ويقول في مقدمته:

«وعلى ذلك أخذنا نعدُّ سلسلة قيِّمة من الأبحاث الأدبية والتاريخية والاجتماعية والجغرافية لعموم الشمال الإفريقي. أتم القطعة الأولى منها صديقنا المؤرخ والأديب النابغ الأستاذ عثمان الكعاك وهي تتألف من ثلاثة كتب: 1) بلاغة العرب في الجزائر، 2) تاريخ الجزائر، 3) جغرافية بلاد الجزائر سننشرها جميعاً بحول الله، متوالية، ثمَّ نتبعها بتاريخ تونس في مائة عام (1245 - 1344 هـ)».

وفي سنة 1928 صدر لمؤرخ الجزائر (**مبارك بن محمد الهلالي الميلي**) الجزء الأول من كتابه (**تاريخ الجزائر في القديم والحديث**) بينما صدر الجزء الثاني منه في سنة 1932.

وكتابة التاريخ في فترات التحدي والمقاومة، ومواجهة الغزوات الضاربة، لا تعني الحقيقة العلمية المجردة فحسب، وإنَّما تعني إذكاء الحمية، وبعث النخوة والاعتزاز بالشخصية المستهدفة. وغرس الأمل في المستقبل، لذلك فالميلي يعرف التاريخ على أنَّه:

«مرآة الماضي، ومصعد الحاضر، وشهادة حياة الأمة، وتذكار عبقريتها، ورباط وحدتها، وميزان تقدمها».

وفي غمرة الاحتفالات المئوية باحتلال الجزائر، يصدر (كتاب الجزائر) لأحمد توفيق المدني، تحت شعارات بارزة، وقيم خالدة تتحدى الاستعمار وذكراه المئوية:

«الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا».

هوامش المراجعة

(1) مقدمة (السنوسي) لكتابه مؤرخة في 10 ذي القعدة 1345 هـ. وصدر الكتاب في نشرة ثانية عن (الدار التونسية للنشر) في جزأين الجزء الأول بتاريخ ماي 1979 والجزء الثاني في جانفي 1980، بعد إضافات عليهما.

أما (النيال) فقد عرفه السنوسي بـ(المفكر الأديب السيد محمد البهلي النيال).

(2) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي. عباس محمود العقاد. مكتبة النهضة المصرية ط 1930/1، ط 1950/2.

(3) أحمد عرابي باشا (1841 - 1911 م) ونشبت الثورة العربية سنة 1881 ووقعت معركة التل الكبير في سنة 1882 التي كانت نهاية الثورة، نفي بعدها عرابي إلى جزيرة سيلان ومكث بها 19 عاماً، وعاد إلى القاهرة، وتوفي بها في أيام الخديوي عباس انظر (الأعلام) للزركلي. ج 61 صفحة 162/161.

(4) قاد هذه الانتفاضة زعيم نهضة مصر السياسية سعد زغلول (1857 - 1927) ترأس الوفد المصري للمطالبة بالاستقلال سنة 1919. فنفاه الإنجليز إلى مالطة.

انفرد بقيادة الحركة الوطنية في مصر بين سني (**1919 - 1927**)، انظر (**الأعلام**)، ج 3 صفحة 131

(5) قادها في مكة الملك حسين بن علي (**1854 - 1931**) وأطلق رصاصتها الأولى في شعبان 1334 - 1916.

(6) أقام هذه المشانق جمال باشا بعد محاكمات (**عالية**) المشهورة وشنق فيها أحرار العرب سنة 1916، وعدد الذين شنقوا يزيد على ثلاثين في كل من دمشق وبيروت. انظر المظالم في سوريا. فائز الغصين 1918.

(7) قاد معركة (**ميسلون**) الفاصلة يوسف العظمة (**1884 - 1920**) وفيها استشهد، وكان آنذاك وزيراً للحربية في حكومة الملك فيصل، وبعد معركة (**ميسلون**) دخل الجيش الفرنسي دمشق بقيادة الجنرال (**غورو**)، وكانت معركة ميسلون في 7 ذي القعدة الموافق لـ 24 تموز 1920.

(8) من بين قوّاد هذه الثورة وشهدائها الأمير عز الدين الجزائري من أحفاد الأمير عبد القادر.

(9) من بين شهداء العرب سنة 1916 الأمير عمر الجزائري نجل الأمير عبد القادر، وأركان حرب سليم الجزائري، من أبرز القواد في الجيش العثماني، وأصله من بلاد القبائل في الجزائر، واتهم المصلح الجزائري الطبيب العقبي، بالثورة العربية سنة 1916 وكان إذ ذاك في الحجاز، فاعتقله الأتراك، وبعد إطلاق سراحه عاد إلى مكة، وأشرف على المطبعة الأميرية، وتولى رئاسة تحرير جريدة (القبلة) بعد محب الدين الخطيب. وكان ذلك في عهد الشريف حسين.

ومن الذين لم يسلموا من بطش جمال باشا من أبناء المغرب العربي الشيخ محمد الخضر حسين (1873 - 1958) إذ سجن في دمشق بأمر من جمال سنة 1916.

ومن بين الشخصيات البارزة التي كان لها نشاط في النهضة العربية الحديثة في هذه الفترة، الشيخ طاهر الجزائري (1852 - 1920) (الذي كان له الفضل كل الفضل، في كل تقدم ورقي أصابه مسلمو سورية) كما يقول عنه محب الدين الخطيب، ويضيف: (**من الشيخ طاهر الجزائري عرفت عروبتي وإسلامي**).

ومن بينهم (**سليمان الباروني**) الطرابلسي، و (**أبو إسحاق إبراهيم طفيش**) الجزائري و (**تقي الدين الهلالي**) المغربي.

(10) من مظاهر ذلك أنَّ جريدة **(الأمة)** اللسان الرسمي لـ **(نجم إفريقيا الشمالية)** كتبت: **(إننا نقولها بصراحة، إننا وطنيون وباسم مبدأ تقرير المصير للشعوب)** كما عبَّر عنه ولسون نطالب بالحرية والاستقلال لوطننا. انظر **(الحركة الوطنية الجزائرية)** أبو القاسم سعدالله صفحة 324. دار الآداب بيروت 1969

(11) كانت الغزوة في سنة 1911

(12) معركة (الجلاز) سنة 1911 ومقاطعة (الترام) سنة 1912.

(13) الأمير عبد المالك الجزائري بن الأمير عبد القادر، كان رئيساً للشرطة في طنجة وأعلن الحرب ضدّ فرنسا في مارس 1915، وانضم إليه الأمير عبد الكريم الخطابي، وتحالفت فرنسا مع إسبانيا ضد الأميرين فلقي عبد المالك مصرعه في معركة في أوت 1924، ونفي الأمير عبد الكريم سنة 1926

انظر الفصل الخاص بالأمير عبد المالك في **(الحركة الوطنية الجزائرية)** صفحة 257

(14) انظر **(سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها)** تأليف رشدي الصالح ملحس، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة 1343 وانظر **(بطل الريف الأمير عبد الكريم)** عمر أبو النصر، المكتبة الأهلية، المطبعة الوطنية، بيروت 1353 هـ 1934 م.

(15) برز الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر كزعيم للحركة الإصلاحية السياسية في الجزائر سنة 1919 بعد نجاحه في الانتخابات. وأصدر جريدة **(الاقدام)** وكان لحزبه الإصلاحي برنامج من عشر نقاط هي في مجملها دعوة للمساواة بين الجزائريين والفرنسيين مع المحافظة على الشخصية الوطنية الجزائرية، وقد أبعدت السلطات الاستعمارية الأمير خالد إلى الإسكندرية سنة 1924. انظر **(الحركة الوطنية الجزائرية)**، صفحة 410

(16) انظر: الشعر التونسي المعاصر، محمد صالح الجابري. صفحة 103. الشركة التونسية للتوزيع 1974.

(17) أُنشىء **(نجم إفريقيا الشمالية)** في باريس في مارس 1926 من جماعة أهالي إفريقيا الشمالية، وأعلن عن الأمير خالد رئيساً شرفياً له انظر **(الحركة الوطنية)**، صفحة 424

(18) تأسست **(جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)** سنة 1931، ولكن محاولات

تأسيسها بدأت من أوائل العشرينات وبالتحديد سنة 1924 حيث يذكر الشيخ الإبراهيمي بأنه وضع (**القانون الأساسي**) لها في هذه السنة بطلب من الشيخ عبد الحميد بن باديس.

انظر (**شعر المقاومة الجزائرية**) صالح خرفي، صفحة 136 ش. و. ن. ت. الجزائر.

(19) انظر (**علال الفاسي رائد الحركة الوطنية المغربية**) محمد العلمي، صفحة 49، مطبعة الرسالة، الرباط 1980

(20) بدأ تطبيق هذا القانون الذي يمثل شريعة الغاب خلال ثورة المقراني سنة 1871. وحدد العمل به بعد ثورة 1881 ثمّ بعد ثورة عين التركي سنة 1901. ثمَّ في سنة 1912، الأمر الذي يدل على أنّ النفس الثوري في الجزائر لم يعرف انقطاعاً طيلة فترة الاستعمار. انظر (**الحركة الوطنية**).

(21) صدر قانون التجنيد في 2 فبراير 1912

(22) الزعماء المعتقلون هم: مختار الكاهية، علي باش حانية، الصادق الزمرلي، حسن حلاق، محمد نعمان، الشاذلي درغوت، عبد العزيز الثعالبي

(23) صدر قرار (**فلاندات**) في فيفري 1921 وبموجبه سمح للصحف المعطلة بالعودة، وبظهور صحف جديدة. انظر (**الشعر التونسي المعاصر**) محمد صالح الجابري، صفحة 105، الدار التونسية للنشر 1974.

(24) أصدرته الحماية الفرنسية في 16 ماي 1930

(25) رصدت الحكومة الفرنسية أموالاً طائلة لهذه الاحتفالات، وأصدرت سلسلة كتب تمجيداً لقادة الاحتلال، ووجهت الدعوة لحضورها إلى أوسع نطاق. وكانت هذه الاحتفالات موضع استنكار ومقاطعة من الجزائريين، والوطنيين الأحرار في كل مكان..

(26) تزعم هذه المدرسة أحمد زكي أبو شادي بمجلته (أبولو)، وكان من أقرب الناس إلى الشابي، وأعمقهم تقديراً له قال عبد العزيز عتيق عن (**أبي شادي**):

«ولم يخدم الأدب والشعر في هذه الأيام أحد بمثل ما خدمها الشاعر فقد أنشأ مجلة (أبولو) وجعلها منبراً حراً للشعر والدراسات الشعرية فأوجد بذلك نهضة في الشعر، حرية بالالتفات إليها، كما كشف لنا عن أكثر من خمسين شاعراً، كانوا لولاه سيظلون مغمورين مجهولين لا يحس بهم أحد» انظر (**أنداء الفجر**) لأحمد زكي أبي شادي، مطبعة التعاون 1934.

(27) مثل كتاب (الديوان) للثلاثي، العقاد، المازني، شكري، وكتاب (الغربال) لمخائيل نعيمه، و(السياسة الأسبوعية) ومجلة (أبولو).

(28) ضمن المجموعات الثلاثة (62) شاعراً، (شعراء الجزائر: 21) (الأدب التونسي: 14) (الأدب العربي في المغرب الأقصى: 27).

(29) الطبعة الأولى، المطبعة التونسية 1344 هـ، الجزء الأول، الجزء الثاني، مطبعة النهضة 1346 هـ 1927.

(30) الطبعة الأولى، مطبعة (العرب) 345: م اجتهاداً، لأنَّ الدار التونسية للنشر لم تحتفظ بما يدل على الطبعة الأولى في النشرة الثانية.

(31) الجزء الأول والثاني، الطبعة الأولى 1347 هـ 1929، المكتبة المغربية، الرباط.

(32) النشرة الثانية (السعيديات) لم تحتفظ هي الأخرى بما يعرف بالطبعة الأولى لكن مقدمة راجح إبراهيم للديوان مؤرخة في غرة ذي الحجة الحرام 1345 هـ والنشرة الثانية، صدرت في 1981 عن الدار التونسية للنشر.

وكتاب (بذور الحياة) صدرت طبعته الأولى سنة 1346 هـ 1928 م.

(33) ألقيت المسامرة بقاعة الخلدونية سنة 1348 هـ 1929 م وصدرت طبعتها الأولى سنة 1349 هـ 1929 م وصدرت النشرة الثانية عن الدار التونسية للنشر سنة 1983.

(34) انظر (الخيال الشعري) صفحة 13.

(35) (الإسلام وأصول الحكم) علي عبد الرزاق 1925.

(36) (تحرير المرأة) قاسم أمين بك (1863 - 1908) صدرت طبعة ثانية لهذا الكتاب سنة 1347 هـ في الذكرى العشرين لوفاته.

(37) (في الشعر الجاهلي) طه حسين 1926

(38) (الديوان) 1921

(39) انظر (شعراء الجزائر) الجزء الثاني.

(40) (السعيديات) صفحة 17.

(41) كانت الحفلة في جمادى الثانية 1245 هـ وترأس الحملة الأديب الشاعر مصطفى آغة رئيس النادي، وكان من بين الخطباء، زين العابدين السنوسي، وعثمان الكعاك ومصطفى بن شعبان.

(42) (بلاغة العرب في الجزائر) عثمان الكعاك. نشر مكتبة العرب بتونس 1344 هـ.

عُمَرْ بنْ قَدّور
رائِدُ الصَّحافةِ الوطنيَّةِ الجزائريَّة

إنَّ القارىء المعاصر منّا، لتعروه نشوة اعتزاز وافتخار، وهو يتصفح الدوريات الصادرة في بدايات هذا القرن في المغرب العربي، لهذه الروح العربية الإسلامية التي تسودها، وهذا التفتح الواعي على الأخطار التي تهدد العالم الإسلامي في فترة كانت الأطماع الغربية تنهش الإمبراطورية العثمانية من جميع أطرافها مشرقاً ومغرباً. وكانت أقطار المغرب العربي أولى ضحايا تلك الأطماع، فالجزائر راحت ضحية الاستعمارُ الفرنسي بعد جهاد مرير تحت زعامة الأمير عبد القادر الجزائري، وتونس وقعت تحت الحماية الفرنسية. وقبيل الحرب العالمية الأولى امتدَّت الأطماع الفرنسية إلى المغرب الأقصى[1] واتَّجهت الأطماع الإيطالية إلى ليبيا[2].

وهذه المواجهة المبكرة للأطماع الغربية من أقطار المغرب العربي ولَّد فيها إحساساً مبكراً بأنَّ هذه الأطماع لن تقف عند حد، حتى ترث الإمبراطورية العثمانية في كل أطرافها. كما كانت المعاناة القاسية مع المحتل، والصراع المرير مع خططه التي ترمي إلى ابتلاع المنطقة حضارياً بعد اجتياحها عسكرياً، سبباً رئيسياً في

هذا الرصيد من الوعي العميق والنظرة النافذة. في هذه العاطفة الإسلامية الجارفة، التي تتجاوز الحدود، وتختصر المسافات، وتتجاهل المحتل الجاثم على البلاد لتعانق الأخوة الإسلامية في أروع مظاهرها. وتفجّر العاطفة القومية في أخلد اتجادها في هذه المنطقة من العالم العربي.

وإنك لتعجب لهذه الروح في رواد صحافة المغرب العربي في مستهل القرن، والفترة فترة خنق للحريات، وتفنن في أساليب الاضطهاد الفكري، وابتداع القوانين الزجرية لتكميم الصحافة ومصادرتها،[3] ومطاردة هؤلاء الرواد فكرياً وجسدياً، بدءاً بتشويه السمعة، والتضيق المادّي، وانتهاء بالسجن والنفي بعيداً عن مواقع النضال[4].

في هذا المنعرج الخطير برز عمر بن قدور الجزائري (**1886 - 1932**) بجريدة (**الفاروق**)[5] صحافياً رائداً، وكاتباً ذائع الصيت، وشاعراً تلقفت قصائده دوريات المشرق والمغرب، وملأت مقالاته في ظرف ثلاثين سنة أكثر من أربعة عشر دورية عربية، حتى قال عنه (**فيليب دي طرازي**) في تاريخ الصحافة العربية[6].

«يعد هذا الأديب من أكتب الصحافيين في المغرب الأوسط وأرقاهم».

* * *

قليلاً ما تساعدنا المصادر لاستكمال ملامح حياة هؤلاء

الروّاد، الذين تقمصوا شخصية الجندي المجهول في مواجهة المستعمر، فزهدوا في سرد أيامهم سرداً رتيباً، وخلّدوا أعمارهم بالأمجاد والمواقف، وشغلوا بها عن مساعدتنا بوثائق لتراجمهم. بل ربما زهدوا في النشر لمن يكتب عنهم، أو يثني على جهودهم. وكذلك كان عمر بن قدور. حتى إذا وافاه الشاعر (**صديق أحمد الرحالة المصري الأزهري**)[7] بقصيدة (**صوت المشرق في المغرب**) تتضمن ثناء على صاحب (**الفاروق**) نشرها مرغماً. وقدّمها بهذه السطور:[8].

«تلقينا بيد الممنونية والشكر من بريد تونس الخضراء هذا التقريظ النفيس، الذي تحتم علينا نشره، رغماً عمّا كتبناه على أنفسنا من عدم نشر الثناء على شخصنا، وذلك لرقة تعابير هذا التقريظ، ودقّة عبره. فنثني على براعة ناظمه وحسن مقصده».

وقلّما كتب عمر بن قدور عن نفسه، على كثرة ما كتب عن كل صغيرة وكبيرة شغلت عصره، وربما اضطرّ في موقف الدفاع عن نفسه إلى ذكر بعض المراحل الخفية من حياته، ثمّ لا يلبث أن يثوب في استحياء إلى ما هو أهم من تعداد أيام عمره، ولو عمدنا إلى جمع كل الفقرات التي تحدث فيها هذا الصحافي الرائد بصيغة التأريخ لحياته، لما أسعفتنا بأكثر من نقاط مضيئة في حياة كلها نكران للذات، وذوبان في الأمانة التي حملها الإنسان، وأشفقت منها السماوات والأرض والجبال.

* * *

لم يشغل عمر بن قدور صحافياً وكاتباً وشاعراً، بقضية معاصرة له، مثلما شغل بـ (**الشرق**) وبـ (**الوحدة الإسلامية**) وبـ (**العالم العربي**).

كان (**أبو حفص**) يؤمن بوحدة العالم الإسلامي إيماناً لا تشوبه شائبة من ريبة أو تردد أو تخاذل. على قسوة ما لاقى في سبيل هذا الإيمان من مطاردة وتغريب وأذية في الفكر والجسم معاً. لا من المستعمر فحسب. ولكن من أذنابه من أبناء الوطن للأسف. ولم تكن صحافة (**عمر بن قدور**) إلاَّ انعكاساً صادقاً لهذا الإيمان الضارب في أعماقه بـ (**الوحدة الإسلامية**) وبقدر تجذر هذا الإيمان في الحنايا، بقدر ما يتعمَّق الجرح، ويشتد النزيف حسرة على تمزق هذا العالم الإسلامي، وتطاحنه، وتفرقة شيعاً وأحزاباً، جنساً وعرقاً.

فهو إيمان راسخ بالوحدة، وتفجع مريع لانعدامها، قناعة بوفرة أسباب التوحيد للعالم الإسلامي عقيدة وحضارة وتاريخاً وواقعاً ومصيراً. وخيبة بالواقع الذي يمزق هذه الأسباب ويجعلها في خدمة أطماع المتربصين بالعالم الإسلامي. والمسلمون بتخاذلهم وتخلفهم يعززون هذه الأطماع. ويهيؤون الفرص لتحقيقها وتمكينها من رقابهم:

ويجعل (**عمر بن قدور**) (**الوحدة الإسلامية**) المبدأ الخامس من مبادىء جريدته (**الفاروق**) يلتزمها مبدأ في العقيدة، ومنهجاً في الكتابة ونفساً متواصلاً في معالجة كل القضايا التي هزَّت العالم

الإسلامي في تلك الفترة[10].

«لست أبسط في هذا الباب، قضية غير معقولة، بل إنني أقرر إثباتها، وهي المبدأ الخامس من مبادىء هذه الجريدة، وأعني به قضية (الوحدة الإسلامية) أي وحدة المناسبات. والإحساسات الروحية التي تربط ثلاثمائة مليون نسمة، يتمسكون بمبدأ التوحيد ويتوجهون إلى قبلة واحدة في صلاتهم».

ولا يكتفي (ابن قدور) بهذا الجانب الروحي للوحدة الإسلامية، فيقصرها على تجاوب الشاعر، والتلاقي على قبلة واحدة في واقع مرير يتطلب تجنيد كل طاقة لزحزحة هذا الواقع. وإنَّما يعي وعي الخبير أبعاد هذه الوحدة في تصحيح الأوضاع المتردية، كما يدرك الإدراك المتبصِّر جزع الاستعمار من صحوة هذه الوحدة، وتربصه الدائم بكل لفتة تشير إليها.[11].

«إنَّ الجهل قضى قبل أن تقضي السياسة، بأن يكون المسلمون في المعمورة متقاطعين، ينزعون إلى مبادىء عنصرية، ونوازع جنسية وكان بأسهم شديداً بينهم. فلما جاءت السياسة الغربية أيدت هذا الحكم واستعملته لنيل أغراضها، فانبث الشقاق بين الأقوام الإسلامية. على أنَّهم ما كانوا لينخدعوا وما كانت الحيلة لتنطلي عليهم إلاَّ لما نسوا ما ذكروا به من قوله تعالى: ﴿إنَّما المؤمنون إخوة﴾.

لقد نسوا ذلك، فانطلت عليهم الحيلة، وحيل بينهم وبين ما

يشتهون، وما انتبهوا إلّا بعد أن ذهب الغانم بغنيمته، وفاز المفترس بفريسته، فهم الآن في ذهول عميق، وما من سبيل لإبادة هذا الذهول وخور العزيمة إلّا بتوحيد إحساساتهم. ومناسباتهم الدينية. وقد لا يخفى أنَّ هذه التشوفات تفزع أوربا، وتعتبرها تشوفات عدوانية مع أنَّها في الحقيقة تشوفات أساسية للتمدين والعمران.

ووجود الوحدة الإسلامية، كوجود الوحدة المسيحية، مضمونها تضامن الإحساسات الملية والقومية، وليس في تبادل هذه الإحساسات خطر على المدنية العصرية كما يتوهم رجل الغرب».

وعمر بن قدور الشاعر، يؤكد شعراً ما سبق أن نادى به نثراً أو العكس، أنفاسه تتكامل في القصيدة والمقال، وأصداؤه تتجاوب مشرقاً ومغرباً حول فكرة واحدة، تتعدد أسماؤها، وتتوحد في مسمى واحد. وتتنوع العناوين بالقصائد والمقالات، والفكرة تزداد التحاماً ووثوقاً.

فقصيدة (يا شرق) التي نشرها (ابن قدور) أوَّل مرة في جريدة (**الحضارة بالآستانة، العدد** (**115**) السنة الثالثة 20 حزيران 1912. ثمَّ أعاد نشرها في جريدة (**الفاروق**) عدد 9/11 ماي 1913. إنَّما هي نفثة مصدور في الحالة التي تردى فيها العالم الإسلامي نتيجة الخذلان والتطاحن، وغيبة الوحدة المنقذة:[12]

يا شرق. ما لعقول قومك، لا تعي
نصحاً من الماضي إلى المستقبل
صالت عليك مطامع الغرب الذي
أرضعته لبن الترقي الأكمل
إن كان أهل الغرب قوم تمدن
فهم الثعالب، سبقاً بتحيل
جعلوا مواطننا حمى لذويهم
وأبو علينا أن نقر بمعقل
يا شرقنا، إني أعيذك أن ترى
متغافلاً عنهم، فتسقط من عل
إني أعيذك. أن يسود نفوذهم
وتساق حيلتهم عليك فتنطلي
يا شرقنا، يكفيك ما هو حاصل
فأعد فعال السالفين البسل
وانهض فديتك، واتخذ لك قوة
مقرونة بالسعي؛ دون تمهّل
إنّ القوى عند الشدائد تبتغي
بالحزم والتدبير تمّ الصيقل

ولو تتبع الدارس العناوين التي تتصدر افتتاحيات عمر بن قدور في جريدة (الفاروق) والقصائد التي تتوسط هذه الجريدة وغيرها من الجرائد التي نشر بها في مستهل القرن حتى وفاته[13]

لتلمس نفساً إسلامياً لم ينقطع طيلة ما يقرب عن ثلاثين سنة، قضاها الكاتب الشاعر في جهاد القلم مع ما تخلل هذه السنوات من إبعاد ونفي من الجزائر العاصمة إلى أعماق الصحراء، من موقع النضال ومجابهة المستعمر، إلى عاصمة (**الطريقة التيجانية**) في (عين ماضي)، حيث تتولى الأجواء الصوفية والطرقية المبيتة على الإسلام من المستعمر، ترويض النفوس الأبية التي استعصت عليه في عواصم البلاد[14].

* * *

بقدر ما طوح صاحب (**الفاروق**) بالنظرة في أرجاء العالم الإسلامي يعالج قضاياه ومآسيه بأنفاس حرى، بقدر ما انغمس في محيطه الأقرب في المغرب العربي يعالجه بنفس الروح الإسلامية، وهو مدرك بأنَّ المأساة جاثمة وزاحفة على العالم الإسلامي في كل أطرافه، وأنَّ الداء هنالك في الشرق، نفس الداء هنا في أقطار المغرب العربي. داء (**اللاتضامن**) كما كان يؤكد في أكثر من موقف ولهذا بادر (**ابن قدور**) في سنة 1914 بالدعوة إلى تأسيس (**جماعة التعارف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا**) والصحافي المدرك لخطورة هذه الدعوة والخبير بالواقع المؤلم يطرح هذه المبادرة طرح التساؤل والاستفهام وكأنَّه يتنبأ بأنَّ الدعوة صرخة في واد: [15].

«مشروع عظيم. هل في الإمكان تأليف جماعة من مفكري مسلمي الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، تدعى جماعة التعارف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا؟؟».

(ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون. قرآن شريف).

ويميز (ابن قدور) هذا النداء بالعمود الأول من الصفحة الأولى لأكثر من عدد من جريدة (الفاروق) ابتداء من العدد(66) 22 / يوليو 1914 ويقول:

«لقد شعرنا بإحساس شريف، يرى بين المفكرين من هذه الأمّة الإسلامية في غضون ما تنفثه صدورهم، وتخطه أقلامهم، وتبديه آراؤهم، ولذلك رأينا أن نهذب هذا الإحساس، ونزيده طموحاً وتشبثاً بالنمو، بنصب هذا المشروع العظيم أمام أعين إخواننا المفكرين ليجعلوه قبلة آمالهم، ووجهة أغراضهم في أعمالهم، ومحط غاياتهم ومقاصدهم.

فليبذلوا إذن كل نفيس لإعلاء وتنمية شأن التعاون بينهم وإننا لننتظر جواب كل فرد منهم على السؤال المرسوم أعلاه ليتسنى لنا أن نسجله في دفتر (التعارف) متوسلين إلى الأيام بالثبات لكي نحصل على الغاية القصوى من امتطاء صهوة التعارف، وحصر كافة الأنظار في مشاهدة الائتلاف والاتحاد حتى يسهل العمل على الأثر. والله ولي الإعانة والتوفيق سبحانه».

وضاعت صيحة عمر بن قدور صرخة في واد، وتلاشت أصداؤها مع قيام الحرب العالمية الأولى ومع الإبعاد الذي سلط عليه هو نفسه حيث سيق راجلاً إلى جنوب الجزائر لقضاء سنوات

الحرب في (دار الغربة) كما كان يسميها في (عين ماضي).

وبالرغم مما تعرض له من أهوال وأخطار في هذه المحنة القاسية، عاد عمر بن قدور بعد إطلاق سراحه إلى نضاله الصحفي فأصدر (الفاروق) في (نشر جديد) وفي صورة (**مجلة أسبوعية**) سنة 1920 [16]، وواصل جهاده في الأفكار التي نادى بها منذ بداية القرن، وعاودته فكرة (**جماعة التعارف لأبناء شمال إفريقيا**) وحز في نفسه أن تمضي كل هذه السنوات العجاف دون أن تتاح الفرصة لتحقيق هذه الفكرة الوحدوية، بل على العكس جندت كل الفرص لبث الشقاق والتناكر، وتمزيق الصف.

«إنَّ التناكر هو العلَّة الرئيسية في سكون المفكرين، ولو كانوا متعارفين لاستطاعوا أن يمحقوا العلل الأخرى، فالمفكرون ملزمون قبل كل شيء بالتفاهم والتعارف مع بعضهم البعض، وأقرب السبل إلى ذلك صفحات الصحف الإسلامية، والنوادي الأدبية.

ولذلك نكرر الطلب من المفكرين الذين آلمنا سكوتهم وتناكرهم أن يسارعوا إلى الاجتماع والتعارف، ليتمكن لنا أن نكون على يقين تام من وجود مفكرين بين مسلمي شمال إفريقيا، تعلق عليهم الأمة الآمال في القيام بإرشادها.

أفهم لذلك يفعلون؟!

أم نحن مغرورون أيضاً؟ لم نخاطب إلاَّ أسماء اخترعناها لا

تنطبق على أحد في الوجود؟.

ذلك شأن يتكفل بنفيه أو إثبـاته المستقبـل، وهو بـذلك زعيم».

* * *

إنَّ الشعور بوحدة المغرب العربي ميَّز كل نشاط وطني شهدته الفترة المبكرة من بدايات هذا القرن، وهي بدايات للإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي الذي لم ينطلق إلّا في نطاق مغرب عـربي مـوحَّـد، وتحت اسم جـامـع هـو (**الشمـال الإفـريقي**) فالاتحادات الطلابية، والأحزاب السيـاسية والبعثات الوطنية إلى الخارج كانت كلها تنضوي تحت اسم (**شمال إفريقية**)[17] أو على الأقل هي كذلك في بداية عهدها، فإذا اشتد ساعدها، ورسخت قاعدتها على أرض قطرية صلبة اتَّخذت لها اسمـاً مستقلاً، منتسباً إلى القطر جغرافياً، ولكنه في المضمـون الإصلاحي يـظل وفياً لمفهوم وحدة المعركة والمصير، مغربياً وعربياً وإسلامياً.

وعمر بن قدور لم يجسم هذا الاتجاه نداء لتأسيس (**جماعة التعـارف**) فحسب، وإنَّما كـان بقلمـه، وصفحـات جـريـدتـه، وبالموضوعات التي تحتضنها هذه الجريدة والمشروعات الإصلاحية التي تنادي بها، كان في كل ذلك نموذجاً لما يمكن أن يحلم به، ويتطلع إليه جيل اليوم والغد من رؤية هذا الجزء من الوطن العربي موحد الكلمة دعماً لوحدة الصف العربي.

كانت جريـدة (**الفاروق**) بعمـرها القصـير زاخرة بـالصور

النموذجية لما يمكن أن تكون عليه وحدة الشعور بين أبناء المغرب العربي، حافلة بإنتاج الأدباء والكتّاب من تونسيين ومغاربة وليبيين[18]، متفرغة لمعالجة القضايا المطروحة وراء الحدود الجزائرية، بنفس متفتحة، ودون أية عقدة بأنَّ قلماً جزائرياً يتدخل في شؤون تونسية أو مغربية، بل بالعكس كان الاستقبال من الأطراف الأخرى استقبالاً ينم عن الشعور المتبادل، والتسامح الأخوي، والتكاتف في المحنة الواحدة، ومواجهة المستعمر الواحد[19].

إنَّ مواجهة هذه الأقطار للمستعمر أفرزت ـ كرد فعل ـ قيماً أصيلة وسلوكيات رائدة، ما أحوجنا إلى الرجوع إليها والاسترشاد بها، فكم رسخت الشدة من قيم، تلاشت في وقت الرخاء.

وإنَّه من الأدلة الواضحة على تشابك هذا الجزء من الوطن العربي في فترة الاستعمار أنَّك لا تستطيع أن تطمئن إلى رؤية تسلطها على قطر معين إلاَّ بالاطِّلاع الكامل على بقية الأقطار وليس من السهولة بلورة حكم سياسي أو أدبي إن لم يشفع بنظرة فاحصة، تركز هنا وهناك.

بل إنَّ الكاتب والأديب كان مشاعاً بين أكثر من جبهة صحافية في الجزائر وتونس والمغرب وليبيا، وفي المشرق العربي، والإلمام بإنتاج الأديب يتطلب إلماماً بكل الدوريات التي زخرت بها أقطار المغرب العربي منذ بداية هذا القرن حتى فترات الاستقلال في الخمسينيات والستينيات[20].

ولو أردنا التركيز على بعض الأحداث البارزة التي هزّت منطقة المغرب العربي في تلك الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، لجاءت هذه الأحداث الفواجع متاورة متزامنة تنتظم كل أقطار المغرب العربي، فهي على ميعاد في حساب الأطماع الغربية في هذه المنطقة، وهي على موعد مع الوعي الوطني، الخبير بهذه الأطماع، والمتجسم في أقلام الكتاب والشعراء، وعلى أعمدة الصحافة الوطنية ويأتي بين هؤلاء الرواد وفي طليعتهم عمر بن قدور الجزائري.

ولنركز على أحداث بارزة أربعة، تعاقبت على المنطقة في مدى سنة واحدة لا تزيد إلاّ قليلاً. سنة 1911 [21].

الهجمة الإيطالية على طرابلس.
فرض الحماية الفرنسية على مراكش.
الأحداث الوطنية في تونس.
الخدمة العسكرية الفرنسية في الجزائر.

ولن ندخل في تفاصيل كل حادثة، وإنّما سنقتصر الوقفة على ومضات تلقي الضوء على موقف الشاعر، الكاتب، الصحفي عمر بن قدور في غمرة هذه الأحداث.

* * *

الهجمة الإيطالية على طرابلس

لم يفجع عمر بن قدور بمأساة استهدفت العالم الإسلامي - على كثرة مآسيه في تلك الفترة - كما فجع بمأساة طرابلس، فقد

رآها بداية انفراط العقد الإسلامي، وبداية سقوط جبهاته الواحدة تلو الأخرى، ولمس في هذه المأساة المحك الحقيقي والفرصة الأخيرة لوثبة العالم الإسلامي من كبوته، أو دخوله عصر الانتحار. وربما لوح منذ سبعين عاماً بالمآسي التي لم نزل نعيشها اليوم: ونتوقعها غداً.

وكتابات عمر بن قدور عن طرابلس، شعراً، ونثراً، كانت تتنزى دماً، وتنتفض حمية، وتكاد تتمزق يأساً وقنوطاً وهو يرى مجاهدي طرابلس آخر الأمر يواجهون المحنة فرادى بعد أن تخلّت عنهم الزعامات والقيادات، التي استمرأت الصلح مع إيطاليا.

عالج عمر بن قدور هذه المأساة وفي جريدة واحدة هي جريدة (الحضارة) في الآستانة بالمقالات المطولة والقصائد التالية:

- نبذة عن طرابلس الغرب العدد 78 السنة الثانية 5 تشرين أول 1911
- بني الطلبان (شعر) العدد 85 السنة الثانية 23 تشرين أول 1911
- التيار السياسي العدد 103 السنة الثالثة 28 مارس 1912
- الأسوة الحسنة في حرب طرابلس الغرب (شعر)
العدد 131 السنة الثالثة 10 تشرين أول 1912
- ليتقوا الله في طرابلس العدد 132 السنة الثالثة 17 تشرين أول 1912

ومن مقاله (**نبذة عن طرابلس الغرب - يا غارة الله عانيت فانتهكي**) نقتطف هذه الفقرة التي تصور كيف كان وقع الخبر على أبناء الجزائر باتجاه الأسطول الإيطالي إلى طرابلس:

«في هذا المساء (أي مساء تاريخ هذه الرسالة)[22] وهو مساء اليوم الثاني من عيد الفطر، فاجأنا ـ بينما كنا نعايد الأصدقاء والأحباب ـ نبأ عظيم اهتزَّت له قلوب المسلمين، فوقع على أسماعهم كالصاعقة المحرقة، فماجوا له فزعاً ووجلاً. ذلك النبأ خبر ذهاب الأسطول الإيطالي إلى طرابلس الغرب، يحمل القوَّة الاحتلالية، لتنتزع تلك الدرة الثمينة من تاج الخلافة الإسلامية، تمرُّداً وتجاوزاً وإخلالاً بالراحة العامة، وتعكيراً لكأس السلام، وازداد عجب الناس ونما في أذهانهم نمواً كبيراً، من جرَّاء تظاهر إيطاليا، بأنَّها لا تعتبر امتلاك طرابلس إعلاناً للحرب، بل تتعنت بأنها ستعلن الحرب على الدولة العلية، إذا تجاوزت هذه على النزلاء الإيطاليين المنبثين في أملاكها.

إلَّا أنَّ استعداد حامية طرابلس للدفاع عن هذه القطعة العثمانية، وصدور الأمر من الآستانة بضرب الإيطاليين إذا لاصقوا الثغور، قد أدخل على الأفكار هنا نوعاً من الهدوء والاطمئنان، والرجاء في الله العظيم في السر والإعلان».

وعمر بن قدور ـ والمحنة في بدايتها، والأمل يراوده في وقفة تاريخية بطولية ـ يقسم مقاله هذا كلمات، (كلمة سياسية ـ كلمة حربية ـ كلمة في القوة ـ كلمة في الجيش) فيعطي لنفسه وهو الصحافي الأعزل في وطن محتل، يعطي لنفسه بدافع الشعور بوحدة المعركة صفة القائد، وتتلاشى في غمرة الشعور الإسلامي الموحَّد أسوار الاحتلال، وحدود التشتيت، ومسافات التمزيق:

«إني أكتب هذا، ولم يتأكد عندي حدوث الحرب، ولكن البوادر التي ظهرت تدل على أنَّ الحرب ستعلن، ولو في المدَّة التي تقتضيها هذه الرسالة في الطريق.[23] اللهمَّ إلاَّ أذا حدث ما لم يكن في الحسبان، فتعرقلت مساعي إيطاليا، وتجشمت عن التورُّط في مزالق القتال. وعليه فإني سأسطر هذه الكلمة إلى الجيش، تذكاراً لهذه الرذيلة التي أتت بها إنسانية أوربا. رذيلة السلب واللصوصية. وإن حصل الحرب، سأخاطب جيشاً ظافراً إن شاء الله تعالى».

وبهذه الصورة، يطفو عمر بن قدور بصدق عاطفته، وأصالته العربية الإسلامية، فوق الأسلاك الشائكة، والرقابة الخانقة، والاستعمار الجاثم على النفوس، والأنفاس، فيوجه من عاصمة الجزائر، نداءاته، وتوجيهاته الحربية، إلى الجيش العثماني، وينشرها على صفحات جريدة تصدر في عاصمة الخلافة في إحدى المحن التي منيت بها الخلافة محنة (طرابلس الغرب).

وما كان لآمال عمر بن قدور أن تتصاعد، والفترة فترة الخيبة والخسران في كل جبهة، فما مضت سنة حتى كانت الأرض غير الأرض والسماوات، تلاشى الحماس واستخذت الحميَّة. واستعيض الاستعداد للحرب بالبحث عن الصلح:

«هدأت الأفكار عن الانشغال بالحرب، وتناست ذلك الضجيج الذي أقامته في مثل هذه الأيام من العام المنصرم. فلماذا تبدل الشأن واختلف الشهران؟ أما العدوّ على الأبواب كما

كان أمس؟ أما الخوف على مسلمي طرابلس الغرب في العام الحاضر، هو الخوف عليهم في الغابر؟ إن الحرب لم تزل على هيأتها الأولية، وكيفيتها الابتدائية. فلم ينقل القتال من سواحل اليم قط، ولم ترسخ قدم المهاجم في محيط خارج عن هدف مدافع أسطوله.

فلماذا سكتت يا ترى تلك الحركة القلمية، والفكرية والشعرية والحماسية والخيالية والاجتماعية والعلمية التي كانت تجول كلما جال الليوث المجاهدون في دار الحرب!؟».

وكشأن عمر بن قدور في استخلاص العبر من الأحداث، لم يفته أن يستخلص من هذه المحنة علّة العلل في كل المآسي التي لم يزل الشرق العربي والعالم الإسلامي يتخبط فيها حتى يومنا هذا، وعلّة العلل هذه لا تتجلى في مأساة مثلما تتجلى في (**قضية فلسطين**) فما أشبه الليلة بالبارحة:

«**كأني أرى الإنسان مجبولاً على الملل، والشرقيون من دون الخلق، يسأمون كثيراً من المثابرة على نسق واحد. ولولا مثابرة مجاهدي طرابلس الغرب، لقلنا سلام على الشرق والشرقيين إلى الأبد**[24]».

ولم يكن عمر بن قدور في مستهل القرن، بعيداً عن معاناة العالم العربي والإسلامي في أواخر هذا القرن، بل يكاد يشير بالبنان، ويلمس بشباة قلمه العواقب الوخيمة للنذر التي عاينها

وعايشها، نبضة جريحة، وقصيدة طعينة، ونظرة نافذة، ونبوءة صادقة، كانت مأساة (طرابلس) البداية للمآسي المتعاقبة، ومن هنا كان الهلع، وكانت الفاجعة.

إنَّ ابن قدور وهو طعين الاحتلال الفرنسي لبلاده، لا يملك الأقولة حق يصدع بها، ونفثة مصدور ينفثها، ولو كلفته شبابه وصحته وحياته، فجزعه على طرابلس جزع على قطر عربي مسلم، في طريقه إلى ما آلت إليه الجزائر تحت حكم المستعمر، وجزع على أقطار شقيقة أخرى ينتظرها نفس المآل، فالرواية لم تتم فصولاً.

والصحافي الجزائري يصدر في كل ذلك عن تجربة مريرة بأطماع الأجنبي، وخبرة طويلة بدسائسه ومكائده، ووعي تام بالبدايات والنهايات. ولو قدر لابن قدور أن يبعث حياً، واستكتب في واقعنا اليوم، لأعاد نشر مقالته هذه مرتاح الضمير، دون أن يضيف إليها حرفاً واحداً:

«فلنخش الله في عباده، وأيامى مجاهديه، ويتامى المتطوعين في سبيله، وأرواح أسلاف مضوا على هديه. وإلاَّ فإنها وأيم الله، لمصيبة تفوق كل مصيبة سبقت، وتزري بكل ملمة سلفت، تتناكر عندها الأجيال، وتتشتت الخلال، وتنشق عصا الشعوب الإسلامية، وترتكز قوميتها على غير مركز، بل تصبح فوضى، وتنصب الدسائس على بلاد العرب، وتروج فيها الأكاذيب الأجنبية، وتقوم الفتن في كل ناحية، وتنتهك حرمات بيضة

الإسلام، ويزري بها أهلها. ويتبرأ منها ذووها. هناك يودُّ كل موحِّد، لو أنَّ رأسه حزَّ عند نخيل واحة طرابلس الغرب، دون أن يعاين هذا المصاب الجلل، ولعذاب الآخرة أكبر. فليتق الله أرباب الأمر في (طرابلس الغرب وبرقة) إن كانوا يعقلون؟!

وإنَّ خدعة الصلح، لهي خدعة الصبي عن اللبن، وإنَّ هذه لنصيحة من مارس حكم الأجنبي، فالمرجو من المفكرين الذين يأبون حكم الأجنبي، أن يؤيدوها بإثارة نصائحهم، قبل أن يتسع الخرق على الراقع، ومني عليهم السلام».

فـإن بك قـومنـا أضحـوا نيـامـا
فقـل، قومـوا، فقد حـان القيام
وإلَّا، فـالحقـوا الموتى، وقـولـوا
عــلى الاسلام والعــرب الســلام

وقصيـدة[26] (عمبر بن قـدور) (الأسوة الحسنـة في حرب طرابلس الغرب) التي تعد 46 بيتاً هي الأخرى عصارة قلبه في هذه المأساة، وخلاصة استنتاجاته من هذه الحرب، وكانت عزاءه الذي تنفس فيه الصعداء، كما كان له في ثبات المجاهدين من أبناء الشعب الليبي الأصيل، العـزاء كل العـزاء عن خذلان الشرق الذي لا يعرف الثبات على نسق واحد كما قال:

رعى الله قوماً من طـرابلس الغرب
تبين فضل الشرق منهم على الغرب

خـلاصـة أسـلاف كـرام، وأمـة

تلاشت نعوت الغـير في نعتها الـرحب

رجـال أبـوا أن يضمحل فخـارهم

أمـام العـدّو النهم في طلب النهب

فـأصلوه نـار القهـر درءاً لبغيـه

وأبدوا مزايا الحزم والعزم عن قلب

وصانوا ذمار الشرق، والشرق مشرف

على حيرة، تفضي إلى الموقف الصعب

على أثر يأس، فتّ في ساعـد المنى

لقد أطلعوا الآمال، تلمع كـالشهب

فهم معشر، أرضوا الإله: وحسبهم

مزية رفـع الذل عن عـاتق الشعب

* * *

فرض الحماية الفرنسية على مراكش:

كانت محنة مراكش (المغرب الأقصى) أمام أطماع الاستعمار الفرنسي، والتي أدّت في النهاية إلى فرض الحماية سنة1912 [27] من المآسي التي شغلت فكر وقلم عمر بن قدور لفترة طويلة، وكانت أغلب مقالاته في جريدة (الحضارة) عن هذه المأساة، قلبها من كل وجوهها. داخلاً وخارجاً، وحلّل الأطماع الاستعمارية، وكيف تتوالد، ويسيل لعابها لكل فريسة جديدة تتراءى لها، فبعد احتلال الجزائر، ثمّ فرض الحماية على تونس، جاء دور مراكش. كما حلّل الأوضاع الداخلية التي عادة ما تعطي الفرصة لتدخل

الدخيل، والاحتكاك والاحتماء به، فإذا بالمحتمي هو الفريسة الأولى.

في سنتين اثنتين من ثلاث سنوات من عمر جريدة (الحضارة) عالج ابن قدور المأساة المراكشية بالمقالات المطولة الآتية:

ـ مراكش بين الفوضى والسياسة	العدد 54 السنة الثانية 20 نيسان 1911
ـ مراكش. المدافع تنذر المراكشيين	العدد 59 السنة الثانية 25 مايس 1911
ـ الفرنسيون في فاس. تأييد الحكم الفردي	العدد 63 السنة الثانية 22 حزيران 1911
ـ تصادم فرنسة وإسبانيا في مراكش	العدد 64 السنة الثانية 29 حزيران 1911
ـ التصادم الثلاثي في مراكش	العدد 68السنة الثانية 26 تموز 1911
ـ ما أكل الثور الأحمر إلاَّ لما أكل الثور الأبيض	العدد 78 السنة الثانية 5 تشرين أول 1911
ـ العبرة بمآل مراكش	العدد 108السنة الثالثة 2 مايس 1912

ومناط العبرة عند ابن قدور في مأساة مراكش، هي الاحتكاك بالأجنبي والاستكانة له، وتسليم مقاليد الحكم إليه. في غمرة فوضى داخلية، وتطاحن على السلطة، والاستعانة بالغريب على الأخ والقريب.

من مقاله (مراكش بين الفوضى والسياسة) نقتطف هـذه الفقرة:

«هذه مراكش، مهد المدنية العربيـة في غضون القـرون الوسطى، ومحضر المعارف وفطاحل رجالها، يوم كانت أوربا في غياهب الظلام، قد أخنت عليها كرور الليالي والأيام، فأصبحت اليوم بين شقي الرحى، أحدهما الفوضى، وثانيهما السياسة. وكل شق يمد زميله، فلو لم تكن السياسة لم تكن الفوضى، ولو لم تكن الفوضى لم تكن السياسة.

ها هي فاس، موقع رحى الهاجمين، تثور فيها كـل ليلة ثائرة، فامتنع عن السلطان النوم، وقلاه الاطمئنان، ماذا يعمل لتهدئة الثائرين، وقمع الناقمين، وهو مخذول في قلوب الجنود، وحملة البنود، يحسبونه واهب البلاد للإفرنج ومواسيهم، لأنَّ فاس لم تمتلىء بالأجانب في أيام أسلافه كأيامه، يتذمرون منه لأنَّه ألقى مقاليد حريته لضباط فر-ساويين، ينقمون عليه أعمال عماله في البلاد، الذين يأبون منه الرضوخ لأقوال أوربا. فماذا يصنع وما هو بصانع، وماذا تصنع فرنسة إزاء هذا الارتباك العظيم؟ أترضى بسقوط السلطان وقيام آخر؟ وتسلسل حياة مراكش في فوضى دائمة، تتخللها حوادث مفزعة، من قيام سلطان، وسقوط آخر. أم تتقدم للسلطان عبد الحفيظ بالإعانة المادية، وتمثل أعمال انكلترة في إنقاذ خديوي مصر من الثورة العرابية؟[28].

هذه قضايا تتكفل الليالي الحبالى بحلها. وما أوان ذلك ببعيد».

وكما عزَّت (طرابلس) على ابن قدور عزَّت عليه (مراكش) وهي تقع تحت سيطرة المستعمر الواحد، والعلم الواحد المثلث الألوان، في فترة تدَّعي فيها فرنسا أنَّها حامية الإسلام في شمال إفريقيا، بل هي الدولة الإسلامية فيه[29]، ويدرك ابن قدور بأنَّ تلك الدعوى هي الأكذوبة الكبرى على الإسلام والمسلمين، والتعلَّة المفضوحة لابتلاع ما تبقى من الممالك الإسلامية:

«بقي لي أن أقول:[30]

إذا صحَّ القول بأنَّ فرنسة هي دولة إسلامية في شمال إفريقيا، ولها الحق في السيطرة على أقطار مراكش، فإنني ألفت أنظار الفرنساويين بادىء بدء إلى أعمالهم بالجزائر وتونس، الداخلتين تحت سيطرتهم تماماً، قبل أن ألفتهم إلى ما سيعملون في مراكش التي لا يزال مستقبلها مجهولاً. ألفتهم إلى السياسة التي يتبعونها وهم لا يدرون أنَّهم قد أوصدوا بها على أنفسهم، باب نفوذهم إلى مراكش، وغيرها من الأقطار الإسلامية المضطرة إليهم في الشؤون الإدارية.

أراهم يقولون، ولا يعملون بما يقولون، فبالأمس كان (المسيو جونار)[31] وإلى الأقطار الجزائرية السابق يقول بأنَّه، سيعمل لفتح القلوب الأهلية، لأنه يعلم أنَّ فرنسا منذ دخلت شمال إفريقيا لم تملك من البلاد إلاَّ التراب، ولم تستحوذ قط على الألباب، ورغماً من ذلك، فإنَّه لم يعمل عملاً، يصح منه تشخيص قوله بصورة محسوسة وإن كانوا يقولون، أنَّ

المستعمرين منعوه من العمل لخطر يخشونه من وراء ذلك. أراهم يقولون، ويصرِّحون بأنَّهم مدَّنوا وسيمدِّنون، وأصلحوا أو سيصلحون. ولم نر من أثر ما يقولون أمراً قائماً، يحط من تذمرنا واستيائنا، ويزيد في سرورنا وارتياحنا.

هذه مراكش أمامهم يفكرون فيها. فليعلموا أنَّ مفتاح التفكير فيها مدفون في أعماق قلوب مسلمي الجزائر وتونس، فليعملوا على تناوله ما يستطيعون. وإنها لنصيحة لو كانوا يعقلون!».

والعبرة المستخلصة من محنة مراكش ليست لتونس والجزائر فحسب فالمحنة ابتدأت بهما، وانتهت إلى طرابلس ومراكش، ولكن العبرة للشرق كله، وللعالم العربي، والعالم الإسلامي، فالغزوة غزوة صليبية على كل شبر يدب فيه الإسلام، وتتنفس فيه العروبة. ويتقطع عمر بن قدور حسرة أنَّ المسلمين الذين هم خارج المصيدة، لا يتعظون بمن هو داخلها. بل ربما شمت الطليق بالأسير، واستخفَّ الخليّ بالشجي، وتبلغ المأساة ذروتها عندما يستكين المسلم للأجنبي فيستعين به على أخيه المسلم، وعندما تفتح الأبواب على مصاريعها للتدخل الأجنبي. تلك القاضية:

«اعتبروا معشر الشرقيين، لعلَّكم تفلحون. انظروا إلى مصارع الأمم كمراكش، ها هي بعد عظمتها وقوتها وحضارتها، أصبحت في الحشرجة الأخيرة، اتقوا تحككات الأجنبي، فإنَّ

أولها رطب لذيذ ومغبتها علقم وصديد.

ولأوربة الآن اصطلاحات اعتادت أن تغشنـا بها، ولعلّنا انتبهنا لها. ولكن ماذا يفيد ذلك بعد أن كانت القاضية واقعة لا ريب فيها[32]»

* * *

الأحداث الوطنية في تونس

لو اخترنا العنوان الذي عالج به عمر بن قدور هذه الأحداث في مقاله بجريدة (الحضارة) العدد **(105)11** نيسان 1912 لقلنا كما قال:

(أمواج الاغتياظ أو نكبة تونس في أركان نهضتها)

وقد تفجر ابن قدور بهذه المقالة عنـدما بلغت الأحـداث ذروتها بإلقاء القبض ليلة 14 مارس1912 [33] على أركان الشبيبة التونسية (السيد المختار الكاهية ـ السيد علي باش حانبه ـ السيد الصادق الزمرلي ـ السيد حسن جلاتي ـ انسيد الشاذلي درغوث ـ السيد عبد العزيز الثعالبي).

يقول عمر بن قدور:

«وقد لا تحتاج الرعشة التي حدثت في الرأي العام التونسي بسبب هذه النكبة إلى الشرح والبيان، ويكفي أن يشار إلى هذه الحادثة بأنّها أعظم ما حصل في عالم حوادث تونس منذ انتصاب الحماية الفرنسوية على ذلك القطر، وبصورتها السياسية الأدبي.

يليق لها أن تلقب بنكبة تونس في أركان نهضتها».

ويقف ابن قدور من حركة (الشبيبة التونسية) وقفة الدارس والباحث في أسباب تكونها، وخططها ومناهجها السياسية، ويربطها بالحركات المماثلة لها في المشرق والمغرب، فيبرهن مرة أخرى عن بعد نظر، ونظرة شمولية في دراسة الأحداث والتنظيمات السياسية التي تقف وراءها. تلك التنظيمات التي تولدت وتوالدت تحت الضغط الاستعماري، من جهة والفراغ الوطني من جهة أخرى. وهكذا تتفجر أمواج الاغتياظ هنا وهناك مجسمة في التنظيمات الطلابية والشبابية، بما فيها من اندفاع وحب للمغامرة، وإقدام على الموت في سبيل الحياة الكريمة.

«لقد اشتهر اسم (تركيا الفتاة)[34] منذ الانقلاب العثماني وليس لهذا الاسم معنى سوى نشوء أمة شابة على أطلال أمة بلغت من الكبر عتياً. ولإضافة هذا المعنى إلى الشعوب الضعيفة لإيجاد الآمال في حسن مستقبلها. انبرت في كل فج منها طائفة ادَّعت أنَّها جرثومة الشباب بما أحرزته من معارف الغربيين.

فأصبحت في مصر شبيبة مصرية. وفي تونس شبيبة تونسية، وفي الجزائر شبيبة جزائرية.

وكل ذلك ناجم عن الضغط الأجنبي، ويليق بهذه الطوائف أن تدعى (أمواج الاغتياظ)».

ويضيف عمر بن قدور محللاً الظروف التي تتشكل فيها تلك

(الشبيبات الإسلامية) التي تناصب المستعمر العداء، وهي خريجة مدارسه، تتخذ من لغة العدو سلاحاً عليه. ومن ثقافته ومدنيته حجة على ظلمه واضطهاده. كيف؟.

«إذا توطدت سياسة الأجنبي في بلاد، كسيادة الغربيين في بـلاد الشرقيـين انزوى رجـال الدين طبعـاً إلى ذلك الأجنبي المسيطر، لما يبذله لهم من زخـرف الحياة. ولكن بعـد هنيهة صغيرة، تنشأ طبقة بين ذلك الظلام الحالك، ظلام الاستعباد فتربى تحت رعاية ذلك الأجنبي وكنفه وفي مدارسه. وعوضاً أن تمتلىء أدمغة تلك الطبقة بحب ذلك الأجنبي المحسن إليها بالتعليم والتهذيب، تصبح شاخصة إلى غاية، هي وغاية ذلك الأجنبي على طرفي نقيض.

«والداعي إلى ذلك. سنة الانحطاط والرقي في الأمم، لأنَّها لا ترضى أبداً أن تتبدل صيغة أمم من الأممَ قط، إلاَّ بعد أن تخيب جميع المساعي والأساليب في سبيل الثبات والنجاة».

وابن قدور الذي خبر الشبيبة الجزائريـة[35] وليدة الثقـافة الفرنسية، الخبرة الواعية تلك النخبة التي صـدم باتجـاهها إلى الاندماج والإسراع بالتجنيس، والتخلي عن الشريعة الإسلامية في سبيل نيل حقوق نيابية أو انتخابية ولو على حساب الشخصية الوطنية.

وابن قدور العربي المسلم المصلح، وقد خبر من جهة أخرى

طبقة من رجال الدين الذين استكانوا للمستعمر يحملون أوسمته ونياشينه على صدورهم، إنَّما يقف وسطاً بين الجمود والإلحاد، بين التزمت والتبعية:

«وعلى هذا المحور كنَّا ولا زلنا نكره ونحارِب الجامدين، أي متبعي القديم من قومنا، والمغالين في التفرنج واتِّباع الجديد منهم إلى درجة الإلحاد. ونبغض المسلمين من حزب الاستعمار، ونتبرأ من كل شيء يمس شرف الإسلام بما أننا مسلمون قلباً وقالباً[36]».

إنَّ ابن قدور وليد الثقافة العربية الإسلامية، وإن رابط في جبهة معارضة للنخبة المفرنسة في الجزائر، لا يملك وهو يتلقى نبأ نكبة تونس في أركان نهضتها وإن اختلفوا معه في الرأي، لا يملك إلَّا أن يعتبرها نكبة على كل الحركات الوطنية التي تتكامل جهودها، وتشد أزر بعضها، وهو لعمري سمو من ابن قدور فوق الأحزاب والتحزب واحتكام إلى المصلحة العليا للشعوب التي ترزح تحت ظلم مستعمر واحد، وما من جهد مخلص لإزاحة هذا الظلم إلا وهو محل مؤازرة وتأييد في كفاحه، ومصدر فجيعة ورثاء يوم الفتك به، فالمعتدل والمتطرف سواء في حساب المستعمر ما دام هو المستهدف من الاثنين.

«أمَّا موقف أوربا تجاه الجميع، فإنَّه موقف المحترز، يعتبرون الجميع أعداء، ويعدون لكل طائفة سلاحاً، والمستقبل يكشف عمَّا أشرت إليه.

وفي هذا القدر كفاية مما أوردته بمناسبة نكبة تونس في أركان نهضتها أولئك الذين ـ وإن كانوا يخالفوننا في الرأي والنزعة ـ فإنهم أمواج مثلنا من أمواج الاغتياظ، نحزن كثيراً لخمودهم، ونعد نكبتهم ضربة كبرى على آمال تونس في الارتقاء. وإلى الله مصير الأمور[37]».

* * *

الخدمة العسكرية الفرنسية في الجزائر

عالج (ابن قدور) الخدمة العسكرية الفرنسية في الجزائر بالمقالات الآتية في جريدة (الحضارة):

ـ هفوات الأوروبيين،
تجنيد مسلمي الجزائر العدد (**69**) السنة الثانية 1 أغسطس 1911
ـ الخدمة العسكرية في العاصمة
الجزائرية، الرفض الأخير العدد (**70**) السنة الثانية 8 أغسطس 1914
ـ سنحمل السلاح العدد (**79**) السنة الثانية 12 تشرين أول
ونحن صاغرون 1914
ـ الجزائر[38] العدد (**129**) السنة الثالثة 26 أيلول 1912

أبان عمر بن قدور عن وجه آخر من أصالته وعروبته وإسلامه في هذه المحنة التي ابتليت بها الجزائر على أبواب الحرب العالمية الأولى، ولم تكن المحن لتنقطع عن الوطن الأبي منذ وطئته قدم المحتل، كما لم تكن الثورات المتعاقبة لتهدأ في مواجهة هذه المحن، ولكن قضية الخدمة العسكرية الإجبارية للجزائري

العربي المسلم في الجيش الفرنسي. وتحت الراية المحتلة للبلاد، وفي حروب لا تدخل مكاسبها وغاياتها إلاَّ في حساب المستعمر، ولا تسجل نكباتها وهزائمها إلاَّ على حساب المواطن. هذه القضية كشفت مرَّة أخرى عن جوهر أصيل في النفسية الجزائرية، وتحسب دقيق لأبعاد هذه المغامرة على الدين والوطن وعلى الأخوة الإسلامية، والاتحاد الإسلامي الذي يتشبث به (ابن قدور) مهما كذبته الوقائع، وأفحمه الواقع.

ومن تناقضات الاستعمار، أن يجمع الرفض للخدمة العسكرية الضدين معاً في الجزائر، المواطن والمستعمر، ولكن لكل وجهة هو موليها، فالمواطن يرفضها خطراً على دينه وقوميته، والمستعمر يرفضها خطراً على وجوده في الجزائر بتعليم أبناء البلاد حمل السلاح الذي يستنفرهم للثورة ذات يوم.

والشجاعة التي عرف بها أبناء شمال إفريقيا تنفي أي مفهوم للجبن في رفض الخدمة العسكرية، ولكن وراء الرفض جذور متأصلة في أعماق التاريخ وفي أعماق المواطن المسلم الأصيل مهما استضعفته نوائب الأيام: [39].

«فقد تقرَّر أنَّ المسألة مسألة دين وقومية من جميع وجوهها. ومن ذا الذي يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، ويقاتل في سبيل الطاغوت والله تعالى يقول: ﴿وقاتلوا في الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحب المعتدين﴾».

إنَّ ابن قدور وهو يعيش الأحداث التي تهز وطنه وجارتيه تونس والمغرب يدرك الأبعاد الخطيرة للخدمة العسكرية والفرنسية التي تضع الجزائري المسلم في مواجهة أخيه المسلم في جبهة عربية أخرى تمتد إليها أطماع المستعمر سواء في المغرب أو المشرق. القلاقل تهز تونس، ومراكش تواجه الحماية. ذلك قبل الحرب العالمية الأولى. وبعدها ستقفز الأطماع الغربية إلى المشرق العربي فيساق الجزائري سوقاً إلى مواجهة أخيه في الدين والقومية.

والتوقعات البعيدة التي تجاوب معها ابن قدور هي الوقائع الصارخة، والامتحان العسير، والتمزق المفجع الذي عاشه الجزائري المجند في ظل العلم الفرنسي، وإن يحسب لهذه المحنة حساب إيجابي، فهي التي بذرت بذور الثورة المسلحة، تماماً مثلما كان يتوقع المعمر المشفق على وجوده في الجزائر من تعويد المواطن على حمل السلاح.

وبالرغم من ذلك تبقى المرتكزات الدينية والقومية لرفض الخدمة العسكرية في جيش المحتل، مرتكزات تاريخية لا تقبل الجدل، وهي تبرهن عن أصالة لا تتزعزع، وأخوة لا تنفصم:

«وهل من المعقول أنَّ الحكومة الفرنسوية، إذا حشرت أبناء المسلمين تحت لوائها، تعني بذلك الاعتقاد الراسخ في قلوبهم، فتزيده قوة ورسوخاً؟. وهل يعقل أنَّها لا تدفعهم إلى محاربة إخوانهم في الدين كالمراكشيين؟ ما أظن هذا من وظائف دولة طلقت الدين ثلاثاً!!».

وكما عهدنا عمر بن قدور في كل منعرج تاريخي يخرج من كل محنة استعمارية بالعبرة التاريخية الباقية، فالمحنة مهما اشتدت إلى زوال، زوال الطغاة الذين تسببوا فيها، وزوال الرواد الذين تصدوا لها، إنّما الباقي على مر العصور الحقائق الثابتة، والمقومات الأساسية الضامنة بقاء الشعوب، والكامنة في الأعماق مهما تراكمت الأحداث، وكم يتغاضى غلاة الاستعمار عن هذه الحقائق على كثرة ما تصدعهم الأيام بها، وكم يتفانى المواطن في إثبات هذه الحقائق في كل وقفة استشرافية للماضي والمستقبل.

ولو لم تتمخض كتابات ابن قدور عن الخدمة العسكرية، على كثرة هذه الكتابات إلاَّ عن هذه الفقرة الموالية التي رفعها مناراً في ظلام الاستعمار وظلمه، لكفاه فخراً أنَّه ترك للأجيال بعده لفتة الرائد الذي لا يكذب أهله:

«إنَّا قوم لنا قومية، عروتها متينة، وملَّة قيمتها ثمينة وإن أصيب أعضاؤنا بخدر أنتجته الحوادث، فالأمل أنَّه خدر قصير المدَّة، وسينقطع وتتحرك أعضاؤنا بنشاط تام.

فما لنا من رغبة في الاندماج بفرنسا ولا بغيرها من الأجناس، وما لنا رغبة في نيل حقوق تجر علينا الويل والدمار. إننا لا نريد من فرنسا أن تمن علينا بتمدنها وعدلها، لأنَّ لنا تمدناً وعدلاً فصار كل شيء عندنا بعدهما مراً. وهل بعد ذوق العسل نذوق الحنظل!».

هذه القولة الفاصلة التي رفعها عمر بن قدور في 28 يوليو/ تموز 1911 والهجمة الاستعمارية الفرنسية على الجزائر في ذروة فتكها وبطشها، ومقصلة الرقابة محكمة في رقاب الصحافة الوطنية، وفي أنفاس الأحرار من مفكري الأمة.

هذه القولة التاريخية هي التي أكَّدها زعيم النهضة الإصلاحية في الجزائر الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس مرة أخرى في نوفمبر 1937 وأطلقها في وجه فرنسا (كلمة مرة لأنَّها صريح الحق ولباب الواقع) وتكاد الفقرات ـ على مدى ما يقرب من أربعين سنة ـ تتشابه وتترادف ما دامت الحقيقة واحدة وإن امتدَّ الزمن، وتعاقبت المنابر: [40].

«ثمَّ إنَّ هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تكون فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري».

هوامش المراجعة

(1) كان المغرب الأقصى في تلك الفترة يعرف بـ (مراكش) والكتابات التي عالجته عالجته بهذا الاسم كما سيتضح.

(2) وكانت ليبيا في تلك الفترة تعرف بطرابلس، أو طرابلس الغرب.

(3) مثل (قانون الأهالي) (كود دي لانديجينا) المسلط على رقاب الجزائريين منذ ثورة المقراني سنة 1871 واستمر العمل به حتى سنة 1912 حيث جدد لمدة سبع سنوات، ويعتبر أقسى القوانين الزجرية، انظر (الحركة الوطنية الجزائرية) صفحات 105/102/66 الدكتور أبو القاسم سعدالله. منشورات دار الآداب: بيروت 1969 ومثل قانون تعطيل الصحافة التونسية من سنة 1912 حتى سنة 1920 انظر (النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس) صفحة 186/185. محمد صالح الجابري. الدار العربية للكتاب. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1983

(4) نفي عمر بن قدور من مسقط رأسه عاصمة الجزائر إلى قرية (عين ماضي) جنوب الجزائر، وسيق إليها راحلاً، وقضى في (عين ماضي) سنوات الحرب الأولى، وأطلق سراحه سنة 1919

انظر. (المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث) د. صالح خرفي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1983.

(الصحف العربية الجزائرية) د. محمد ناصر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1980 (النشاط العلمي والفكري). محمد صالح الجابري

(5) صدر العدد الأول من جريدة (الفاروق) في يوم الجمعة 22 ربيع الأول سنة 1331 الموافق لـ 28 فبراير 1913 واستمرت حتى يناير 1915

(6) (تاريخ الصحافة العربية) فيليب دي طرازي جـ 4 1933 المطبعة الأميركية: بيروت

(7) عاش الشاعر (صديق أحمد، الرحالة المصري الأزهري) قبيل الحرب العالمية الأولى متنقلاً بين تونس والجزائر، وله قصائد كثيرة في الصحافة التونسية والجزائرية وخاصة في جريدة (الفاروق)

(8) (الفاروق) عدد 25/9 ابريل 1913

(9) (الفاروق) عدد 9/51 ابريل 1914

(10) المرجع السابق

(11) (الفاروق) عدد 9/11 مايو 1913

(12) أوّل ما ظهرت له كتابات عمر بن قدور على صفحات جريدة (اللواء) القاهرية سنة 1906 مراسلاً لها من الجزائر، وكانت مراسلاته تنشر من غير تصريح

باسمه. وقد أشار في مقالاته بجريدة (**الحضارة**) إلى أنه كان مراسلاً لـ (**اللواء**) في سنة 1906

(13) تعرف (**الطريقة التيجانية**) بموالاتها للاستعمار الفرنسي منذ بداية الاحتلال، وقد وقفت ضدَّ ثورة الأمير عبد القادر، الذي هاجم (**عين ماضي**) ودمرها عن آخرها. وقد تزوج أحد أشياخها فرنسية على يد الكاردينال لافيجوري سنة 1870 ليبرهن على ولائه لفرنسا.

انظر (**المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث**) صفحة (**52**) صالح خرفي.

(14) (**الفاروق**) عدد 22/66 يونيو 1914.

(15) ظهرت (**الفاروق**) في سلسلتها الثانية في (نشر جديد) يوم الجمعة 25 محرم الحرام 1339 الموافق لـ 8 أكتوبر 1920. والمجموعة التي اطلعت عليها تقف في العدد (**15**) الجمعة 7 رجب الفرد 1339 الموافق 18 مارس 1921.

(16) مثل حزب (**نجم إفريقية الشمالية**) الذي تأسس في باريس سنة 1926 ومثل (**اتحاد طلبة شمال إفريقية**) الذي عقد أول مؤتمر له في مدرسة (**الخلدونية**) سنة 1932

(17) انظر الملحق الخاص بـ (**الأدباء التونسيون في جريدة الفاروق**)

(18) انظر بهذا الصدد القسم الخاص بـ (**النشاط الصحفي**) من كتاب (**النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس**) محمد صالح الجابري

(19) انظر المرجع السابق.

(20) بلغت هذه الأحداث ذروتها في سنة 1911 وإن كانت مسبوقة بما ينبىء عنها، ومتبوعة بنتائجها الحتمية.

(21) من عادة عمر بن قدور في أغلب مقالاته أن يسجل تاريخ كتابتها في الجزائر، ولكنه لم يفعل في هذه المقالة.

(22) بعض المقالات التي وجهها عمر بن قدور من الجزائر إلى الآستانة نشرت بعد نصف شهر من تاريخ صدورها من الجزائر. وبعضها بعد أسبوع فقط.

(23) الأستاذ محمد كردعلي يؤكد ما ذهب إليه عمر بن قدور، فقد كتب في مجلة (**المقتبس**)

«يعيب المغاربة على المشارقة تقلبهم في مآربهم وحركاتهم، وهذا التقلب محسوس في بعض جرائدنا. فإنها كدوارة الهواء في الأفكار تنتسب اليوم إلى حزب وتستميت في الدفاع عنه، حتى إذا لم تصادف من ورائه مغنماً، أو

تأنس من أهله فتوراً، انقلبت عليه، وتنسى اليوم ما ذكرته أمس».

(المقتبس ج 2 م 1 القاهرة صفر 1324 ماي 1906).

(24) هما بيتان من نظم عمر بن قدور على ما أعتقد.

(25) نشر عمر بن قدور هذه القصيدة في جريدة (**الحضارة**) تحت عنوان **«الأسوة الحسنة في حرب طرابلس»** وأعاد نشرها في (**الفاروق**) بهذه الفقرات: **«طلب منا بعض الأدباء أن ننشر هذه القصيدة التي نشرناها بجريدة (الحضارة) في، شوّال الماضي، المتعلقة بمجاهدي طرابلس الغرب. وها هي»** ونشرت في الفاروق تحت عنوان **«فتاة طرابلس الغرب»** عدد **(16)** يوليو 1913.

(26) أمضى السلطان عبد الحفيظ علي (**معاهدة فاس**) في 30 مارس 1912 والتي بموجبها دخلت مراكش في عهد الحماية

(27) هذه المقارنة تدل على موقف مبدئي من عمر بن قدور إزاء الثورات الوطنية في وجه الاستعمار الغربي مشرقاً ومغرباً.

(28) تصاعدت هذه الدعوى في بداية القرن تمهيداً لاحتلال ما تبقى من الإمبراطورية العثمانية وتهدئة للغليان الذي كان يسود المنطقة في وجه الأطماع الفرنسية.

(29) من مقال (**مراكش بين الفوضى والسياسة**) (**الحضارة**) عدد 54 السنة الثانية 20 نيسان 1911

(30) وفي مقال لابن قدور نشر بجريدة (**الفاروق**) عدد 42 يناير 1914 نجده يؤكد هذا الموقف من (**جونار**) فيقول:

«لقد كان جناب المسيو جونار الوالي العام السابق بالأمس يحاول الإشراف على أعماق قلوب مسلمي الجزائر، لينظر قيمة حاكمية فرنسا فيها فعبر عن غايته (وجوب فتح القلوب والعواطف كما فتحت الأوطان والمعاقل) ولكنه وجد الأبواب مقفولة في وجهه»

و (**شارل جونار 1857 - 1927**) ولي حاكماً عاماً على الجزائر مرتين الأولى في سنة 1900 - 1911 والثانية في سنة 1918 - 1921

(31) من مقالة (**مراكش المدافع تنذر المراكشيين**).

(32) إشارة إلى معركة (**مقبرة الزلاج**) التي اندلعت في نوفمبر 1911، واتهام أركان (**الشبيبة التونسية**) بالتسبب فيها والتخطيط لها، وإلقاء القبض عليهم في 14 مارس 1912. وللتوسع في هذا الموضوع انظر (المعمرون الفرنسيون وحركة

الشباب التونسي) لشارل أندره جوليان. تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة. نشر الشركة التونسية للتوزيع. دون تاريخ.

(33) أشار الدكتور أبو القاسم سعدالله في كتابه (**الحركة الوطنية الجزائرية**) إلى أنَّ (**الجزائر الفتاة**) كانت مظهراً يعترف به كثير من الفرنسيين في سنة 1912. انظر صفحة 117/116

(34) عمر بن قدور يحدد موقفه من حزب (**الشبيبة الجزائرية**) في (**الفاروق**) عدد 9/51 مارس 1914 ويقول محتفلاً بدخول (**الفاروق**) السنة الثانية:

«وهو مستقل في ذلك تمام الاستقلال عن كل حزب، أو ذي نزعة سياسية سواء كان حزب الحكومة المسمى (بني وي وي) أو حزب (الشبيبة الجزائرية) و (المتعلمين القدماء) بل هو يعرب عن رأيه الإصلاحي الخاص به بكل صراحة».

(35) (**الفاروق**) عدد 21/4 مارس 1913.

(36) (**الحضارة**) عدد 11/105 نيسان 1912

(37) هذه مقالات مكرسة لقضية التجنيد، وقد عالجها ابن قدور في ثنايا مقالات أخرى كثيرة.

(38) من مقال (**الخدمة العسكرية في العاصمة الجزائرية الرفض الأخير**) وهذا المقال عالج فيه الكاتب مناقشة هذه القضية في (**المجلس البلدي**) في 25 يوليو 1911. وكان للشيخ عبد الحليم بن سماية موقف مشهود من رفض التجنيد في هذا الاجتماع..

(39) الشهاب ـ الجزء (**9**) المجلد 13 نوفمبر 1937 افتتاحية المجلة. (**كلمات صريحة ـ الشمال الإفريقي كيف يجب أن يعالج**).

الأدباء التونسيون في جريدة (الفاروق)

صالح سويسي	(الصخر يمشي) (شعر)[1]	عدد 10 ماي 1913
إبراهيم بن شعبان	(آية للسائلين) (شعر)[2]	عدد 14ماي 1913
أبو الوفاء	(بريد الإسلام تونس)[3]	عدد 15 يونيو 1913
صالح سويسي	(تقدم ذا البساط)	عدد 16 يونيو 1913
صالح بن علي النجار[4]	(بني الدين) (شعر)	عدد 20 يوليو 1913
الطيب بن عيسى[5]	(وكيلًا للفاروق في تونس)	عدد 23 أغسطس 1913
صالح سويسي	(صيامنا وصيامهم) (شعر)	عدد 24 أغسطس 1913
صالح سويسي	(وداع رمضان) (شعر)	عدد 27 أغسطس 1913
صالح سويسي	(العيد) (شعر)	عدد 28سبتمبر 1913
حسين الجزيري	(تفاقم خطر البدع في (القطر التونسي)	عدد 45 يناير 1914
حسين الجزيري	(دمعة على الشعور)	عدد47 فرابر 1914
حسين الجزيري	(كيف سادوا بالعلم وشقينا بالجهل)	عدد 48 فبراير 1914
حسين الجزيري	(المرأة التونسية، تعليمها رفع الحجاب عنها)[6]	عدد 50 فبراير 1914
حسين الجزيري	(جوق الشيخ سلامة حجازي في تونس)[7]	عدد 64 يونيو 1914
حسين الجزيري	(تونس والسعادة (شعر)	عدد 66 يوبيو 1914

حسين الجزيري	(أيهم المصيب) (تشطير)	عدد
حسين الجزيري	(ساعدوا على الإصلاح)	عدد 70 يوليو 1914
إبراهيم بن شعبان[8] أبو إسحاق	(تعهدوا روض العلوم) (شعر)	عدد 70 يوليو 1914
حسين الجزيري	(تقاليدنا في المخازي)	عدد 71 يوليو 1914
حسين الجزيري	(بئس ما يقذفون)	عدد 72 أغسطس 1914
حسين الجزيري	(واعظ المنام أحقائق أم أحلام)	عدد 73 أغسطس 1914
حسين الجزيري	(الغيرة)	عدد 75 أغسطس 1914
الطيب بن عيسى	(التسلي بالخلف لنسيان المصاب المزدوج)[9].	عدد 83 أكتوبر 1914
حسين الجريري	(حديثي مع الخيال، هل أنت قارىء)[1]	عدد 84 أكتوبر 1914
حسين الجزيري	(قلب يتعذب وآخر يتنعم)[2]	عدد 85 أكتوبر 1914
حسين الجريري	(راعوا عواطف بناتكم)[3]	عدد 86 نوفمبر 1914
حسين الجزيري	(السمو إلى أسفل، والتقدم إلى الوراء)[4]	عدد 87 نوفمبر 1914
حسين الجزيري	(لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب)[5]	عدد 88 نوفمبر 1914
توفيق المدني[10]	(الإدمان أول وزير للموت)	عدد 88 نوفمبر 1914
حسين الجريري	(ما أشقاك يا صاحب القلم)[6]	عدد 89 ديسمبر 1914
توفيق المدني	(دعوة إلى الواجب أو المرأة التونسية والتعلم)	عدد 89 ديسمبر 1914
حسين الجزيري	(عاقبة الظلم الدمار)[7]	عدد 91 ديسمبر 1914
توفيق المدني	(بين لجج الهواجس)	عدد 91 ديسمبر 1914

إبراهيم بن شعبان		
أبو إسحاق	**(اللغة العربية ورجالها)**	عدد 91 ديسمبر 1914
أحمد توفيق المدني	**(كيف ننقذ وطننا؟)**	عدد 92 ديسمبر 1914
أحمد توفيق المدني	**(دعوة إلى الواجب: تعليم القرآن)**	عدد 94 يناير 1915
أحمد توفيق المدني	**(دعوة إلى الواجب: العمل)**	عدد 95 يناير 1915
الطيب بن عيسى	**(موقف التجارة اليوم)**	عدد 96 يناير 1915
أحمد نوفيق المدني	**(الماضي والحاضر والمستقبل)**	عدد 97 يناير 1915

هوامش الملحق

(1) صالح سويسي غالباً ما يشير إلى أنّ قصائده من **(زفرات الضمير)**.

(2) هذه القصيدة في الثناء على جريدة **(الفاروق)** وصاحبها عمر بن قدور

(3) وأضيف على الاسم **(تونس لكاتب فاضل)**.

(4) من القيروان، كما جاء في الجريدة.

(5) هي في الحقيقة فقرة تعلن بأنّ السيد **(الطيب بن عيسى)** هو وكيل جريدة الفاروق في تونس العاصمة.

(6) هو مقال لحسين الجزيري في وصف فرحة العاصمة التونسية بمقدم الشيخ سلامة حجاري، وفي المقال أبيات لحسين الجزيري في الترحيب به ألقيت في حفل أقيم احتفالاً بالشيخ سلامة

(7) بهذا المقال يكون حسين الجزيري قد سبق الطاهر الحداد في معالجة قضية المرأة التونسية بخمسة عشر عاماً أو تزيد

(8) إبراهيم بن شعبان، أضيفت إليه هذه الكنية **(أبو إسحاق)** ابتداء من هذا العدد **(70 يوليو 1914)**.

(9) هذا المقال مواساة لعمر بن قدور في وفاة ابنته الصغيرة وأستاذه الشيخ عبد القادر المجاوي في يوم واحد. وقد عالج ابن قدور هذه المحنة بمقال مطول بعنوان (المصاب المزدوج) افتتح به جريدة (الفاروق).

(10) توفيق المدني في تلك الفترة لم يزل في تونس. ولم يكن قد صدر عليه حكم النفي إلى الجزائر والذي كان في سنة 1925

دفاعًا عن الإسلام

إمامان وشاعران

أمَّا الإمامان فهما: محمد عبده وعبد الحميد بن باديس.
وأمَّا الشاعران فهما: أحمد شوقي ومحمد العيد.

والإطار الذي ضمَّ الأربعة، إطار الدفاع عن الإسلام، ومبادئه وقيمه، كل بالسلاح الذي أوتيه، شعراً أو نثراً، والوقوف وقفة التحدِّي الصارخ في وجه الاستشراق المتعصب، والاستعمار الثقافي المسموم.

تبادر إلى ذهني هذا الإطار المتجاوب الزوايا مشرقاً ومغرباً، وأنا أتأمَّل القصيدة الرائعة لمحمد العيد، في المعمر الفرنسي (آشيل) وموقفه العدائي من الإسلام، وما رماه به من تهم باطلة، في مقالات نشرها في جريدة (لاديبيش) القسنطينية، في أوائل هذا القرن.

وأراد الشاعر محمد العيد نفسه، أن يوحِّد الجبهة، ويجعل التجاوب تلقائياً بين دعوة الإصلاح في المشرق، وأختها في المغرب، ويوضح الخطوط العريضة التي رسمتها قبله الوشيجة الإسلامية، الخطوط العريضة لانتفاضات الإصلاح التي كانت تتوثب هنا وهناك، في أرجاء من العالم الإسلامي العربي، فيربط بعضها

ببعض تجاوب روحي، يمليه الواقع التاريخي العقائدي، قبل أن تسطره المؤتمرات ولجان التخطيط.

وهكذا وضعني العيد أمام الإطار وجهاً لوجه، حين قال في قصيدته:

هذا (ابن باديس) يحمي الحق متئداً
كـذاك يتئـد الشم الأمـاثيـل
إني أرى (عبده) المرحوم، مندفعاً
ينحي على زعم (هانوتو) و (برتيلو)

وبدافع من حب الاطلاع رحت أتلمس للإطـار ظلالـه وألوانه وأبحث عن الرسم الكامل له، لعلّني بذلك أورق صفحة من أمجادنا، وأبعث موقفاً مشرفاً شـاء الاستعمار وثقـافته، أن يضربا بيننا وبينه وبين غيره من المواقف ستاراً من حديد. رحت أبحث عن أبطال الموقف، ومقتحمي المعركة، من الجانب النثري للإطار، فتولد لي إطار ثان مكتمل بذاته.

* * *

الإطار النثري[1]:

محمد عبده: هانوتو.
ابن باديس: آشيل.

ونقبت ثانية عمّا كتبه المستشرقان في التهجم على الإسلام وما كتبه الإمامان في الرد على التهجم، حتى اطمئن لاكتمال الإطار

مبنى ومعنى، فخرجت بعد التنقيب باعتقاد راسخ، بأنَّ خطة الهجوم على الإسلام كانت مبيتة مدروسة، متألبة ضدَّ مبادئه التي تقض مضاجع الطامعين، وإن كانت خطة الدفاع بالعكس من ذلك، تبدو مدروسة، منسقة الأسلوب، ولكنها في الواقع دفاع تمليه عواطف كل مسلم، أنَّى شرق أو غرب، ويفرضها العدو المشترك.

فـ(**هانوتو**) فرنسي، كان يشغل منصب وزير الخارجية الفرنسية في أواخر القرن الماضي، و(**آشيل**) معمر فرنسي عاش في الجزائر في أوائل هذا القرن وفرنسا في الفترتين كانت تتطلع بجناحيها إلى كل من آسيا وإفريقيا. ولا تخطو خطوة فيها إلّا وجدت الإسلام يقف لها بالمرصاد، فانكب أصحاب الفكر في عاصمة النور على دراسة الأساليب التي يزيحون بها الإسلام عن طريق أطماعهم، أو على الأقل يضمنون مسالمته في زحفهم إلى معاقله، فتولدت فكرة التهجم على الإسلام واستنقاصه، والنيل من تعاليمه، ومن النفوس التي تتسلح به، في وجه الإمبراطورية الفرنسية الزاحفة. فكانت الفكرة تنبعث من باريس لتمتد إلى المستعمرات الإسلامية في القارتين تتقفى خطى الأفاقين الزاحفين، وتمهد الطريق بطلائع تبشيرية تحارب في الجبهتين: جبهة تركيز المسيحية، وجبهة تقويض الإسلام، وما لنا نذهب بعيداً، (**فهانوتو**) نفسه يقرر بأنَّه ودولته أصبحا مع الإسلام وجهاً لوجه، ويجب التفكير في أن تكون هذه المواجهة في صالح الاستعمار الفرنسي

على حساب الإسلام، وتطرفت النزعة الصليبية تطرفاً جنونياً (هستيرياً) ينم عن مدى الانزعاج الذي تملك الاستعمار من جراء الإسلام المتربص له في يقظة. ومن العجب أن يطالعنا هذا الجنون في النخبة الفرنسية المثقفة فيدعو البعض منها إلى نبش قبر الرسول (ص) في مكة، ونقل جثمانه إلى متحف (اللوفر) في باريس.

وتباينت الآراء الاستشراقية المتعصبة ضدَّ الإسلام ليناً وشدة اختلفت في معاملته كوسيلة، وإن كانت غاية الجميع واحدة فالمهم: إما أن يستسلم هذا الإسلام للحضارة الأوروبية، ويخلي الميدان لإشعاعها، وإما أن يوطن أكنافه قنطرة من الوثنية الإفريقية إلى المسيحية، حتى قال أحد مؤرخي الكنيسة الفرنسية[2]:

«إنَّ الإسلام قنطرة للأمم الإفريقية، ينتقلون بها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية، فليس الواجب والحالة هذه قاصراً على معاملة الإسلام بالتساهل والتسامح بل لا بدَّ من رعايته وتعضيده، بأن نسعى في توسيع نطاقه، وترتيب الأرزاق على المساجد، والمدارس وجعله رائداً لمدنية فرنسا، وآلة نستعين به في فتح البلاد».

وهذه السياسة المسخرة للإسلام لخدمة أغراض الدخيل، ليست بعيدة عنا، فقد خبرها هذا الوطن، وكان ميداناً فسيحاً لها.

واختار كل من (**هانوتو**) و (**آشيل**) الهجوم المباشر، وتسلحا بالعداء الصريح، ورابطا في واجهة سافرة لمحاربة الإسلام، أما (**هانوتو**) فقد اغتر ببصيص من الاستشراق، ظنه الإشعاع الكافي الذي ينفذ به إلى أسرار الإسلام، وغاياته البعيدة، يبعثرها يمنة ويسرة، في عشوائية أبعد ما تكون عن بصيرة العلم الراسخ.

وأما (**آشيل**) فهو الآخر، اغتر باحتكاك سطحي أعمى بالإسلام في هذه الربوع فاعتقده الخبرة الواسعة المخولة للتهجم عليه، وتلك وصمة الاستشراق ولا تزال، يزن المستشرق ثقافته في العربية، بميزان لغته الأصلية فتتجلى له القطرة بحراً، ويزكو المأخوذ رغم ضآلته، وتبرر الوسيلة المفضوحة غايات وأطماعاً استعمارية دنيئة، وينتج عن ذلك غرور بالنفس، يقود إلى المنعرجات الملتوية.

إن كان (**هانوتو**) و (**آشيل**) يحملان من التحمس للحضارة الأوروبية المسيحية ما دفعهما للنيل من الإسلام في عقر داره، وفي مستعمرات دخلوها ظلماً وعدواناً، فلن يكون أبناء الإسلام أقل حماساً واستماتة في سبيل عقيدة لا تزال الحصن الحصين لهم من كل تهجم دخيل. لذلك لم يعدم (**هانوتو**) من يجابهه بنفس الصراحة التي هاجم بها. فكان له (**عبده**) بالمرصاد، وكال له الصاع صاعين، في بحر ليلة واحدة كتب فيها رده، ولم يعدم (**آشيل**) من يرد كيده في نحره، فكان له (**ابن باديس**) بنثره، و (**محمد العيد**) بشعره.

وبين الردين - رغم الفترة الزمنية الفاصلة بينهما - تجاوب أصيل فهما ينزعان إلى نبع واحد، هو الإسلام، نزوع التطاول إلى حمأة استعمارية واحدة، ويمثلان حركة إصلاحية متكاملة، إحداهما صدى للأخرى. صدى تلقائي، كما أشرنا، تعزز هذه الحركة لحمة تصلها بالمشرق بواسطة الكتاب أو المجلة أو الزيارة الخاطفة، توزن بما تحمل من أسرار، لا بما يضيق عنه الزمن من الدقائق المعدودة، كتلك الزيارة التي قام بها الأستاذ الإمام محمد عبده للجزائر في سنة 1903.

غير أني ألاحظ - في هذا الموقف بالذات - أنَّ ابن باديس، أقرب إلى الجرأة في منازلة خصمه من محمد عبده. فبالرغم من الحرية الفكرية التي أتيحت للإمام عبده، وحرمها زعيم الحركة الإصلاحية في الجزائر ابن باديس، فقد واجه الأخير (آشيل) بوجه سافر، ونشر مقالاته بإمضائه الشخصي الصريح، واضعاً نفسه أمام المسؤولية مباشرة، غير متخذ من مجلة (**الشهاب**) ترساً، ولا متوار خلف الأسماء المستعارة.[3]

وهذه الظاهرة الجريئة، استرعت نظر (**محمد العيد**) فقال مشيراً إليها:

(عبد الحميد) رعاك الله من بطل
ماضي الشكيمة، لا يلويك تهويل
دمغت أقوال (آشيل) كما دمغت
أبطال (أبرهة) الطير الأبابيل

بينما نشر الإمام (**عبده**) مقالاته في الردّ على (**هانوتو**) بإمضاء (**إمام من أئمة الإسلام**) ولم يأذن لصاحب جريدة (**المؤيد**) التي نشرت له، بالتصريح باسمه. و(**شوقي**) نفسه لم يصرح باسمه في القصيدة التي قرض فيها موقف الإمام من (**هانوتو**). ولعلّ الاحتكاك الدائم، المتقد، السافر الوجه بين الجزائر والاستعمار، فرض هذا الأسلوب، غير أنّها ظاهرة تدعو إلى الحيرة، لا بالنسبة لي فحسب، ولكن بالنسبة للدكتور محمد صبري ناشر (**الشوقيات المجهولة**) ومن بينها قصيدة شوقي في الإمام محمد عبده حيث قال الدكتور معلقاً: [4]

«مقالات (محمد عبده) في الرد على (هانوتو)، لم تنشر باسمه في المؤيد، وقد جمعت في كتاب على حده سنة 1900. ونسبت لعظيم من عظماء الإسلام، وإمام من أئمته الأعلام. والعجيب أن يتنكر إمام الأئمة وسيد الشعراء؟».

وبالغ محمد عبده في التكتم في نشر مقالاته حتى بالنسبة لخاصته، وذكرني بقول العباس بن الأحنف:

سموك لي ناس، وقالوا إنها
لهي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم، ليكون غيرك ظنهم
إني ليعجبني المحب الجاحد

(فقد جزم أكثر أهل العلم والأدب في مصر، أن كاتب المقالات هو الإمام (عبده) وذكروا له ذلك في مجلس خاص،

وتوقعوا أن يتهلل وجهه، ولكنه فاجأهم بقوله ممتعضاً: إنّه لا يسوءه ويحزنه شيء كما يسوءه هذا القول، المتضمن لمنتهى ذم قومه وأهل بلده، بالجهل والعجز عن مثل هذا الرد، الذي يجب أن يضطلع به أكثر أهل التعليم، ثم قال: ومن المصائب على المرء أن لا يستطيع الاستخفاء في هذا البلد الكبير، إذا أراد أن يظهر رأيه وأفكاره دون شخصه، إذا رأى مصلحة في ذلك).

والمصلحة بالطبع هي الإبقاء على الحركة الإصلاحية وحياتها من سطوة القصر ومن يقف وراء القصر، الذي لم يغفله بدوره، فتعرض له بنقد جارح في ثنايا مقالاته في (**هانوتو**).

وإن كنت أميل إلى موقف الدكتور محمد صبري، في تعجبه من تنكر إمام الأئمة وسيد الشعراء، فقد عاش (**ابن باديس**) التجربة في الجزائر بأقسى مما عاشها (**محمد عبده**) في مصر العثمانية، ونازل ابن باديس عدواً مجاوراً وملاصقاً له، يملك من السطوة والسلطة والتأييد الرسمي، ما يستطيع أن يمد به يد الإساءة، فلم يستنكف الشيخ عن الصراحة السافرة، ولا تقاعس عنها الشاعر محمد العيد. على أن يد (**هانوتو**) في باريس، تقصر عن أن تمتد إلى محمد عبده في مصر بسوء، ولو عن طريق غير مباشر، طريق الخديوي أو المعتمد البريطاني.

* * *

الإطار الشعري

شوقي: محمد عبده

محمد العيد: ابن باديس

ولم يتخلّف الشعر عن الركب، بل سهر حادياً له، ورائداً لخطواته فلم يكن موقف محمد عبده من هانوتو في المشرق، ولا موقف ابن باديس من آشيل في المغرب، موقفاً يستطيع الشعر أن يغض الطرف عنه، أو يتخلى عن الرسالة التي عرف بها الشعر العربي الرائد في مختلف عصوره، بل كانت استجابة الشاعرين لوقفة الإمامين، مصداقاً لما قاله شوقي نفسه:

كـان شعـري الغنـاء في فـرح
الشرق، وكان العـزاء في أحزانـه

غير أني وأنا أتصفح القصيدتين، وجدت ظاهرة تبعث على الدهشة. أجد روحاً شاعرية باهتة عند شوقي أمير الشعـراء، وبالعكس أجد عند محمد العيد عاطفة صادقة، وإحساساً نابضاً. أتلمس ذكرى وعاطفة وحكمة، بينما لا تخرج قصيدة شوقي عن مدلول التقطيع والأوزان، وأطلب (**الشاعرية الشوقية**) المعهودة، فأغدو كالراقم على الماء خانته فروج الأصابع.

وبالطبع المجال مجال مقارنة بين قصيدتين في موقفين متماثلين وإلاَّ فلكل شاعر مقامه الذي عرف به، وشوقي لا ينازعه منازع في إمارته على الشعراء، كما لا ينازع منازع في أنَّ (العيد)[5]، لم

يحظ بعد بالرؤية المنصفة في المشرق العربي.

وأعود إلى قصيدة شوقي التي أفهمتني السبب في عدم إدراجها في (**الشوقيات**) وتناسيها في زوايا الإهمال، لأنّها أبيات لا تقف على سوقها بجانب الشعر العملاق لشوقي، حتى كتب النشر للقصيدة على يد الدكتور محمد صبري ناشر (**الشوقيات المجهولة**).

إذا كان القصر العثماني في القاهرة من الأسباب التي دفعت (**محمد عبده**) إلى التنكر في نشر مقالاته، فالقصر نفسه الذي ولد شوقي في بابه، دفعه لا إلى التنكر في نشر القصيدة بغير اسمه فحسب، بل إلى التنكر في روحها ومعانيها وسطحية معالجتها للموضوع، وكأني بشوقي يدفع دفعاً لنظم هذه الأبيات، متأرجحاً بين رضا القصر، وإنصاف الإمام الذي ينظر إليه القصر بكثير من الحذر:

أأخون إسماعيل في أبنائه
ولقد ولدت بباب إسماعيلا

أمّا الجرأة. فإني أجد (**محمد العيد**) الأعزل من كل سلاح، يتصدّى (**لآشيل**) بوجه صارخ، ويشهر باسمه في عنوان القصيدة، بل يفتتح به أبياتاً منها في توعد ووعيد، ويركز الهجوم على العدو بدون التواء، بل يوسع مدلول العدو من شخص بعينه إلى الاستعمار بأكمله، فيتعرض له في سخرية لاذعة، ومقارنة دامغة:

فليس فيه لأعلى الناس منزلة
(عدن) وفيه لأدنى الناس (سجيل)
ولا احتيال ولا غمط ولا مطل
ولا اغتيال ولا نغص وتنكيل

ويلتفت إلى (آشيل):

ما بال (آشيل) يزري المسلمين وهم
غر العرائك، أنجاب بهاليل
أفكارهم بهدى القرآن ثابتة
فلا يخامرها في الرأي تضليل
وأمرهم بينهم شورى، ودينهم
فتح من الله، لا قتل وتمثيل

وقبل أن تصل إلى هذه الأبيات، يعطيك صورة عنها، وعن روح القصيدة كلها، هذا المطلع الرائع:

هيهات لا يعتري القرآن تبديل
وإن تبدَّل توراة وإنجيل

وبعد الجولة الصادقة من (**محمد العيد**) مع (آشيل) يلتفت في وفاء واعتراف بالجميل، وفي عاطفة دافقة إلى ابن باديس بما يستحق من الثناء.

وشوقي على طرف مناقض، يتحامى أن يذكر (**هانوتو**) بسوء. بل لا يورد له في القصيدة ذكراً، ويتوارى خلف

العمـوميات، ويتنفس صعـداءه في **(واو الجماعـة)**، و **(ضمير الغائب)** الذي يريحه من كل تبعة:

إذا جهلت يـوماً علينـا خصومنـا
فـإنك من جهـل الخصـوم مجـير
وإن جردوا الأقلام، جردت أثرها
يـراعاً لـه في الخـافقـين صـريـر

ولا غرابة. فالحادثة وقعت في أول القرن. وبالأصح في فترة مخضرمة بين القرنين، وسيحتاج شوقي وقتها لربع قرن يعود بعده من المنفى، لتتضح وطنيته، وتنصهر عاطفته نحو بلاده في نار الإبعاد، لتقف مواقفها المشرفة. كذلك الموقف الخالد الجريء في وداع **(اللورد كرومر)** المعتمد البريطاني[6].

ولا أطيل على القارىء، فسأضع القصيدتين بين يديه لينفرد بالحكم.

قال شوقي: [7]

(محمـد) ما أخلفتنـا مـا وعـدتنـا
صدقت، وقال الحق منك ضمير
فأنت خصم العلم، حال سكونه
وأنت خصم العلم حـين تثـور
وأنت أمير الحفظ والقول والنهي
إذا لم ينـل تلك الثـلاث أمـير

ففوق عليم القوم، منك معلم
وفوق وزير القوم، منك وزير
إذا جهلت يوماً علينا خصومنا
فإنك من جهل الخصوم مجير
وإن جردوا الأقلام جردت أثرها
يراعاً له في الخافقين صرير
إذا صال منهم ضيغم كنت ضيغماً
له في نفوس الشانئين زئير
وأنت قريب في الولاء مؤمل
وأنت أبي في الخصام كبير
ويعجبني منك التقي حين لا تقى
وجدك حين الهازلون كثير

قال محمد العيد:[8]

(ما بال آشيل يهذي)

هيهات لا يعتري القرآن تبديل
وإن تبدل توراة وإنجيل
قل للذين رموا هذا الكتاب، بما
لم يتفق معه شرح وتأويل
هل تشبهون ذوي الألباب في خلق
إلّا كما تشبه الناس التماثيل

فاعزوا الأباطيل للقرآن وابتدعوا
في القول. هيهات. لا تجدي الأباطيل
وازروا عليه كما شاءت حلومكم
فـإنـه فـوق هـام الحق إكليـــل
مـــاذا تقـــولـــون في آي مفـصلة
يـــزينهـا من فم الأيـــام تـــرتيـــل
مـاذا تقولـون في سفر صحـائفه
هدى من الله، ممض فيه جبريل
آيـاته بهـدى الإسلام مـا برحت
تهـدي الممالـك جيلاً بعـده جيل
فـآيـة، ملؤهـــا ذكـــرى وتبصـــرة
وآيـــة ملؤهـــا حكـــم وتفـصيـــل
فليس فيه لأعـلى النـاس منزلـة
(عدن) وفيه لأدنى الناس سجيل
ولا احتيال ولا غمـط ولا مطل
ولا اغتيـــال ولا نغص وتنكيـــل
(الاشتـراكيـة) السمحـاء مـذهبـه
في الحكم، لو لم تطل فيها الأقاويل
إن هـو إلاَّ هدى للنـاس منبلج
ضاحي المسمى، أغر الاسم، تنزيل
لئن مضت عنـه أجيـال وأزمنـــة
تترى، فهل سامه نقض وتحويل

إن كان أعدل قـانون يسـامى به
أمر الشعوب، ففيم القال والقيل؟!

* * *

ما بال (آشيل) في (الدبيش) يسخر
من آيات محكمه. لا كان (آشيل)
ما بال (آشيـل) يهذي في مقـالته
كحـالم راعـه في النـوم تخييـل
ما بال (آشيل) يزري المسلمين، وهم
غـر العرائـك، أنجاب بهـاليل
أفكـارهم بهـدى القـرآن ثـاقبـة
فـلا يخامـرها في الـرأي تضليـل
وأمـرهم بينهم شـورى، ودينهم
فتـح من الله، لا قتـل وتمثيـل
لا يعـدم الحق أنصارا تحيط بـه
سـوراً، ولو كثرت فينا الأضاليل
هذا ابن باديس يحمي الحق متئداً
كـذاك يتئـد الشـم الأمـاثيـل
إني أرى (عبده) المرحوم مندفعـاً
ينحي على زعم (هانوتو وبرتيلو)
(عبد الحميد). رعاك الله من بطل
ماضي الشكيمة لا يلويك تهويل

دمغت أقوال (آشيل) كما دمغت
أبطال (أبرهة) الطير الأبابيل
عليك مني، وإن قصرت في كلمي
تحية ملؤها بشر وتهليل

* * *

هوامش المراجعة

1 ـ **مقالات الإمام عبده**: توجد في (المؤيد) من 17 - 19 سنة 1900، وكذلك في تاريخه للأستاذ رشيد رضا، ومقالات الشيخ بن باديس في (**الشهاب**) من 5 إلى 12 سنة 1926.

2 ـ محمد رشيد رضا (**تاريخ الأستاذ الإمام**) جـ 20، ص 3910.

3 ـ تأمل رأي الشيخ فيما يمضيه باسمه الخاص في مقال (**حمزة بوكوشة مع عبد الحميد بن باديس في ذكراه**) في العدد العاشر من مجلة المعرفة الصادرة عن ورارة الأوقاف الجزائرية 1964.

4 ـ الدكتور محمد صبري، (**الشوقيات المجهولة**) طبع دار الكتب المصرية.

5 ـ يجدر التنويه هنا بالدراسة القيمة للدكتور أبو القاسم سعد الله: (**محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث**) وقد صدرت الطبعة الثالثة للكتاب بعنوان (**شاعر الجزائر**) محمد العيد آل خليفة، الدار العربية للكتاب. المؤسسة الوطنية للكتاب 1984.

6 ـ **قصيدته في وداع اللورد كرومر**، والتي مطلعها:

أيامكم أم عهد إسماعيلا
أم أنت فرعون يسوس النيلا

7 ـ **الشوقيات المجهولة**، تحقيق الدكتور محمد صبري، طبع دار الكتب المصرية.
8 ـ **شعراء الجزائر في العصر الحاضر**، محمد الهادي الزاهري ج المطبعة التونسية.

عَبدالحَمِيد بن بَاديس وَالعُروبَة

«إذا قلنا العرب، فإننا نعني الأمة الممتدة من المحيط الهندي شرقاً، إلى المحيط الأطلانطيقي غرباً، والتي فاقت سبعين مليوناً عداً. تنطق بالعربية، وتفكر بها، وتتغذى من تاريخها، وتحمل مقداراً عظيماً من دمها، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة».

ابن باديس 1938

باعث الشخصية الجزائرية، ومفجر مكامنها في أعماق المواطن الجزائري، والمتحدي بها تجاهل الدخيل وجهل المواطن. المؤمن بعراقتها في التاريخ، والمستعمر يجردها من كل ماض تاريخي، ويجعلها من خلقه وتكوينه. الموقن بحاضرها المنبعث، والدخيل يعتقدها ضاعت من الإسلام والعروبة إلى الأبد. المبشر بغدها المشرق، والتبشير به نبوة في جاهلية من الرجعية، وجاهلية من الاستعمار.

(عبد الحميد بن باديس) تناقلته الأخبار والأقلام، رجل إصلاح ديني. وهو كذلك، ولكنه فوق ذلك. فهو المدرك الخبير لازدواج الشخصية الجزائرية من عروبة وإسلام، ازدواجاً وتلاحماً

لا يقبل الانفصام. لذا لم يكن كداعية للقومية العربية، أقل منه داعية للدين الصحيح، وهو حين يواجهك بطلعته الدينية، تكاد لا تلمس فيه غير الرجل المسلم. وإنَّك لا تكاد تلمس فيه غير الشخصية العربية، وهو ينافح عن العروبة، ويهبها أقدس مقوماتها، وأخلد مثلها، يتسامى بها سمواً قدسياً يعز عن الملابسات العابرة، والظروف الطارئة، ويوغل بها في أعماق التاريخ حضارة وأصالة فيبكت أعداءها الذين لا يرونها الابتراء. ويتجاوب من نصف قرن مع الأحداث التي يهتز لها العالم العربي اليوم.

وأنت حين تضم الشخصيتين المزدوجتين لابن باديس، المسلمة والعربية، يعطيك من الإسلام إنسانيته التي تسع كل الأديان، ويهبك من العروبة القومية التي لا يكتمل الإسلام إلاَّ في ظلها، كما لم يترعرع إلاَّ في مهدها، ويشخص لك وجهاً من الكفاح المستميت من أجل العروبة والوحدة العربية.

و (**ابن باديس**) حين يتحدَّث عن (**العروبة**) يلمس فيها المقومات التي تهبها الخلود، مهما تلبدت الظروف السياسية من حولها، واختلف العرق بالمنضوين تحت لوائها. العروبة جوهر خالد، قابل للانبعاث، باعث للأمل. العروبة حقيقة تطفو فوق الملابسات المضللة من خلق الرجعية، أو تزييف المستعمر. العروبة نهاية المطاف مهما طال الشوط، وغاية الغايات مهما تصارعت الوسائل. إنَّ الظروف العصبية التي عاشتها الجزائر،

فكادت تطمس فيها معالم الإسلام والعروبة لم تزد المصلح الكبير - وهو يعيشها - إلّا تعلقاً بالمرامي البعيدة التي تعامى عنها الدخيل. وإيماناً بالغد العربي الأكبر، الذي كفر به المستعمر وكاد يكفر به المواطن.

(**العرقية**) التي يذكيها المستعمر في كل شبر عربي ليمزق بها وطن العروبة.

(**الطائفية**) التي يغذيها ليغذي بصراعها وجوده وتسلطه. هي ذاتها التي ينطلق منها (ابن باديس) حجة على المستعمر وفلسفته، ومنها ذاتها يصبغ العروبة بصبغة قدسية تتنزه عن النعرة الطائفية والعرقية.

«تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكون الأمة، ويربط أجزاءها، ويوحد شعورها، ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة. وإنّما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد، ولو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان. وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر، وتباين قصد وتباعد تفكير، ثمَّ وضعت شامياً وجزائرياً - مثلاً - ينطقان باللسان العربي، ورأيت ما بينهما، من اتحاد وتقارب في ذلك كله. لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم».

سنة 1936

ولا يطوح (ابن باديس) بعيداً في التماس الحجة، وإثبات الدليل، فواقع المستعمر حجة عليه:

«وإذا نظرت إلى كثير من الأمم الأوروبية اليوم، وفي مقدمتها فرنسا، فإنك تجدها خليطاً من دماء كثيرة ولم يمنعها ذلك من أن تكون أمة واحدة لاتحادها فيما تتكون به الأمم».

سنة 1938

والمصلح العربي الجزائري، يستمد تأييده للعروبة من منابعها الأصيلة، ويستلهم فيها رسولها، ورجل القومية العربية (**محمد**) ص، ويتجاوب مع الحديث النبوي، في ربط العروبة باللسان العربي، رباطها المقدس.

«أيها الناس. الرب واحد. والأب واحد. وإنَّ الدين واحد. وليست العروبة بأحدكم من أب ولا أم. ولكنها اللسان. فمن تكلم العربية فهو عربي».

وما كانت هذه الصرخة التي انبرى لها رسول العربية مغضباً يجر رداءه، ونادى لها: (**الصلاة جامعة**) إلَّا رداً حاسماً على النظرة العرقية في (**قيس بن مطاطية**) الذي أراد أن يجرد من القومية العربية: سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي.

ويضيف (ابن باديس):

«كون رسول الإنسانية، ورجل القومية العربية أمته هذا التكوين المحكم العظيم، ووجهها لتقوم للإسلام والبشرية بذلك

العمل الجليل. فلم يكونها لتستولي على الأمم، ولكن لتنقذهم من سلطة المستولين باسم الملك أو باسم الـدين. ولم يكونها لتستخدم الأمم في مصالحها، ولكن لتخدم الأمم في مصالحهم، ولم يكونها لتدوس كرامة الأمم وشرفها ولكن لتنهض بهم من دركـات الجهل والـذل والفساد إلى درجـات العـز والصـلاح والكرامة. وبالجملة لم يكونهم لأنفسهم، بل للبشرية جمعاء، فبحق قال فيهم الفيلسوف العظيم (غوستاف لوبون) لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب لأنهم فتحوا فتح هداية لا فتح استعمار، وجاءوا دعاة سعادة لا طغاة استعمار».

وفي سنة 1936 و(ابن باديس) يحدوه عمر حافل بجلائل الأعمال في خدمة العروبة، في سنة **1936**. وبين (ابن باديس) ولقائه ربه أربع سنوات، ينطلق لسانه بدعاء صاعد من الأعماق، في أن يحييه الله في خدمة العروبة، ويميته في خدمتها. قدوة برسول الإنسانية، ورجل القومية العربية:

«هذا هو رسول الإنسانية، ورجل القومية العربية. الذي نهتدي بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجهها توجيهه، ونحيـا لها، ونمـوت عليها وإن جهـل الجـاهلون... وخـدع المخدوعون... واضطرب المضطربون...»

* * *

عروبة الجزائر

«لقد تعربت الأمـة الجزائـرية تعـرباً طبيعيـاً، اختياريـاً،

صادقاً، فهي في تعربها نظيرة إسماعيل جد العرب الحجازيين، فقد كان من العرب لما شب في مهدهم ونطق بلسانهم، وتزوج منهم. وليس تكون الأمة بمتوقف على اتحاد دمها. ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها، وأرواحها وعقولها، اتحاداً يظهر في وحدة اللسان وآدابه، واشتراك الآلام والآمال».

ابن باديس 1938

دأب (**ابن باديس**) عمره، يصل الليل بالنهار لبعث الجزائر العربية المسلمة، وليقول قولته التاريخية هذه في وطنه العربي المسلم. وقد دخل (**ابن باديس**) الميدان الإصلاحي، والإسلام ضلالات ما أنزل الله بها من سلطان، والعروبة لا يكاد يسمع لها حسيس في هذه الديار، فرابط في واجهته مرابطة الجندي المجهول، وآمن بالأبعاد التي عشيت عنها فلاسفة الاستعمار. حتى أخرج إلى الوجود شعباً قال عنه: «**لو جئناه بعد عشرين سنة لما أدركنا فيه قابلية للعلاج**» ولكنَّ الله أراد خيراً بهذا الشعب، فبعث فيه من آمن بنشوره، بعد إيمان الكثير بموته».

بدأ (**ابن باديس**) الجولة من الصفر، بل من الصفر المركب. فلم يكن هناك كفر، ولكن إسلام مشوه. لم يكن هناك جهل فحسب، ولكن ثقافة دخيلة مسمومة. لم يكن هناك شعب ألقى حبله على غاربه. ولكن كان هناك الشعب الذي تسلط على زمامه المستعمر، لم يكن هناك الشباب الجاهل فقط ولكن الشباب المشوه الثقافة واللسان. المفصول عن تاريخه وحضارته. وما أشبه الليلة

بالبارحة. وما أشد حاجتنا إلى (ابن باديس) يبعث من جديد. ليعيد على مسامعنا ما قاله سنة 1938:

«أعلن (الشهاب) من أول يومه - و (المنتقد) الشهيد قبله. سنة 1924 - أنه «لسان الشباب الناهض بالقطر الجزائري» ولم يكن يوم ذلك من شباب إلاَّ شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه ومجده، وقبح له دينه وقومه، وقطع له من كل شيء - إلاَّ منه - أمله، وحقره في نفسه تحقيراً».

وإن تساءلت عن الشعب. كيف وجده (ابن باديس) في أوائل هذا القرن أجابك:

«برغم ما في الأمة الجزائرية من أصول الحيوية القوية، فقد عركتها البلايا والمحن، حتى استخذت وذلت، وسكتت على الضيم، ورئمت للهوان، وبرغم ما بينها من روابط الوحدة المتينة، فقد عملت فيها يد الطرقية المحركة تفريقاً وتشتيتاً، حتى تركتها أشلاء لا شعور لها ببعضها، ولا نفع. تتخطفها وحوش البشرية من هنا وهناك، بسلطان القوة على الأبدان، أو سلطان الدجل على العقول والقلوب».

ولك أن تستكمل الصورة المحزنة بمفهوم الوطن في تلك الأيام العصيبة:

«أعلن (الشهاب) من أوَّل يومه. - والمنتقد الشهيد قبله - (أنَّ الوطن قبل كل شيء) وما كانت هذه اللفظة يومئذٍ تجري

على لسان أحد بمعناها الطبيعي والاجتماعي العام، لجهل أكثر الأمة بمعناها هذا. ولخوف أقلها من التصريح به».

تلك هي الأرض الصلدة، التي نهض لها (**ابن باديس**) يبذر فيها بذور الخصوبة والنماء. وذلك هو المسلك الوعر الذي شقّ فيه طريقه، وتلك هي نقطة الانطلاق لنهضة، ابتدأت بذرة في أرض موات، فغدت أصلها ثابت وفرعها في السماء. ابتدأت حبوة علمية في جامع (**سيدي قموش**) قبل الحرب العالمية الأولى وانتهت احتفالاً جماهيرياً بختم تفسير القرآن الكريم في (**كلية الشعب**) بقسنطينة قبيل الحرب العالمية الثانية.

و«**ابن باديس**» آمن بثلاثة، لا تعرف التجزئة، ولا تكتمل الصورة إلاّ بها جميعها، ولم يهدأ روعه حتى ألحقها ببعضها، ووصلها بلحمة لا تنفصم، وركبها تركيباً مزجياً، يعز عن التفكك، ويقوى على التهافت: الجزائر. العروبة. الإسلام. فهو إذ يقيم نهضته، يقيمها بمقدار ما أعطى لهذه الثلاثة من مجاورة أبدية.

وهو إذ يتأمل شعبه يتأمله من الملامح التي تصله بهذه الثلاثة، وهو إذ يسبر غوره، يسبره بمقدار عمق إيمانه بها. ولعلّ (**ابن باديس**) لم يعرف راحة الضمير، حتى استطاع أن يسجل للتاريخ صورة مشرقة للجزائر، مقابلة لتلك الصورة المؤلمة التي بدأ فيها الشوط.

«أمّا اليوم ـ سنة 1938 ـ فقد تأسست في الوطن كله، جمعيات ومدارس ونواد. باسم الشباب والشبيبة والشبان، ولا تجد شاباً ـ إلاَّ نادراً ـ إلاَّ وهو منخرط في مؤسسة من تلك المؤسسات، وشعار الجميع: الإسلام. العروبة. الجزائر».

«أمّا اليوم. فقد نفضت الأمة عن رأسها غبار الذل. وأخذت تنازل وتناضل وتدافع وتعارض، وشعرت بوحدتها فأخذت تطرح تلك الفوارق الباطلة وتتحلى بحلل الأخوة الحقة، وتنضوي أفواجاً أفواجاً تحت راية الإسلام والعروبة والجزائر».

«أمّا اليوم ـ فقد شعرت الأمة بذاتيتها، وعرفت هذه القطعة من الأرض التي خلقها الله منها، ومنحها لها، وأنها هي ربتها، وصاحبة الحق الشرعي والطبيعي فيها، سواء اعترف لها به من اعترف، أم جحده من جحد. وأصبحت كلمة الوطن، إذا رنت في الآذان حركت أوتار القلوب، وهزَّت النفوس هزاً».

(عروبة الجزائر) عند باعث نهضتها، ليست عروبة خطابة أو تهريج، أو حماس أجوف، إنَّه وهو يذكيها بأنفاسه الملتهبة، ويرويها من عرقه المتصبب ويرعاها العشرات من السنين، يعطيها من الدراسة النظرية حقها ويستمد لها من التاريخ العميق أصالتها ويواجه أعداءها المتنكرين لها، أو الناكرين لها، مواجهة الحجة بالحجة، ويقف من عروبة الجزائر موقفه من العروبة عامة. لا ينكر ما أثبته التاريخ من (**أصل مازيغي**) للجزائر، لأنَّ العروبة فوق السلالات:

«ما من نكير. أنَّ الأمة الجزائرية كانت مازيغية من قديم عهدها، وأنَّ أمَّة من الأمم التي اتصلت بها، ما استطاعت أن تقلبها عن كيانها ولا أن تخرج بها عن مازيغيتها أو تدمجها في عنصرها. بل كانت هي تبتلع الفاتحين، فينقلبون إليها، ويصبحون كسائر أبنائها».

تلك هي الحقيقة التي أثبتها التاريخ، لا ينكرها (ابن باديس) ولا يتنكر لها. لأنَّها لا تغير من عروبة الجزائر شيئاً. فهو يعرف كيف يستدرج الخصم بحجة ترضيه في البداية وتفحمه في النهاية.

«فلما جاء العرب، وفتحوا الجزائر فتحاً إسلامياً لنشر الهداية، لا لبسط السيادة. دخل الأمازيغ من أبناء الوطن في الإسلام، وتعلموا لغة الإسلام العربية طائعين، فوجدوا أبواب التقدم في الحياة كلها مفتحة في وجوههم فامتزجوا بالمصاهرة، وثافنوهم في العلم. وشاطروهم سياسة الملك، وقيادة الجيوش. وقاسموهم كل مرافق الحياة، فأقام الجميع صرح الحضارة الإسلامية، يعربون عنها، وينشرون لواءها بلغة واحدة هي. اللغة العربية. فاتحدوا في العقيدة والنحلة، كما اتحدوا في الأدب واللغة. فأصبحوا شعباً واحداً، عربياً، متحداً غاية الاتحاد، ممتزجاً غاية الامتزاج، وأي افتراق يبقى بعد أن اتَّحد الفؤاد، واتَّحد اللسان:

لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده
فلم تبق إلاَّ صورة اللحم والدم

و (ابن باديس) الذي لا ينفك يربط العروبة باللسان العربي، لا يعدم برهاناً على ذلك في واقع الجزائر. ولعلّه أسر هذه الحقيقة في نفسه ربع قرن، حتى خلق لها ذلك الواقع الذي يبرر المجاهرة بها، وإن اعتقاد الشيء نظرياً، والتماس الحجة له عملياً عشرات السنين، لرسالة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وحملها الإنسان.

«واليوم. فإنَّ اللغة العربية، والآداب العربية هي لسان الأمة الجزائرية كلها، لا يجهلها إلاَّ عدد ضئيل جداً من المنقطعين في بعض رؤوس الجبال. ولا تستعمل اللغة المازيغية إلاَّ في بعض النواحي القليلة استعمالاً شفاهياً محلياً. ثمَّ اللغة العربية هناك لغة الكتابة والخطابة والتعليم والتخاطب العام.

ولو رأيت (الجامع الأخضر) في قسنطينة، لرأيت أبناء الجزائر من جميع جهاتها. - وفيهم من يتقنون المازيغية - يتزاحمون على مناهل العربية العذبة، ويتسابقون إلى الفوز في ميادين بيانها الفسيحة، ويتعاونون على بناء صرحها، ورفع منارها، ويستعذبون في سبيل المحافظة على تراثهم منها كل مر، ويستسهلون في تبليغه لغيرهم كل صعب. لو رأيت هذا لعرفت كيف كانت هذه الأمة الجزائرية أمة عربية واحدة، فحكمت بالجهل المطبق، أو الكيد المحقق على كل من يقول فيها غير ذلك».

ومن واقع المستعمر يستمد الحجة التي تبكته، ويدحض دعوى البربرية التي تحدوه، ويشنع عليه احتجاجه بحالة في الجزائر، وتغافله عنها في فرنسا، فيفضح فيه التزييف المتعامي، والمغالطة المقنعة:

«وإذا نظرت إلى كثير من الأمم الأوروبية اليوم - وفي مقدمتها فرنسا - فإنَّك تجدها خليطاً من دماء كثيرة، ولم يمنعها ذلك من أن تكون أمة واحدة لاتحادها فيما تتكون به الأمم. على أنَّك تجد في قرى من دواخل فرنسا وأعالي جبالها، من لا يحسن اللغة الفرنسية، ولم يمنع ذلك القليل - نظراً للأكثرية - من أن تكون فرنسا أمة واحدة، وهذه الحقيقة الموجودة في فرنسا، يتعامى الغلاة المستعمرون عنها. ويحاولون بوجود اللغة المازيغية في بعض الجهات وجوداً محلياً، وجهل عدد قليل جداً بالعربية في رؤوس بعض الجبال. أن يشككوا في الوحدة العربية للأمة الجزائرية، التي كونتها القرون وشيدتها الأجيال»

سنة 1938

ولم يتجن (ابن باديس) بقوله هذا على الواقع الجزائري، بل نقله نقلاً أميناً صادقاً، ولم يفرض العروبة على الناطقين بالمازيغية، ولكنها نبعت من قلوبهم، وفجرها إسلامهم، فلا بدع أن نجد (الفتى الزواوي: باعزيز بن عمر) يقول عن العروبة سنة 1936.

«وإنَّنا لنشعر من قبل ومن بعد بدم العروبة يجري في

عروقنا، وهو صاف لم يمازجه كدر وإن اختلف المظهر. ونسمع صوتها الحنين يرن في آذاننا. فنفتح له الطريق إلى قلوبنا وأعماقنا.

فالعروبة حية فينا، ونحن أحياء فيها ما دامت السماوات والأرض».

إن (عروبة الجزائر) عروبة تاريخ وحضارة، لها أيامها المجيدة، ودولها العريقة، ولن يقوم أمر هذا الوطن إلاّ بها. و(ابن باديس) حين يذكرنا بهذا التاريخ إنّما يحدونا إلى مستقبل أفضل يستمد عراقته وأصالته من التاريخ العربي لهذا الوطن:

«لبس أبناء الجزائر العروبة وامتزجت بأرواحهم وتغلغلت في قلوبهم وأشرقت شمس معارفها في آفاق أفكارهم، وجرت ينابيع بيانها على أسلات ألسنتهم، فأصبحوا ومنهم فيها علماء وخطباء وشعراء، ولهم منها جنود وقواد وأمراء، وحسبك من كثرتهم القائد الفاتح والخطيب المصقع (طارق بن زياد). ثمّ ما قامت مملكة من أبناء الوطن إلاّ وهي عربية في كل شيء مثل سائر الممالك العربية في المشرق، بل فوق بعضها».

سنة 1938

* * *

الوحدة العربية

«الوحدة السياسية. لا تكون إلاّ بين شعوب تسوس نفسها، فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم،

وتتعاقد على تنفيذها وتكون كلها في تنفيذها والدفاع عنها يداً واحدة، فهي مقتدرة على الدفاع عنها، كما كانت حرة في وضعها».

في سنة 1938. احتدم صدام فكري قومي، بين الأمير شكيب إرسلان، وسليمان باشا الباروني، في قضية (**الوحدة العربية**). فتدخل (**ابن باديس**) في النزاع، وأسفر مرة أخرى عن وجه عربي صميم، فقال القول الفصل في القضية. وتجرأ به في دنيا من التضليل والتهريج، وعالم من الجبن والاستكانة.

و(**ابن باديس**) ـ كعادته ـ يحتفظ بالكلمة الفاصلة لليوم الحاسم بسرها في صدره، ويطيل الصمت، فإذا نطق، قطعت جهيزة قول كل خطيب. يقف من الأحداث موقف المتتبع الصامت، حتى إذا بلغت ذروة التعقيد والتشابك، وأصبح الموقف موقف مصير، صدع بقولة الحق. التي تسمو فوق الاعتبارات، فأراح القومية العربية والوحدة العربية.

كذلك كان شأنه، في قضية مصيرية. وأضافها للتاريخ وقفة بطولة. أبان فيها عن رأي الخبير بواقع العالم العربي، وأفصح عن القول الجريء: في أنَّ دولاً لا تسوس نفسها بنفسها، ولا تشق طريقها على ضوء مصلحتها، لا يمكن تصور وحدة عربية بينها.

تساءل (**ابن باديس**) في مقال بعنوان: (**الوحدة العربية**): **هل بين العرب وحدة سياسية؟**

«الوحدة السياسية لا تكون إلاَّ بين شعوب تسوس نفسها، فتضع خطة واحدة نسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم، وتتعاقد على تنفيذها. وتكون كلها في تنفيذها والدفاع عنها يداً واحدة، فهي مقتدرة على الدفاع عنها كما كانت حرة في وضعها.

وأمَّا الأمم المغلوبة على أمرها، فهي لا تستطيع أن تضع أمراً لنفسها، فكيف تستطيع أن تضعه لغيرها؟ ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها، فكيف تستطيع أن تدافع عمَّا تقرره مع غيرها؟ وهي لم تستطع أن تعتمد على نفسها في داخليتها، فكيف يعتمد عليها في خارجيتها. فالوحدة السياسية بين هذه الأمم أمر غير ممكن، ولا معقول، ولا مقبول».

وابن باديس مؤمن بـ «**الوحدة القومية الأدبية**» الخالدة إيمانه باستحالة «**الوحدة السياسية**» بين شعوب لا تملك أمر نفسها، وهو إذ يقف هذا الموقف المزدوج إنَّما يبصر الشعب العربي بواقعه السياسي المؤلم الذي يقف حجر عثرة في سبيل إعطاء الوحدة الأصيلة مظهراً سياسياً، وفي إنكار ابن باديس لهذا الواقع دعوة صارخة للثورة عليه والملاقاة على صعيد الروابط العربية الأبدية.

«هذه الأمة العربية، تربط بينها - زيادة على رابطة اللغة - رابطة الجنس، ورابطة التاريخ، ورابطة الألم، ورابطة الأمل، فالوحدة القومية الأدبية متحققة بينها ولا محالة».

بل إنَّ إيمان «**ابن باديس**» بالوحدة الأدبية يتجاوزه إلى

التحدي بها والاعتزاز الصارخ بوجودها، يتحدّى بها فرنسا وهي ترجع النشاط القومي في الجزائر إلى «اتحاد إسلامي أو وحدة عربية» تحركه من الخارج:

«إنَّ الاتحاد الإسلامي والوحدة العربية. بالمعنى الروحي والمعنى الأدبي والمعنى الأخوي هما موجودان تزول الجبال ولا يزولان. بل هما في ازدياد دائم بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب ضدَّ العروبة والإسلام».

سنة 1937

وإيمان ابن باديس - بـ «**الوحدة القومية**» إيمان بمصير حتمي في «**الوحدة السياسية**» فهو متفائل بيقظة العالم الإسلامي العربي مؤمن بها، مبشر بطلائع التحرر من سيطرة الأجنبي:

«أمَّا نحن - ونحن أعرف بأنفسنا - فإننا نتيقن أنَّ هذه الأمم الإسلامية العربية، استيقظت من سباتها، وهبت للنهوض من كبوتها وشعرت بكرامتها وأخذت تذكر ماضيها أيام حريتها واستقلالها وهو غير بعيد، فانتبهت تعمل لفك قيودها ونيل حريته».

رحمك الله يا «**ابن باديس**» في رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلاً.

رحمك الله في عداد الخالدين ووفق شعبك لاستلهام نهضتك العربية المسلمة.

فداك ميتاً، شعب فديته حياً، حين قلت فيه:

أشعب الجـزائـر روحي الفـدا

لمـا فيـك من عـزة عـربيـة

بـنيـت عـلى الـديـن أركـانها

فكـانت سلامـاً عـلى البشـريـة

أبو اليقظان داعية الوحدة

أبو اليقظان والصحافة

إذا كانت الصحافة ـ كما قال شوقي ـ آية الزمن الذي عاصره، فأية معجزة تغدو هذه الصحافة، حين تعيش بقلم نزيه، تحت نير مستعمر لا يعرف إلاَّ الغدر والخيانة. وتصدع بقولة حق، في وجه ظالم، شريعته قطع الألسنة، وكم الأفواه، وتطالب بلسان عربي مبين، حكماً جائراً يرى في الحرف العربي أبشع مظاهر الإرهاب الذي يهدد بقاءه، ويزعزع كيانه. وتنادي بالإصلاح في فترة كانت الرجعية فيها أفتك سلاح في يد المستعمر. ولنزد الصورة وضوحاً باقتطاع هذه الفقرات من مقال لأبي اليقظان سنة 1930 بعد أن صودرت جريدته **(وادي ميزاب)**:

«فلمَّا كانت مشاريع الإصلاح على الدوام عرضة للزوابع والزعازع، ومرمى لسائر الأهواء والمطامع، كانت بطبيعة الحال جريدتنا هدفاً لها، فقد هبت عليها عواصف من كل جهة، ودمدمت عليها قواصف من كل ناحية، حتى تضاعفت رياح الفتن، وتوالت أمواج المحن، فهوت بها من منبرها العام الذي طالما هزَّت منه أوتار القلوب، وأرسلت منه أشعة النور إلى ما وراء الغيوب».

ويتطرق أبو اليقظان إلى حرية الصحافة في الجزائر في تلك الفترة، فيضيف:

«ولو أنَّ النكبة وقفت عند هذا الحد، لهانت المصيبة، ولساغ مذاقها فإنَّ أمثال هذه الكوارث شيء عادي بالنسبة للصحافة، خصوصاً في بلاد لم تكن فيها الضمانة الكافية لحريتها، كما هو المتعارف في البلاد الراقية. ولكن تجاوز طمها حسب مقتضيات السياسة إلى مديرها نفسه، فحرمته من حقوقه الطبيعية، وإلى قلمه فحجرت عليه الجولان في ميادينه المشروعة فصدرت الأوامر بذلك إلى أطراف البلاد»[1].

وهو نفس الجو المسموم، الذي نصلي لهيبه في هذه الفقرات اللاذعة التي ختم بها الشيخ ابن باديس ردوده على المعمر الفرنسي (آشيل):

«لا. لا أعرض لمناقشتك الحساب. يا. م. آشيل. في هذه المسائل السياسية، فإنَّ الكلام فيها في مثل هذه الظروف. ثقيل على النفوس، محرج للصدور، وربما وجد أحدنا من حرية القول والنشر ما لم يجده الآخر. وشروط المناظرة استواء المتناظرين في امتلاك ساحات الميدان للجولان»[2].

في مثل هذه الميادين كانت جولات أوائلنا مع المستعمر. وبمثل هذا التفاوت في القوى. كان الصراع الدائم بينهما. وما أشبه الليلة بالبارحة حين نجد المعركة تعيد نفسها، بتناقضاتها

ومفارقاتها في الكفاح المسلح بالصورة ذاتها في الكفاح الأدبي. وما أشبه الليلة بالبارحة في الغلبة التي تواكب كل قوة روحية وراء ضعف مادي، وتطيح بكل سلطان مادي أعزل من سلاح الروح.

وإذا أردت للمعالم تحديداً أضبط. فاقرأ معي هذه الفقرة من القوانين الأهلية (**الأندجينا**):

«**المراقبة الخصوصية: وهي التي تسمح للوالي العام بنفي كل أهلي يرتكب جريمة إلقاء الخطب السياسية، أو يقوم بأعمال يشتم من رائحتها تكدير الأمن العام أو يتعاطى أعمالاً عدائية ضد سلطات فرنسا في الجزائر**»[3].

إنَّ ظهور مجلة أو جريدة وطنية في هذا الجو الشائك. أشبه بالمعجزة تنبعث في ظلام الكفر الدامس. وهي من ناحية أخرى أشبه بنبوغ شاعر يظهر في دنيا المنافرات. الشاعر الذي يعزز جانب القبيلة في وجه من يريد بها سوءاً. فلا غرابة أن يتسابق شعراؤنا في مبادلة التهاني ببزوغ جريدة، ورفع العقيرة في أفول أخت لها. فإنَّ الصحافة في الوطن المضطهد صعيد يتصافح فيه قلم الكاتب وريشة الشاعر المحتبسين، وواجهة يرابط فيها الفكر الحر، والضمير الحي.

وعندما ظهرت لأبي اليقظان أول جريدة سنة 1926. خاطبه الهادي السنوسي بقوله:

دعا بك من قومي خيار شبـاب

فلا تنأ عن داعي الهوى بجناب

إذا كان همي هو همـك، فليكن

عـذابك في دور الكفـاح عـذابي

وليس لنـا إلاَّ الجـزائــر مـوطن

تـرابـك فيهــا واحـــد وتـــرابي

هي الأم واست في الصبا كل مرضع

وفيها اهتدى الساعون سبل صواب

سـأقضي لها حق الأمـومـة، إنها

بـــلادي التي فيهـــا محط ركـــابي

هي الجنة الفيحاء من قبل نشأتي

وإن كنت ظـلماً نـــازلاً بيبـــاب

ولـولا زمان بـالمـمالـك عـاصف

لتم لهـا في العـز كـل نصـاب[4]

ولولا تعلق أبي اليقظان بـ (صاحبة الجلالة) لما استرخص فيها المهر الغالي، وفاخر بها الأسواق العربية الأدبية. فهو يقول:

إنَّ الصحـــافـة للشعـــوب حيـاة

والشعب من غير اللسان مـوات

فهي اللسان المفصح الذلق الذي

ببيـانــه تـتـــدارك الـغـــايـــات

ما (ذو المجاز) وما (عكاظ) وما وما

إن ساعدت لرواجها الأوقات[5]

وينوه (**رمضان حمود**) برسالة الصحافة، ودورها الخطير، في هذه الأبيات التي خاطب بها أبا اليقظان:

يـا رافعـاً قلماً لـلحق تـشهـره
جـزاك ربـك منحـلاً كمـرتحـل
لـك الـدعـايـة فـالآذان صـاغيـة
فاصدع بحق، ولا تركن إلى ملل
فسر ودع قول من خست مقاصده
في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل
انـذر ونهض بلاداً سـاء موقفهـا
بـين الأنام وكـانت قبـل في قلل
وانفخ بها قوة تشفي الغليل بهـا
واصرخ وحرض وأيقظها من الكسل
شـر البلاد بـلاد خـاف سـاكنهـا
من جمرة الجور، أو من فتكة السفل[6]

وكان في الإمكان أن تكون أقلامنا العربية في أوائل هذا القرن أبواقاً وطبولاً للمستعمر، وقد جند لها من وسائل الترغيب والترهيب ما جند. فمن أخطأته الأولى بدافع العفة والنزاهة. أصابته الثانية بدافع الخوف، واتقاء المظالم. وقليل ما هم أولئك الذين يحملون بين جوانحهم السلاح الصارم لكل من الجبهتين، ترفع أبي عن وساوس الرغبـة، وإيمان راسـخ يتخطّى زعـازع الرهبة. وأشـرف الكفاح كلمة عادلة في وجه سلطان جائر.

وأشرف منه أن يعالج الأوائل قضايا الوطن بنظر نافذ إلى المستقبل. متعففين أو متسامين عن السطحية العابرة، ومطوحين بالنظرة خارج الحدود الضيقة للزمان والمكان. فيعانقون المستقبل الباسم في أحلامهم الفكرية وهم غرقى إلى الأذقان في غمـرة الواقع المظلم. وتتراءى لهم الحرية مشرقة في ليل أشد وطأ من ليل امرىء القيس والنابغة. ويشقون بأفكارهم طريقاً مفروشاً بالورود. في واقع أدمى أرجلهم بخرط القتاد.

من مقال لأبي اليقظان تحت عنوان (ما هي الحرية الحقة) نشر سنة 1927. نقطف هذه الفقرات:

«... ومنهم من يرى أنَّ الحرية الحقة في تقييد الإنسان عن كل شيء، عن التفكير، عن التربية، عن النشر، عن القول، عن الاجتماع، عن العمل، عن السعي، عن التملك، عن التظلم، عن الجولان .

ونسي هؤلاء أنَّ الله الذي خلقهم خلق مثلهم من بني آدم، وكرمهم وحملهم في البر والبحر، ورزقهم من الطيبات، وفضَّلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً، وجعل لهم ما في الأرض جميعاً، ولم يجعلها حقاً ممتازاً لأمة خاصة أو قومية خاصة. فمحاولة انتزاع شيء مما ملكهم الله، هي منازعة الله في تدبير ملكه، ولا يخفى ما في ذلك من سوء المنقلب، ومرتع البغي وخيم».

وهنا يقف الكاتب عـلى عتبة المستقبـل، ويتخطَّى حـدود

الغيب بنظر ثاقب ويضع الأسئلة المحرجة التي تحمل في طياتها دمار المستعمر الغاشم. فيقول:

«ولكن أين نجد هذه الحرية؟ ومتى نجدها؟ وكيف نجدها؟ الجواب عن هذا موكول إلى المستقبل، الحرية كالشمس لا بدَّ منها للحياة».

«الحرية أن يكون للأمة الحق في حكم نفسها بنفسها بما يقتضيه الشرع والقانون، داخل حدودها الطبيعية بإدارة شؤونها، وخارجها بتمثيل نفسها لدى الأمم الأخرى. والأمة التي هذا شأنها تسمى حرة، والتي لم تكن كذلك مستعبدة مقيدة، ولا تكون مستعبدة وحرة في آنٍ واحد لأنَّ الحرية جزء لا يتجزأ، فإمَّا أن يكون كله، وإما أن يذهب كله، وهي بطبيعتها تأخذ ولا تعطي، شأن الشيء الغالي الثمين»[7].

بطولة أن يتعلق الثائر في غرة نوفمبر 1954 بتباشير المستقبل المنشود وهو يشق الطريق إليه تحت قعقعة المدافع ودوي الرصاص وأنهر الدماء المتفجرة وبطولة هي الأخرى تعلق المفكر الثائر بطلائع هذا المستقبل قبل خمسين عاماً. في يوم كان فيه المستعمر يعتقد أنَّه استوى على عرش البلاد.

الوحدة الوطنية

وكانت الوحدة، وحدة الشعب الجزائري أنشودة كل مثقف يدرك أنَّ التفرقة هي السلاح الفتاك في يد العدو، وكان لم

الشتات وجمع الشمل وتذويب الفوارق المصطنعة التي فصمت عرى التكاتف الأخوي للمواطنين، كانت تلك غاية الإصلاح الاجتماعي والنهضة الثقافية، إنَّ المستعمر بأسلوب أو بآخر استطاع أن يحفر في جدار هذا الشعب أخاديد من المنازعات يذكي نارها واستطاع أن يخلق لها أقنعة متعددة الأشكال، ويضرب لها جذوراً في الأعماق، فجلس على الربوة جلسة الشامت المتفرج على النار تأكل بعضها حين لم تجد طريقها إليه. استطاع المستعمر أن يخلق للفكر الجزائري الحر من بني جنسه ودينه صاحب القلب المريض. وحامل القلم المرتزق الرخيص. فيضرب هذا بذاك، ثمَّ يضع يده على الاثنين بدعوى الأمن العام.

ولقد بلغ التعلق بالوحدة، والتطلع إليهما مبلغاً من التسامي حتى عن الديانات. وهو ما نصطلح عليه اليوم بالقومية العربية، على ما عرف به شعب الجزائر من تصلب في الدين. كرد فعل للصليبية الحاقدة التي داهمته ولكن من عرف المحنة التي صليت الجزائر نارها من جراء التفرقة العنصرية بين المستعمر والمواطن من جهة. والتفرقة العنصرية والفكرية والمذهبية التي دسَّها المستعمر بين المواطنين من جهة أخرى. بطل العجب عنده حين يرى الجزائر تنطلق في أجواء القومية العربية منذ أوائل القرن العشرين. وتبارك في المشرق كل صيحة تدعو إلى وحدة تستلهم القومية، ولا تجعل الأديان سبباً للفرقة والتناحر.

فمن مقال موجه إلى شكيب أرسلان، نشر في جريدة (وادي ميزاب) سنة 1927، نقتطف هذه الفقرات:

«جدير بأروام سوريا وعرب الشام أن يفتخروا بشخصيتك التي لا ترى للفوارق الدينية من إسلامية ومسيحية قيمة تجعلهم في تنازع مستمر، بل رأيت رأياً وهو عين الصواب أنَّ هذه الفرق يجب أن تتحد في جنسيتها العربية، وأن تلتف حول الوحدة الوطنية، وأن تعمل يداً واحدة قلباً وقالباً للوحدة القومية مع احترام المذاهب والعقائد أياً كانت.

رأي سديد ورب الكعبة، وأنصاره يتزايدون يوماً فيوماً في كل قطر وفي كل بلد قاتل الله التعصب المذهبي والاعتقادي، فقد تركنا متشتتين متنازعين متباغضين يتربص كل فريق الدوائر بالآخر».

لا يقف المفكِّر الجزائري موقف المتفرج من الدعوة إلى الوحدة في المشرق يباركها ويصفق لها، وبلاده تمزقها الأحن والضغائن بل يتساءل في حيرة؟ إذا اتَّحد المشرق مع اختلاف الأديان، فكيف نختلف مع الدين الواحد؟ وإذا وجدت الدعوة إلى الوحدة أصداءها في ربوع المشرق فكيف تتلاشى في ربوعنا وهي أحوج ما تكون إليها في زحزحة الدخيل؟.

ويضيف كاتب المقال:

«ولكن نحن معشر الجزائريين، تمر علينا آيات الاتحاد،

ونلامس الفوائد المحسوسة للاتفاق، ورأينا بعين البصر أنَّ الوئام يرتفع بالأمَّة إلى عنان السماء، وقرأنا في كتب السير والتواريخ حوادث الشقاق، ومنافع الاتفاق، ومع هذا وذاك فما تأثرنا بشيء، ولا سعينا في جمع الكلمة وتوحيد العناصر على مبدأ الأخوة، وطرح سائر الفوارق خلف الظهر، أمام الوحدة الإسلامية والوحدة القومية»[8].

وما قام احتفال اجتمعت على صعيده صفوة الشعب، والتقت على منبره أرواحه المتعطشة إلى اللقاء إلاَّ انبرى الشعر مهللاً ومكبراً بالوحدة الضالة المنشودة للجميع.

قال أبو اليقظان سنة 1934 في الاجتماع السنوي لجمعية العلماء في (نادي الترقي):

أنعشي الأرواح منا ... ألهبي فينا الحمية

غيرة الإسلام، أعني ... لادعاء الجاهلية

حركي الأعصاب، هزي ... أنفساً منا قوية

رددي في الشرق ذكرى ... وثبات مغربية

ثمَّ قولي إننا في الـ ... ـمجد، قدماً أخوية

واختلاف الرأي، لا
يفسد في الود قضية
كيف لا تزهو الجزائر
بالحميا البابلية
وبنو (مازيغ) مع أبناء
(قحطان) الفتيه
أصبحوا في ردهة
النادي على أحسن نية
في حمى النادي تصافت
أنفس الشعب الزكية
في حمى النادي تراءت
لولا آي خفية
في حمى النادي تلاشت
همزات العنصرية
في حمى النادي تعالت
صرخة الشعب القوية[9]

بمثل هذا الاستبشار تقابل مظاهر الوحدة في وطننا الغالي.

وعندما تتعلق النفس بالمبادىء الإنسانية العليا، وتشرئب الأعناق إليها، تتلاشى الفوارق ما دون الإنسانية، وتطيش سهامها، فعندما يناجي ابن باديس الحرية في لهفة وشوق، ويعانقها في صبابة وحرقة، يعانقها حتى في أولئك الذين يختلفون معه ديناً، قال رحمه الله:

«آه. آه. أيتها الحرية المحبوبة، واشوقاه إليك، بل واشوقاه إليهم، المحيا محياهم والممات مماتهم، أنقذ اللهمَّ بهم وطنك، وأحي بهم عبادك. إنني عدو أعداء الحرية، وحبيب أحبابها سواء كانوا من أهل البرانيس، أو من أهل البرانيط»[10].

القضية القومية

وإذا تسامت نظرة الجزائري إلى الوحدة هذا السمو، ووزنت القيم الإنسانية بهذا الميزان، فتركت جانباً كل ما من شأنه أن يضعفه من تكتل الأحرار في العالم مهما اختلف بهم دين، أو تعددت فيهم ألوان، أو طوحت بهم أقطار، فإنَّك واجد طبعاً هذا الجزائري في كل جبهة تدافع عن الحرية، وعند كل انتفاضة تنادي بالتحرر، وفي طليعة كل نهضة إصلاحية أو وثبة ثقافية، إنَّك واجده إلى جانب كل مضطهد، وعلى حدود كل وطن مداس، يغير المنكر بيده فتبترها السلطة الجائرة، فيصدع الحق على طرف لسانه فتقطعه الرقابة الصارمة، ويتنفس صعداءه أخيراً في أضعف الإيمان.

وبالرغم من الأسوار الحديدية التي فصلت الجزائر عن المشرق العربي بفعل المستعمر، فإنَّ الجزائر لم يغب طيفها عن حادثة تقع في المشرق لتجد أصداءها في أعماق هذه الربوع، ولم يتخلف حاديها عن أي ركب تحرري في وطن عربي أو إسلامي، ولا غاب شاعرها أو ناثرها عن أي محفل أدبي، أو سوق أدبية تقع في أحد أندية الشرق.

فكيف تغيب الجزائر عن مأساة فلسطين؟ لقد كانت على وعي بالمؤامرة من أطراف خيوطها، ومع الخطة المبيتة وهي في مهدها، ولقد استشفت الجزائر المستقبل القائم لفلسطين العربية منذ انطلق وعد (بلفور) المشؤوم كانت الجزائر واقعية مع المأساة يوم كانت ملهاة لكثير من المسؤولين في المشرق، نددت الجزائر بالصفقة الخاسرة، يوم كان الطامعون يرونها الربح الوفير، بكت الجزائر فلسطين يوم كانت فلسطين قهقهة عبث ومجون في قصور الأمراء، وعرفت الجزائر الوجه الحقيقي للصهيونية في يوم لم ير المشرق منها إلاّ القناع.

رحـم الله أبا اليـقظان حيث يقول عن فلسطين سنة 1930 :

«إنَّ كل من يمعن النظر، ويدقق البحث في قوادم المسألة وخوافيها يجد أنَّ المسألة ليست مسألـة المبكى والبراق، وإنَّمـا حقيقة المسألة هي السرطان الصهيوني، الناشب مخالبه في عنق العالم، الظاهرة عوارضه الراهنة في فردوس الإسـلام، وجنته الأرضية، ومقر أنبياء الله فلسطين.

وليست السياسة الإنكليزية في الواقع تجاه هذه المسألة، إلاَّ سياسة مأسورة مسخرة، لا إرادة لها إزاء الضغط الصهيـوني الخفي، وإلاَّ لمـا أرخت العنان للطغيـان الصهيـوني إلى هـذه الدرجة.

قد يقال أنَّها لم تفعل ما فعلت لفائدة الصهيونية إلاَّ محافظة

على ذلك الشرف نفسه حيث أنَّه يوجب وفاء عهد (بلفور) نفسه. فنقول لها إذا كان هذا هو السبب عينه، فهناك عهد قبله قطعته على نفسها للعرب في سنة 1915 وهل من الشرف فسخ عهد قديم ونكثه بعهد ضدِّه جديد.

وإذا حملها سخاؤها على أن تتكرم على أي طائفة شاءت، فذلك شأنها ولا دخل لنا في ذلك، وإنما نقول لها يجب أن يكون السخاء من جيبك ومن بلادك، لا من جيوب الناس وبلادهم.

إنَّ حكومة الإنجليز تعرف كل شيء، وتعلم سائر المسببات في هذه المسألة فإرسال لجنة التحقيق إلى فلسطين، ومواصلة البحث والتنقيب فيها، ما هو إلاَّ من قبيل ذر الرماد في الأعين»[11].

ألا رحم الله وحفظ الله، من بين علمائنا علماء، اخترقوا حجب الغيب بالبصيرة النافذة، والضمير الثاقب، والفكر المنطلق، علماء لم يعرفوا الالتواء في طريق كفاحهم الطويل ولا اجتذبتهم بنياته، ولا دنسوا خطاهم بإحجام عن رهبة، أو انكبوا على مناخرهم استسلاماً لرغبة، ولا لوثوا جباههم بالأقنعة المزيفة، ولا طعنوا العلم فدحرجوه من صدارة الإباء إلى تبعية المستعمر، فكانوا صوت الحق المدوي لا تأخذهم في الله وفي وطنهم وفي هذا الشعب لومة لائم. وقليل ما هم، ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدَّلوا تبديلاً﴾.

مصادر البحث:

- **(إرشاد الحائرين)** إبراهيم بن الحاج عيسى القراري، **مطبعة العرب** بتونس نهج السيد عجولة سنة 1923 - 1341.
- **جريدة (الاقدام)** سنة 1922.
- **شعراء الجزائر في العصر الحاضر**، محمد الهادي السنوسي الزاهري. ج 1926/1.
- **جريدة (وادي ميزاب)** سنة 1927.
- **مجلة (الشهاب)** م ج 1929.
- **ديوان أبي اليقظان** سنة 1931.
- **مجلة (الشهاب)** سنة 1934.
- **سجل مؤتمر جميعة العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الجزائرية الإسلامية.**

هوامش المراجعة

(1) حريدة **(ميزاب)** 25 جانفي 1930 العدد 1 السنة الأولى المكتبة الوطنية بتونس.

(2) **(الشهاب)** 28 جانفي 1926 عدد 12 المكتبة الوطنية بتونس والمستشرق **(آشيل)** كان نشر سلسلة مقالات في التهجم على القرآن في حريدة **(الديبش)** بقسنطينة وسبق الحديث عنه.

(3) **(السياسة الأهلية)** 25 فيفري 1928. عدد 71 المكتبة الوطنية بتونس

(4) حريدة **(وادي ميزاب)** 22 أكتوبر 1926 عدد 4 السنة الأولى و **(شعراء الجزائر** في العصر الحاضر):

وقد نشرت هذه القصيدة في الجريدة بعنوان. **(إحساس الجزائر نحو وادي**

ميزاب) ولكنَّ الشاعر عندما أدرجها في كتابه (شعراء الجزائر) ج 1 ص 198 جعلها تحت عنوان (هي الجنة الفيحاء) وأسقط منها الأبيات التالية:

وكل امرىء حر الضمير فإنني
سأنزله مني فسيح رحابي

وإني لحر في حياتي، فإن أمت
فحريتي المثوى، وحسن مآب

ولي من (أبي اليقظان) فكر، كأنَّه
من (الراد) يجلو فكرة المتغابي

تنوّر (واد) واستنارت قصوره
كشمس أطلَّت بعد طول غياب

بحرر شعباً قد دهاه زمانه
بما ليس في حسبانه وحسابي

تيقظت الأوطان بعد خمولها
ولا زال يبكي من جليل مصاب

لعلَّ الذي أودى به غير مرة
من الجهل ينجاب انجياب سحاب

فيصبح نبراس المعارف ساطعاً
ويشرق إشراقاً بـ(وادي ميزاب)

(5) (شعراء الجزائر في العصر الحاضر).

(6) جريدة (وادي ميزاب) 26 نوفمبر 1926 عدد 9.

(7) (وادي ميزاب) 29 أفريل 1927 عدد 26.

(8) (وادي ميزاب) 29 أفريل 1927 عدد 29.

(9) (الشهاب) ج 9 م 1934/10.

(10) محمد الصالح الصديق، الاستعمار في الجزائر، كتب سياسية، القاهرة

(11) جريدة (ميزاب) 25 جانفي 1930 العدد 1 السنة الأولى

تجارب لم يعرف القطيعة

قد يسجل مؤرخ يحتكم إلى مظاهر الأمور، أنَّ الجزائر انسلخت من خريطة الوطن العربي، ما يزيد عن قرن وربع وهو عمر الاستعمار الجاثم على هذه البلاد. وإذا كانت القضية قضية علم يرفرف، فما من شك في أنَّ العلم المثلث الألوان قد عمَّر طويلاً في هذه الديار. أو قضية «**هوية شخصية**» فما من منكر بأنَّ كل جزائري قد تأبط بطاقة تعرفه بأنَّه (**المسلم الفرنسي**) وتحدد وطنه بأنَّه الجمهورية الفرنسية.

هذه حقائق ما كانت لتثير حيرة أو تساؤلاً قبل غرَّة نوفمبر سنة 1954، وقد تكون وضعت موضع الشك طيلة الحرب التحريرية، وقد تكون بعد الاستقلال رجعت إلى سابق يقينها عند أولئك الذين لا يزالون دائمي الحرص على الاحتكام إلى المظاهر.

ومنها ما ترسب في الجزائر من ثقافة دخيلة. وتبعية للفكر الدخيل، وكلاهما بعد وانسلاخ عن (**الشخصية العربية**) لهذا الوطن.

* * *

إلى الذين لا يلمسون التاريخ إلاَّ من خلال السنوات. سنة

احتلال وسنة استقلال، ولا يفسرونه إلاّ بالمظاهر الطافية، علم ينتكس، وعلم يرتفع. إلى هؤلاء ومع هؤلاء سأقف وقفة أدبية فكرية خاطفة.. لنلمس الجزائر العربية من خلال العلم الفرنسي، والأطلس العربي تحت نير الاستعمار الغربي، لعلّنا ندرك أنَّ الجزائر لم تعرف قطيعة في عروبتها ولا تسامحاً في شخصيتها حتى في تلك الأيام العصيبة التي تبدو فيها لعشاق المظاهر غريبة الوجه واليد واللسان.

هناك حقيقة مرة يجب الاعتراف بها، وهي أنَّ هذه القطيعة إنْ وجدت، ففي الطرف الآخر الذي كان لا يلمس في الجزائر إلاَّ وجهاً فرنسياً، ولا مستعدة أنامله أن تقع إلاَّ على ملامح غربية. ولعلَّ حادثة دبلوماسية واحدة وقعت في سنة 1930 تبرهن إلى أي مدى كان تعلق الجزائر، واعتزازها بشخصيتها. في الوقت الذي تحتكم فيه بعض العهود البائدة في الوطن العربي إلى مظاهر ليس لها وجود في حقيقة الجزائر.

في سنة 1930 كتبت جريدة (المغرب) التي تصدر بالجزائر في عددها 24 مقالاً بعنوان «**لماذا لا يكون لمصر قناصل في المغرب؟**» وجاء في المقال:

«**كلفت الحكومة المصرية قناصل انكلترا في تونس والجزائر ومراكش، القيام بأعمالها في تلك البلاد لعدم وجود قناصل لها فيها.**

فنحن نسأل ولاة الأمور في الدولة المصرية: لماذا لا يكون

لمصر قناصل في المغرب العربي؟ وهل تعيين قناصل مصريين في اليابان والبرازيل، أولى من تعيينهم في بلاد شقيقة، تربطها بمصر كل الروابط التي تستدعي وجود ممثلين للدولة المصرية في تلك الأقطار.

إنّنا نناشد الحكومة المصرية الموقرة أن تعيد النظر في هذه المسألة لأننا نريدها أن تكون جبهة العالم الشرقي، أمام الشعوب الأخرى، لنعتز بإعلاء كلمتها بين الأمم».

وفي سنة 1935 يطرح (الفتى الزواوي) الوجه الأزلي لهذا التواصل مع العالم العربي، و(الفتى الزواوي) كما كان يمضي مقالاته في مجلة **(الشهاب)** الجزائرية، هو **(باعزيز بني عمر)**. مصلح وكاتب من بلاد القبائل. يقول سنة 1935:

«إن علاقتنا بالشرق والشرقيين علاقة متينة قويّة، تزداد على مرّ الأيام متانة وقوة، وتغذيها عدة روابط، روحية ودينية ولغوية وأدبية نشعر بها كلها شعوراً، لولاه لضاق بنا العيش، ولذهبت النفوس حسرات».

كانت الجزائر دائمة التجاوب مع الوطن العربي في آلامه وآماله، ولعلَّ هذا التجاوب بلغ ذروته يوم بلغت القطيعة المظهرية الفروضة سورة عنفها وتسلطها.

ولم يعش هذا التجاوب في حدود المشاعر الصاخبة بين الضلوع، ولا النبضات في الشغاف، تتطلع إلى البوح فيخنقها

التكتم، وتصبو إلى الانطلاق فيكبلها التسلط. فما كان للجزائر أن تعيش في عروبتها على أضعف الإيمان.

كان التجاوب تجاوب فكر ودراسة، قلم ولسان، مراسلة ومواجهة.

ولعلَّ الأمير عبد القادر هو واضع اللبنة الأولى في هذا التجاوب الفكري فقد كانت رسائله تغدو وتروح بين الجزائر والقاهرة، بين بطل المقاومة الجزائرية ومفتي الديار المصرية للتشاور في بعض المواقف العصيبة التي تعرضت لها ثورة الأمير.

ولعلَّ من مظاهر هذا التجاوب ما كان بين الإمام محمد عبده وبعض علماء الجزائر من علاقة أدبية روحية توجت بالزيارة التي قام بها الإمام للجزائر سنة 1903.

ولعلَّ من مظاهره، تلك الطليعة الجزائرية المثقفة التي هاجرت إلى الشرق العربي في أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا القرن فعاشت في صميم أحداثه وساهمت فيها مساهمة الطليعة الرائدة والتقت فيه برجال الفكر والإصلاح لقاء المناقشة البناءة والتطلع إلى مستقبل أفضل للعالم العربي والإسلامي.

ويوم عرفت الجزائر الصحافة العربية الحرة قبيل الحرب العالمية الأولى عرفت أروع مظهر للتجاوب الفكري الأدبي مع الوطن العربي، لم يخل عدد لصحيفة أو مجلة من أوائل هذا القرن حتى قيام ثورة نوفمبر الخالدة سنة 1954 من صورة رائعة لهذا التجاوب.

ولو مدَّ المرء يده يتلمس بطريقة عفوية الإنتـاج الأدبي في الجزائر ـ شعره ونثره ـ ذلك الإنتاج الذي عالج القضايا العربية. وذلك الذي عنون فيه بلفظ (**العروبة**) وما اشتق منها، وناقش فكرة (**القومية**) فيها. لكانت الحصيلة صورة نابضة عن عروبة هذا الوطن في حيويتها الدائرة المستمرة.

ولو تساءل المرء عن تجاوب الكاتب الجزائري مع فكـرة (**القومية العربية**) لفوجىء بالجواب مبكراً.. أشـد تبكيراً حتى بالنسبة لبعض الأقطار في المشرق العربي.

ففي سنة 1927 نشر (**المولود بن الصديق**) في جريدة (**وادي ميزاب**) مقالاً بعنوان (**أمراء العرب وأبطال الشرق**) وكان المقال موجهاً إلى الأمير «**شكيب أرسلان**»، ومما جاء فيه:

«جدير بأورام سوريا وعرب الشام أن يفتخروا بشخصيتك التي لا ترى للفوارق الـدينية ـ خصـوصاً ببلدك الأمـين ـ من إسلامية ومسيحية قيمة تجعلهم في تنازع مستمر بل رأيت رأياً وهو عين الصواب أنَّ هذه الفرق يجب عليها أن تتحد في جنسيتها العربية وأن تلتف حول الوحدة الوطنية وأن تعمل يداً واحدة قلباً وقالباً للوحدة القومية مع احترام العقائد والمذاهب أيّاً كانت.

رأي سديد ورب الكعبة، وأنصاره يتزايدون يوماً فيوماً من كل قطر وفي كل بلد، قاتل الله التعصب المذهبي والاعتقادي فقد تركنا متشتتين متنازعين متباغضين يتربص كل فريق بالآخر».

تلك هي الجزائر في عروبتها الخالدة، في تفاعلها معها أخذاً وعطاءاً. أخذ بغير استخذاء. . وعطاء بدون استعلاء.

وما الجزائر في شعورها الصادق بالروح الوحدوية عروبة وإسلاماً إلاَّ انعكاس لنبض متجاوب الأصداء في جنبات المغرب العربي.

* * *

الشِّعْرُ في المَغْرِب العَرَبي

من التلقي إلى الإبداع الذاتي(*)

كتبت مجلة (**الشهاب**) الجزائرية في أواسط الثلاثينات مقالاً بعنوان (**اشتغالنا بالشرق أنسانا أنفسنا**)[1] وأردفته بمقال ثان في عدد لاحق (**واشتغالنا بالغرب أنسانا أنفسنا**).

والعنوانان إن حددا روافد التلقي والتجديد في أدب المغرب العربي فإنّهما في الوقت نفسه، يؤكدان وجود ذاتية مبدعة، وإن غطى عليها الإفراط في التعلق بالشرق أو الغرب، فلا أحد ينكر أنّ النهضة الأدبية في هذه الربوع المغربية، فتحت أعينها على أختها الكبرى في المشرق العربي، وعلى نفحات روادها تخرجت. كما أنّ رياح الغرب، وأقطار المغرب العربي واقعة تحت سلطته محتلة أو محمية، ومدارسه منبثة في البلاد، ولغته متغلغلة في التربية والإدارة، هذه الرياح، مقيمة كانت أو وافدة مع البعثات من وراء البحر لن تعدم تأثيراً على الحركة الفكرية والأدبية.

ولكن، ونحن في سياق الأدب العربي، وفي هذه الفترة بالذات، تبقى الأهمية للرافد العربي، الذي يقول عنه (**راجح إبراهيم**) في مقدمة (**السعيديات**) بعد أن يتجاوز الرافد الغربي[2]:

(*) القسم الثاني من الدراسة التي ألقيت في خمسينية الشابي.

«وهناك عامل آخر لا يقل عنه تأثيراً، وهو أنَّ أرض الكنانة الكريمة في هاته الآونة، تسير في سبيل الرقي سيراً حثيثاً، وتخطو نحو الحياة العصرية بخطوات واسعة، وقدم ثابتة، وبصيرة نافذة وكانت ترسل أشعة هاته الحركة المباركة على الأقطار العربية بواسطة الصحف والمصنفات، تأليفا وتعريباً، فكان لذلك الأثر المحمود على أبناء (تونس) إذ كانوا أشد الناس تأثراً وافتداء بسيرة هاته الأخت الكريمة»

و (الزاهري) صاحب (شعراء الجزائر) يؤكد هذا التعلق بروافد المشرق العربي، في فترة كانت فيها القطيعة المفروضة من طرف المستعمر، تزيد التعلق عمقاً، وتفرض جسور التواصل معه. ويعدد (الزاهري)[3] الدوريات التي يستسرها المواطن من الشرق، ويسمي الشعراء الذين كانت دواوينهم ومختارات أشعارهم، مثار المناقشات الأدبية، ونموذج الصياغة في المدارس والمعاهد، فلا يكاد في تعداده ذاك يغفل شاردة أو واردة تناقلتها الأندية الأدبية في المشرق، حتى لكأن الحصار الذي فرضه الاستعمار الفرنسي على المنطقة في وجه التواصل العربي الإسلامي تلاشت غيومه، وتهاوت أسواره الحديدية.

و (القباج)[4] في مقدمته لـ (**الأدب العربي في المغرب الأقصى**) يبرز هذا التواصل، ويعطيه مدى أبعد وأوسع من (**الكنانة**) في فترة كان فيها المجتمع مهيأ لتجاوز الموروث المقعد، وكانت الأجيال الناشئة ناشطة من عقال القديم، متلهفة إلى كل جديد:

«ومنذ عهد قريب، وصل إلى المغرب الأقصى، صدى تلك النهضة الفكرية التي انبعثت في المشرق العربي، وأحدثت انقلاباً في الأفكار والأساليب، فعاد أدباؤنا الذين لم تتأصل فيهم جذور تلك الوراثة المذكورة آنفاً. ولم تتعمد بعد أفكارهم الجمود على تلك التقاليد، والاقتصار على تلك الأساليب، إلى أن يشحذوا قرائحهم من جديد، ويوجهوها إلى ما فيه نفع الأمة، ويعود عليها بصلاح معيشتها الاجتماعية، من استنهاض الهمم ولفت الأنظار إلى الحالة التي وصل إليها الشعب من جهل عام، وانحطاط في الأخلاق، وعبث بالدين».

ولكن يجدر بنا أن نوضح هنا، أنَّ التلفي من المشرق العربي، أو من (**المهجر**) أو من أي أفق كان، لم يقف عند رجع الصدى، الصدى المكتوم العقيم الأبعاد، وتلك إحدى مميزات المجتمع في العشرينات، كان مجتمعاً واعياً في أخذه، مبدعاً في عطائه، لا تأخذه الكبرياء في التفتح المغني، ولا تخذله القدرة في الوفاء الأوفى.

والذين لا يدرسون الظواهر الأدبية في المغرب العربي، إلاَّ تحت وصاية هذه المدرسة أو تلك في المشرق أو المهجر، ولا يقيّمون مثلاً (**محمد العيد**) و (**مفدي زكرياء**) في الجزائر، إلاَّ تحت المظلة (**الشوقية**) ولا يحللون (**أبا القاسم الشابي**) أو (**سعيد أبا بكر**) في تونس إلاَّ تحت المجهر (**الجبراني**) الذين لا يستنيمون إلاَّ للأصداء الرومنسية في (**الخيال الشعري عند العرب**) أو (**بذور**

الحياة)[5]. . . إنّما يظلمون هذا المجتمع في إبداعه الذاتي، ويجردون هذه التربة، وهي المعطاء، من روائع الإلهام.

وإذا جاز القول، بأنّ القوالب الشكلية، والصور الخيالية، لها منحدراتها وانعكاساتها شرقاً أو غرباً، فإنّ المضامين النابضة لن تنشق عنها إلّا الأرض التي أنبتت الشاعر، ولن يكون الشاعر وفياً للأصداء الوافدة والذبذبات البعيدة، إن خانه الوفاء للهزات الأرضية تحت قدميه.

على أنّ هذه المنطقة لم تعدم مجددين شكلاً، مبدعين مضموناً، وإن تلقوا شرارة البدء من هنا أو هناك. فالتلقي هنا أبعد ما يكون عن الببغائية وأقرب ما يكون إلى التلاقح المخصب، والتناغم الموحي.

ومرّة أخرى مع (راجح إبراهيم) و(**سعيد أبي بكر**)[6].

«**وهو من القائلين بحل قيود الشعر، وإدخال أوزان جديدة عليه، وهو أول شاعر تونسي تجاسر، ونظم في الأوزان الجديدة التي ابتكرها شعراء المهجر، ومن الأوزان التي ابتكرها لنفسه، وأصبح له فضل ابتداعها عند محبذي طريقته، غير مبال بالانتقاد الذي كان يوجهه إليه أناس كثيرون في بادىء الأمر. ولكن ما لبث أن اقتدى به بعض الشعراء العصريين وأصبحنا نرى من حين لآخر على صفحات جرائدنا قصيدة من الشعر الجديد**».

ويلخص (زين العابدين) صاحب (السعيديات) في فقرات.

هي مجمل القول فيه والبطاقة التعريفية لـه[7]:

«**يمتاز أدبه على العموم بالجدة، والطرافة، فهو جديد في قوافيه، جديد في روحه، جديد في أوزانه، جديد في معـانيه ومواضيعه. بل هو جديد حتى في نسجه وتركيبه!**».

فالجدة نابعة وليست وافدة هي مؤيدة برياح التجديد ولكن ليست عالة عليها. والظواهر الأدبية إنّما تسجل بداياتها خدمة لتاريخ الأدب، أمّا النظرة النقـدية فمـرجعها بلورة الـظاهرة، وحكمها اكتمال الملامح، واستقلال الهوية.

فلا يضير (**الشابي**) في شيء أن يبدأ (**جبرانياً**) ولكن يخلده أن ينتهي (**شابياً**) له صوته الخاص بعد أن تجرد من الأصداء البعيدة.

الشعر في المغرب العربي بين الظلم والإنصاف

ويبدو لي أنّ الحركة الشعرية في المغرب العربي، لم تنصف بعد الإنصاف الذي تستحقه، تأريخاً ونقداً. كانت ولم تزل ضحية ظلمين متعاقبين، وكلاهما من ذوي القربى، مع التقدير الصادق للدراسات التي لها علينا فضل الريادة.

الظلم الأول يتمثل في فترة القطيعة التي فرضها الاستعمار والتي فعلت فعلها في المشرق العربي، وأدت إلى عكسه في المغرب العربي. ففي ذروة هذه القطيعة في حسـاب المستعمر، قـالت (**الشهـاب**): اشتغالنـا بالشـرق أنسانـا أنفسنـا، وقـد وضّحنـا

بالنصوص، كيف كانت القطيعة في حساب المستعمر، وكيف هي في واقع المواطن.

و (صلاح عبد الصبور) يعطينا الوجه الآخر للغياب في المشرق العربي وبالأحرى في الكنانة[8]:

«كان (لات) الشعر و (عزاه) في زمننا الأول هما: محمود حسن إسماعيل[9] وعلي محمود طه[10]، إذ لم تكن الأصوات العربية تصل إلينا، ولكن ثلاثة من شعراء العصر العرب استطاعوا بالصدفة أن يدخلوا إلى عالمنا الصغير في المدرسة الثانوية، وكان لكل من هؤلاء الشعراء الثلاثة طريقة، فقد غنى (عبد الوهاب) لأولها وهو (إيليا أبو ماضي)[11]قصيدة (الطلاسم) وكان ثاني هؤلاء الشعراء وثالثهم هو أبو القاسم الشابي التونسي، والتيجاني يوسف بشير السوداني[12]، وقد ساقنا إليهما أديب من أدباء ذلك الزمان هو (محمد فهمي)[13] الذي جمع لهما ولثالثهما المهشري[14] المصري كتاباً من المختارات. وكأنَّ ما يربط بينهم جميعاً هو أنَّهم لقوا الموت في شرخ الشباب».

أمَّا الظلم الثاني، فيتمثل في النظرة المعاصرة لفترة الاغتراب تلك فدراستها لا تتم إلَّا بنظرة فوقية، لا تقع إلَّا قليلاً على الأرضية الاجتماعية في فترة الاستعمار، لا تكاد تلامسها حتى تعاود التحليق من جديد، متشفعة بالمدارس الوافدة، والاتجاهات السائدة، ومحتكمة إلى القوالب النقدية المنمطة التي قد تعطي تفسيراً مريحاً للأجراس اللفظية، وانتهاء مبيتاً للتفعيلات

المستجدة، ونسباً معنعناً للصور البيانية، بينما تهدر المعاناة التي تميز التجربة الشعرية في تربة، عن أختها في تربة أخرى.

فهل المدارس الأدبية، والنقدية المعهودة منذ زمن ليس بالقريب قدر حتمي لدراسة كل تجربة إبداعية؟! لماذا لا تفرض هذه التجربة، وهي متفردة في معاناتها، أسلوب نقدها وتمحيصها؟! لماذا تفترض الموازين النقدية سلفاً وفي إمكان التجربة أن تساعدنا إن غصنا في أعماقها، على استنتاج الموازين التي تنصفها؟!

يقول (عباس الجراري) في (الأدب المغربي) صفحة 188 - 189:

«لقد كان شعر الشابي صورة لنفسه في إطار أمته ومجموع الإنسانية، وكان أسلوبه في التعبير محدداً بطاقة شعرية خلاقة، تمتاز بكثير من الرشاقة والأناقة والإشراق والجمال، وهو بهذا صاحب مدرسة متميزة في الشعر العربي».

و (أبو القاسم كرّو) في (الشابي، حياته وشعره) صفحة 100 يقول:

«ولقد استكملت شخصية الشابي عناصر تكوينها قبل وفاته بسنوات لا تقل عن الخمس، حتى لقد غدا في قصائده الأخيرة ومقالاته مدرسة قائمة بذاتها».

وعن الظلمين السابقين، نتجت ظلمات ضاعت فيها الحقيقة، أوتكاد، و (الشابي) وشعبه لم يزالا يدفعان ضريبة هذا التجني، والشعب هنا أوسع من أن يكون تونسياً فحسب، فالعشرينات في هذه المنطقة لم تعرف لها عنواناً إلاَّ في (الشمال الإفريقي) و (إفريقيا الشمالية)[15] و (المغرب العربي) تلاحماً في النهضة الفكرية والأدبية، ووحدة في الكفاح الوطني.

إنَّ النظرة الفوقية عجزت حتى عن إنصاف الشعب العبقري الذي أنجب الشاعر العبقري، وعتمت جنبات الأرضية التي انطلق منها الشاعر، وفوقها حلَّق، وعليها وقع مرة أخرى.

فشعب أبي القاسم في العشرينات، شعب عجوز، شعب جهول، شعب مسحور عند (إيليا الحاوي) ويضيف[16].

«هذا شعب ذليل. .الذل يصحبه الجبن، والشجاعة هي في مواجهة الذات فضلاً عن مواجهة الحياة».

ويضيف بعض كتَّابنا[17]:

«المجتمع التونسي في الفترة القصيرة التي قضاها شاعرنا في محيطه كان مجتمعاً مريضاً في جسده وروحه، بالياً في تفكيره وآرائه مستسلماً لأوضاعه الفاسدة»

وإذا لم تكن الصفحات التي مرت كافية لرفع هذه التهمة عن المجتمع، فإنَّ أبا القاسم نفسه يقول عنه سنة 1930 [18]:

«ثمَّ افترقنا، ونفسي تفكر بالأوساط التونسية، فإذا بي، ما التفت إلى ناحية من نواحي الحياة التونسية إلّا وأجد فيها نشاطاً وحركة ونهوضاً مما يبشر بأننا الآن في عصر انتقال وتطور، تشمل حركته كل ضروب الحياة في تونس، حقق الله الأمل، فقد طال عهد الظلام».

تلك صحوة من صحوات (الشابي) الوفي لشعبه، المنصهر فيه حتى في ذروة الغربة، ولكن الدراسات التي تنغلق في سورة (**النبي المجهول**) لتدمغ بها المجتمع في العشرينات، ولا تلتفت إلى (**إرادة الحياة**) لتستنتج منها حيوية المجتمع، وتدفقه، وهديره. إنَّما هي دراسات لم تلامس أبا القاسم وشعبه بعد.

بل إنَّ هذه القصيدة بالذات (**إرادة الحياة**) التي قادت ببيت واحد منها المجتمع إلى الحرية والاستقلال، هذه القصيدة الأعرق شعبية في أرضية الشابي، الأوغل معاناة في مأساة الشعب هي عند الحاوي[19]:

«ليس لهذه القصيدة باعث معين للنظم، وإنَّما هي خواطر وتأملات طالعها الشاعر في صفحة الحياة. وفيها خبره من مظاهر الطبيعة وحركات الموت والبعث فيها».

إنَّه التهويم! فالصراع مع المستعمر، مع الظلم، مع القيد على أرض الواقع الطعين، هذا الصراع يفرغ من رائحته الترابية، ويصبح فكرة فلسفية مجنحة تجسم الصراع بين إرادة الحياة وإرادة القدر.

لا بأس. «فالشابي ـ كما يقول الكاتب[20] ـ لا يستمد معارفه ومعتقداته من الكتب، أو من الخبرة الذاتية في مواقعة الأحداث والأشخاص، بقدر ما يستمدها من كتاب الطبيعة المبذولة صفحاته لكل عين متأملة، ونظر ثاقب، وفكر مراقب».

ويتعقَّب (الحاوي) التعابير في (إرادة الحياة) كما يتعقب قدماؤنا السرقات الأدبية ويقول[21]:

«وإنَّك إذا وقعت على مثل هذه التعابير، دون أن يعين لك صاحبها، يخيل إليك أنَّها تنتمي لجبران لأنَّها مأثورة في معظم كتبه وكتاباته».

* * *

و (**النبي المجهول**) هذا العنوان الذي اختاره الشابي لمحنته يتسلسل عند (الحاوي) إلى، النبي المرذول النبي المعتزل، النبي الرومنسي، حامل الثورة المهزومة[22]:

«وثورة الرومنسي تحمل هزيمتها في ذاتها لأنَّها مستسلمة من نقطة انطلاقها، فالشابي أنف من حياة القصور المتوترة ومن «كيد الضعيف لسعي القوي، وعصف القوي بجهد الضعيف» فما كان من أمره؟ لقد سار إلى حيث تأوي أغاني الربيع، وتذوي أماني الخريف، وحيث الفضاء شاعر حالم يناجي السهول «وإذا خلعنا من هذه الآية حلَّتها الجمالية المتطبعة بطباع الأدب الجبراني، اقتصر أمرها كله على الهرب والإشاحة والتلهي بملهاة الطبيعة، ذلك أنَّ الرومنسي يحمل الثورة واليأس معاً».

سيقول القائل، إنَّ هذه المعاني من بنات الشابي، صاغها شعراً ولم يزد الناقد أن بعثرها نثراً!

هي كذلك، من بنات الشابي، ولكن شتان بين المبدع والمحلل، فأبو القاسم أرادها ومضات مد وجزر مع شعبه، شأن العباقرة، وأرادها غربة عبقرية، يقاس حضورها بأبعادها المستقبلية وليس بالدقائق والثواني التي يعيشها الشاعر، أو بالروابي والكهوف التي يؤوي إليها النبي المجهول، وليس المرذول، فأردناها نحن منصة محاكمة ومنبر مرافعة، وقفص اتهام لشعب صلب شاعره.

عبقرية الشابي نابعة من مجتمعه، وومضة من ومضاته، والشعب الغبي لا ينجب العبقرية، والشعب الذليل لا يفجر إرادة الحياة. غربة الشابي لا تنم عن عقم المجتمع، بقدر ما تعبر عن جموع العبقرية التي تخطَّت المجتمع بأشواط فأعياه اللحاق بها.

المجتمع التونسي، بل، المغرب العربي، بعرفانه ونكرانه، بإيمانه وإلحاده بصخبه وسكونه، بصراعه مع المستعمر وتدافعه مع الرجعية بتفتحه وانغلاقه، بطبيعته الساحرة، وشمسه المشرقة، بشواطئه الدافئة، وهضابه السخية، بسهوله الخضراء، وفيافيه الجرداء، بجباله الشامخة، وكهوفه الغائرة.

المجتمع بكل سلبياته وإيجابياته هو سر عبقرية الشابي، وسعيد أبي بكر، والسنوسي، والجزيري، وبيرم، والعريبي، وخريف، ورمضان حمود، والعيد، وزكرياء، والمهدوي، والناصري

والبلغيثي، والفاسي وابن ثابت، وبنجلون. و... و... و...

* * *

وقصة الشابي والمهجر، والمدارس الأدبية الغربية، ولن أطيل فقد أوجزت د. نعمات أحمد فؤاد وأغنت حين قالت[23]:

«المهجر... المهجر... باب طرقه النقاد على الشابي كثيراً حتى ضجَّ بالطرق والطارق... لا تنزل يد إلاَّ لترتفع أخرى، واختلطت الأصوات، واختلفت التعليقات والتعليلات».

أنا في غنى أن أكون من بين الطارقين، ولن أذهب بعيداً، فأبو القاسم بيننا، وبخط يده، وبجانبه أقرب الأدباء فهماً له، وأقدرهم تلمساً لأبعاده، وأرقهم إشفاقاً على عبقريته، مقدمه في مسامرة **(النادي الأدبي)** وناشر أفكاره في مجلته **(الأدبي)** زين العابدين السنوسي.

وأنقل هذه الشاهد، وهذا الحوار لأبي القاسم من (مذكراته) بتصرّف في اختيار الفقرات، وترتيب الحوار:

الزمان : 20 جانفي 1930.

المكان : مطبعة مجلة (العالم).

المناسبة : تصفيف مقالة أبي القاسم **«الشعر، ماذا يجب أن يفهم منه، وما هو مقياسه الصحيح؟»**.

زين العابدين : **أخالفك في بعض ما ورد بالمقال من الآراء، وكنت أود مقابلتك قبل طبعه، عسى أن**

تدخل عليه تعديلاً، ولكن وجود بعض ما يخالف آرائي لا يمنعني من نشره، إذ أنَّ مسؤولية ما فيه من الأفكار محمولة عليك وحدك.

أبو القاسم : نعم (وأردت أن أبين له أنَّ ما يلاحظه على المقال. ويود أن يكون موجوداً فيه. هو موجود فيه فعلاً. فلم أتمكن لكثرة أعماله ووفرة حركاته).

زين العابدين : إنك تريد أن تبعث المذهب الرمزي (سانبوليز) من مرقده وهو مذهب قضي عليه الزمن. ولم يتبعه في فرنسا إلاَّ شاعران أو ثلاثة.

أبو القاسم : لك أن تسمي طريقي بأي الأسماء التي تشاء، فأنا لا أعرف كيف أسمي، ولا يهمني معرفة أسمائها. وسواء علي، أكانت تسميتها كما قلت، أم خلافاً له، وإنَّما الذي يهمني، والذي أود أن تعرفه، هو أن أدعو إلى الطريقة التي تسكن إليها نفسي، ويرتضيها ضميري، ما استطعت إلى الدعوة سبيلاً.

وأستسمحك، أخي القارىء، في مشهد حواري آخر من مذكراته، يلذ لي، لأني أجد فيه، وداعة أبي القاسم وصفاءه،

وغربته وضياعه، فالعبقرية الشابية ضاقت على المؤمن والملحد في عصره، ولأني أجد في هذا الحوار الكثير من الهمز واللمز الذي تعيشه الدراسات التي عالجت الشابي، ولأني ألمس في نهاية المشهد من لوعة الغربة، وروعة الموقف ما يحملنا أمانة فهم الشابي على حقيقته.

* * *

المكان : مكان ما في العاصمة التونسية.

الزمان : 7 جانفي 1930.

المناسبة : لقاء مع أديبين معروفين ملحدين، أحدهما متجاهر والثاني متستر.

الأول : «إن أدبك يا صديقي فن غريب، لا أظنه يعيش في تونس، فأنت في شعرك من الشعراء الذين يدينون بالمذهب الرمزي، وإنِّي لعلى يقين من أنَّ أدبك لا يفهمه في تونس إلَّا أفراد قلائل لا يتجاوزون الأربعة أو الخمسة على الأكثر».

الثاني :أراك غلوت كثيراً في حكمك، وجاوزت حد الإنصاف! وما أدراك أن أدب صديقنا لا يفهمه إلاَّ مثل هذا العدد اليسير؟! ولأبدأ بنفسي، فإنني أفهم شعر صديقنا حق الفهم، وأدرك مراميه البعيدة، وأشعر حين أقرأه

بخيالات تجول في نفسي، وبعواطف تتحرك في قلبي وبآفاق تتفتح أمامي وتمتد.

الأول : (وأبو القاسم، صامت، مطرق، يتابع الحوار) إنني لا أزال مصراً على رأيي وأجزم به، فإنَّ أمير الشعراء لا يفهم من شعر أبي القاسم شيئاً، إنَّ هذا الفن من الأدب يتخذ من الطبيعة رموزاً لمعاني النفوس، جميل، جد جميل. ولكنه سام جداً. وغامض في سموه بحيث أنَّه لا تفهمه إلاَّ نفوس قليلة نادرة.

أبو القاسم : (في يأس وقنوط، وبينه وبين نفسه، متمثلاً بيوليوس قيصر حين لعبت به السيوف): حتى أنت يا انطونيوس[24].
(كنت أحسب أنَّه خير من فهمني، وأدرك أشواق قلبي وأفراحه، وأصغي إلى أغاني روحي، فإذا به شر من جهل لغة نفسي).

أبو القاسم : (صامت لا يتكلم إلاَّ بينه وبين نفسه): لست والله غير طائر غريب، يترنم بين قوم لا يفهمون أغاني الطيور، ولكن هل يحفل الطائر بالوجود حين يترنم؟! هل يسأل الناس: أيكم يفهم أغاني الطيور؟ كلا! يا قلبي كلا!... سر في سبيلك يا قلبي، ولا تحفل بصفير

الأبالسة، فإنَّ وراءك أرواحاً تتبع خطاك.

مع أبي القاسم من جديد

كان الشابي غريباً حقاً، غربة العباقرة النسور، تحضنها الأعشاش، فإذا مدَّت الأجنحة حلَّقت بعيداً، مجنحة، متمنعة عن الأبصار، مستعصمة بالقمم. فلا يعيب أبا القاسم أن يؤوي إلى الغاب، وقد بلغ الرسالة، فهو بها حاضر في الأعماق، نابض في النفوس، متناسخ في الأرواح متوالد مع الأجيال، فما أبرأه من الثورة المهزومة!

ولا يضير الشابي وهو على قيد الحياة، وعلى عتبة الوداع، ألاَّ يجد من يفهمه، ويقرأه، إلاَّ القلائل، وأن يغلق **(النادي الأدبي)** بابه بعد ثلاث محاضرات، أولها **(الخيال الشعري عند العرب)** التي عدَّها أدعياء الأدب **(ثورة على الآداب العربية، وجحوداً لمزايا العرب، وزندقة وكفراً)**.

لا ينقص من عظمة **(قيصر)** أن يكون صريع أخلص خلصائه، **(بروتوس)**.

كل ذلك، وغيره، لا يمس الشابي في أصالته العربية الإسلامية، ولا يقدح في عبقريته وليدة تلك الأصالة، ولا في مجتمعه وارث هذه الأصالة، ولا في عصره، ملتقى المواقف التاريخية، وعتبة الانتقال والتطور، وموسم الهجرة من **(النبي المجهول)** إلى **(إرادة الحياة)** عصر **(رياح التغيير)** كما يقول **(الجابري)**[25].

غربة أبي القاسم في السنوات الخمس التي سبقت رحيله لم ولن تقطع ما بينه وبين شعبه من سلك رقيق مكهرب، يشد الشاعر في أعماق الغاب، وفي ظلمات اليأس، وفي سورة العبقرية وينجبه مرة بعد أخرى في أجياله المتعاقبة.

إنها (خمسينية) الوفاة فلنجعلها بداية الانبعاث، الرحلة من جديد مع أبي القاسم، من هنا، من (**توزر**) من الجنوب، بسمائه الصافية، بشمسه المشرقة المحرقة، بكثبانه المتموجة، بأغنامه، برعاته، بنخلته الباسقة، وغديره الرقراق.

ولنواصل الرحلة في اتجاه الشمال، ولا بأس من التقاط الأنفاس مرة في رحاب (**الزيتونة**) وأخرى في دوائر العدلية، ولنطل الوقفة، ونخفف الوطء في مدخل (**قاعة الخلدونية**) فهنا قال أبو القاسم قولته، ومضى في سبيله.

وهناك مربع محبب إلى نفس أبي القاسم الكسيرة، وقلبه المتعب، (**البلفدير**)، فلا بأس من استرخاء في أعشابه، وسرب من عذارى الإفرنج يلعبن لعبة (**التنس**) وأبو القاسم موزع النظرة بينهنَّ وبين كتاب (**رفائيل**) في يديه. وما دمنا مع (**لامارتين**) وشبابه الزاخر بالعواطف والأحلام، فلا ضير من التحليق بعيداً والوقوع على (**البحيرة**) الرومنسية، ثمَّ التحليق مرة أخرى في (**طلاسم**) أبي ماضي، و (**عواصف**) جبران و (**أنداء**) أبي شادي.

ولكن، جدير بنا ألاَّ نطيل الهجرة، فأبو القاسم سبقنا إلى

مرتفعات (عين دراهم) بشجر (الفلين) الباسق، وظلاله الوارفة، وهوائه النقي، إنَّه مجهد القلب، لاهث الروح كأنَّه يلاحقها على قمم الجبال، وهي تسابقه إلى الرفيق الأعلى.

وأبو القاسم مهما شدَّته الأجنحة بعيداً، لا يقوى على الوقوع إلاَّ على عشه الأول.

وأبو القاسم يعجب لنا، والنظرة تشدنا إلى الوراء، كأننا آسفون لما غادرناه هناك، بعيداً، من جمال الطبيعة، وروعة الخالق والمخلوق، عجباً! إنَّ الله جمع لـ (الخضراء) ما فرَّقه على غيرها. ووهب هذه الربوع، ما حرمته أخرى، ما لكم كيف تحكمون؟! إنها عشيقة البداية، وعشيقة النهاية، فما دخلكم في الصد والهجران.

أبو القاسم سبقكم إلى (توزر) وأخشى أن تكون أنفاسه سبقتكم إلى بارئها، وأنتم تختصمون. هنا بدأ أبو القاسم، وهنا لم ينته.

رحمك الله، أبا القاسم في الخالدين.

نم ملء جفونك، وعلينا السهر والاختصام، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

هوامش المراجعة

(1) المقال الأول نشر بالجزء الخامس المجلد الحادي عشر 1935، والمقال الثاني بالجزء الثامن المجلد الحادي عشر 1935 والمقالان للفتى الزواوي باعزيز بن عمر ويستهل (الزواوي) المقال الأول بقوله:

«إن علاقتنا بالشرق والشرقيين علاقة متينة قوية. تزداد على مرّ الأيام متانة وقوّة، وتغذيها عدّة روابط روحية ودينية ولغوية وأدبية، نشعر بها كلها شعوراً لولاه لضاق بنا العيش، ولذهبت النفوس حسرات»

«ولكن لا يسرنا بحال أن ينسينا هذا الشعور أنفسنا أننا من قوافل الحياة فنحكم على أنفسنا بالجمود، واعتقال اللسان...».

(2) **(السعيديات)** صفحة 15

(3) يقول **(الزهري)**:

«ومن منا معشر الأدباء الجزائريين من لم يفتح عينيه منذ انتهت الحرب الكبرى الأولى على آثار مدرسة إسماعيل صبري وحافظ وشوقي، وطه، وأحمد أمين، والمنفلوطي، والزيّات، من أفراد الرعيل الثاني

أقول الثاني لأنهم سيقوا بطبقة الشيخ محمد عبده ومن التف حوله مثل رشيد رضا وعبد العزيز جاويش، وطنطاوي جوهري، وعلي يوسف وتوفيق دياب والمرصفي، وخلف من بعد هؤلاء الخلف الصالح أحمد أمين والمنفلوطي والرافعي.

فكانت **(الهلال)** و **(المقتطف)** و (المنار) هذه الثلاثة على الخصوص رسل النهضة الأدبية الشرقية إلى الشمال الإفريقي انظر **(المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث)** صالح خرفي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983

(4) **(الأدب العربي في المغرب الأقصى)** صفحة (ح)

(5) انظر **(بذور الحياة)** صفحة 84 **(الترجمة وتأثيرها في الأدب)** وقد ترجم المؤلف قطعة للكاتب الفرنسي **(لاموني)** تحت عنوان **(المنفى)**

(6) **(السعيديات)** صفحة 20

(7) **(الأدب التونسي)** صفحة 123

(8) على مشارف الخمسين صلاح عبد الصبور، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1403 هـ - 1983 م، صفحة 14.

(9) محمود حسن إسماعيل انظر (على مشارف الخمسين).

(10) علي محمود طه (1903 - 1949).

(11) إيليا أبو ماضي. انظر (على مشارف الخمسين).

(12) التيجاني يوسف بشير (1912 - 1937) شاعر، من الكتاب المترسلين ساهم في تحرير جريدة ملتقى النهرين، ومجلة (أم درمان) و (الفجر) وله ديوان مطبوع تحت عنوان (إشراقة). الاعلام ح 2 ص 77.

(13) محمد فهمي (شعراء الجبل).

(14) محمد بن عثمان الهمشري، توفي سنة 1938، انظر الاعلام ج 7، ص 146

(15) مثل (جمعية التعرف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا) (نجم شمال إفريقيا) و (اتحاد طلبة شمال إفريقيا) والقضايا السياسية. والحركات الإصلاحية لم تكن تعالج في هذه الفترة إلاّ على صعيد شمال إفريقي انظر (النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين في تونس) محمد صالح الجابري.

(16) أبو القاسم الشابي، شاعر الموت والحياة (إيليا الحاوي) ج 2 ص 74 دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثالثة 1981

(17) الشابي حياته وشعره، أبو القاسم محمد كرو ص 79

(18) مذكرات الشابي، أبو القاسم الشابي، صفحة 30، النشرة الرابعة الدار التونسية للنشر 1983

(19) أبو القاسم الشابي، إيليا الحاوي، ح 2، ص 88

(20) المرجع السابق، ص 70

(21) المرجع السابق، ص 113

(22) المرجع السابق 2 ص 18

(23) شعب وشاعره أبو القاسم الشابي، د. نعمات أحمد فؤاد صفحة 146، الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس 1977

(24) هكذا وردت في المذكرات، والصحيح: يا (بروتوس) لأنَّ (أنطونيوس) هو الذي انتقم لقيصر.

(25) الشعر التونسي المعاصر (1870/1970) محمد صالح الجابري، صفحة 209، الشركة التونسية للتوزيع، 1974

شُعراءُ المغربِ العربي في موكبِ العُروبة

الشعر في المغرب العربي لم يكن الغناء في فرح الشرق، والعزاء في أحزانه فحسب، كما قال شوقي، فتلك رومانسية حالمة باكية، ولكنه إلى ذلك كان قومية متوثبة، وحمية منتفضة. ولو تتبعنا مسيرة الشعر في هذه الربوع المغربية منذ السنوات الأولى التي أطلت مع القرن العشرين، لجاءت هذه المسيرة محكمة الحلقات في الوعي القومي، منتظمة الخطوات عروبة وإسلاماً، محتدمة المواجهة بين الغزوة المداهمة، والأصالة المقيمة. لا يفوت الشعر فرصة أو محنة لتجذير الروابط الأبدية مع الشرق، متمثلة تلك الفرصة في زيارة علم من أعلام الإسلام والعروبة لهذه الربوع، وما أندر تلك الفرص، أو متجسمة تلك المحنة في فقدان وجه عربي رائد، أو استهداف جبهة عربية جديدة وما أكثر تلك المحن. والشعر بين الفرحة المواتية، والمحنة القاضية، كان فوق الغناء، وفوق العزاء.

وما أندر تلك الزيارات العربية في الحصار الغربي المضروب على هذه المنطقة من المحتل، إن سمح بها مرغماً، ترصد أنفاسها متعقباً. وتابع خطواتها في المسار المرسوم لها مواقع وأفراداً، وقد

أفاض الأستاذ رشيد رضا في المحاولات اليائسة التي بذلتها السفارة الفرنسية في القاهرة لعرقلة زيارة الإمام محمد عبده إلى المغرب العربي، ولم تسمح بها إلا في نطاق المبدأ العبدوي **(ما دخلت السياسة عملاً إلا أفسدته، لذلك كان خطابه إليهم على ما ترى من اللين)**. كما قال رشيد رضا.

كانت زيارة الإمام المصلح للمغرب العربي سنة 1903، طليعة الزيارات الشرقية التي تركت أثراً بعيداً في النفوس فكراً وأدباً، وسبقتها وتلتها زيارة الزعيم محمد فريد، ولكل من الزيارتين مغزاها، وأبعادها فقد جمعتا البعد الإصلاحي لإمام الأئمة، والبعد السياسي لزعيم الوطنية، وفد الإمام داعية للإصلاح الديني والتربوي والاجتماعي في جبهة من العالم الإسلامي، تواجه غزوة صليبية شرسة. وزعيم الحركة الوطنية في مصر، وخلف مصطفى كامل بعد وفاته، زار الجزائر زيارة محام حقوقي، تخلص من قيود الوظيفة في القاهرة، ليشبع حسّه الوطني، وبعده الإسلامي برحلات استطلاعية على أوضاع العالم الإسلامي، والوقوف على حقيقة الدعاوي الفرنسية في فضلها الحضاري المزعوم على شمال إفريقيا.

وبالرغم من الحصار المضروب على الزيارتين، فقد كانتا بالنسبة لأبناء العروبة والإسلام في المغرب العربي، فاتحة لقاء جديد، وعناق مستجد مع المشرق العربي، لقاء عمق المشاعر بالرؤية الشخصية بعد طول غربة واغتراب، لقاء لم يخل من

المفاجآت، مفاجأة الإمام محمد عبده «**أن يجد في تونس وفي الجزائر، حزباً دينياً مصلحاً ينتمي إليه من حيث لم يكن يعلم**» كما قال رضا في (**تاريخ الأستاذ الإمام ج 1 ص 870**).

وكان اللقاء مفاجأة لمحمد فريد، أن يصدمه الواقع الذي تعيشه المنطقة تحت حراب المحتل، ويسفه هذا الواقع القاتم كل الدعاوي الفرنسية بحماية الإسلام في إفريقيا، والإنعام عليه بالحضارة الغربية.

ولم تكن هذه المفاجأة ثانية اثنتين، فإن هنا ثالثة، أن يجد محمد عبده في الجزائر المحتلة من الحفاوة والترحيب والإكبار، ما لا يجده في مصر. كما قال شاعر النيل حافظ إبراهيم، وهو يستقبل الإمام بعد عودته من المغرب العربي:

وسرى البرق للجزائر بالبشرى
بقرب المطهر الأواب
فسعى أهلها إلى شاطىء البحر
وفوداً بالحل والترحاب
أدركوا قدر ضيفهم، فأقاموا
يرقبون الإمام فوق السحاب
ليت مصراء كغيرها، تعرف الفضل
لذي الفضل من ذوي الألباب

كان من بين المحتفين بالإمام عبده في الجزائر الشيخ

عبد الحليم بن سماية صاحب المواقف المشهودة في وجه الغاصب، وقد شيّع عودة الإمام إلى الشرق بقصيدة قدمها رشيد رضا في مجلة (المنار ج 23 م 6 فبراير 1904) بقوله:

«اطلعنا على قصيدة تزيد على الخمسين بيتاً للشيخ عبد الحليم بن علي بن سماية، أشهر علماء الجزائر، مدح بها الأستاذ الإمام وأرسلها إليه في القاهرة من عهد قريب، فسرنا منها أنها آية من آيات صلة علماء الإسلام بعضهم ببعض في الأقطار المتباعدة، وشعور أهل المغرب منهم بما يشعر به أهل المشرق من نور الأستاذ الإمام، وإننا نقتطف منها هذه الأبيات».

ونشر منها رشيد رضا عشرين بيتاً. ومما جاء فيها:

أدير بذكراك الذي منك قد مضى
فأشرب كأساً بالصفاء مشعشعـ
محافل، كان العلم فيها مجالسي
أسامر بدار بالجلال تقنع
براهينه في النفس والكون والحجا
وليست لـ (أسطاليس) أو من تصنعا
يقودك بالبرهان غير مفيد
يريك حدود العقل، مهما تطلعا

لم تمض سنتان على زيارة الإمام للمغرب العربي، حتى فجع فيه العالم الإسلامي، وتوالت الفواجع، فافتقدت الوطنية زعيمها

الشاب مصطفى كامل سنة 1908 وكانت للشعر من أبناء المغرب العربي دمعة حارة في رثائه ورثاه سليمان الباروني الطرابلسي في ذكراه الأربعين بقصيدة نشرها بجريدته (**الأسد الإسلامي**) عدد (2) ومن أبياتها:

حيــاً وميــتــاً، أنــت قــائــد أمــة
يـــا (مصـــطفى) كـــانت تقـــاد هـــوانـــا
أبقيـت ذكـــراً ســـاطعـــاً، لا يـنـــطفىء
وأقـمـت حـــزبـــاً في الـعـــلا يـتـــفـــان
مـــا كنت تعهـــد أن مـصـــر بشـعـبـهـــا
تهـــتز يـــوم الأربـــعـــين حـــنـــانـــا

وفي سنة 1919 توفي الزعيم الوطني محمد فريد، وكانت للشاعر الليبي محمد رفيق المهدوي قصيدة في رثائه، وكانت أول ما عالج من الشعر، كما ذكر محمد طه الحاجري في كتابه (**الحياة الأدبية في ليبيا**).

ويوم بويع شوقي بإمارة الشعر، ووقفت السلطات الفرنسية في وجه وفد جزائري يسافر إلى القاهرة للمشاركة في المبايعة، فكر الأدباء الجزائريون في إقامة حفلة تكريمية لـ (**شوقي**) في مدرسة (**الشبيبة**) بعاصمة الجزائر فمنعتها السلطات الفرنسية مرة أخرى. فوئدت القصائد في صدور شعرائها حتى توجس بعضهم من نشرها، فكتب صاحب كتاب (**شعراء الجزائر في العصر الحاضر**) محمد الهادي الزاهري ما يلي:

«أقيمت حفلة شوقي في القاهرة، وبقي الجزائريون يتطلبون أنباءها بحرقة وشغف، ما عليهما من مزيد، ثم التفتوا إلى (الشبيبة) وحفلتها فوجدوا أفواه فتيانها مكممة، قطع عليها القول بين الصدر والحلقوم فصبر الجزائريون، وأضافوا هاته إلى أخواتها».

ومن القصائد التي أعدت لحفلة (مدرسة الشبيبة) قصيدة للشاعر (**محمد بن دويدة**) وحملت أبيات هذه القصيدة المبايعة إلى الأمير مشفوعة بمأساة الجزائر.

(شوقي) إليك، وإن قصرت في كلمي
أهدي تحية شعب، لج في نصب
شعب، توالى عليه الخطب يفجعه
في كل يوم بأنواع من العطب
فلو كفته الليالي شر نازلها
لجاءكم نفر من أهله النجب
عل الليالي التي أودت بنا عرضا
تودي بمن عاقنا في شر منقلب

وفي سنة 1932 فقد الشعر العربي حافظ إبراهيم، فأقيمت له حفلة تأبين في قاعة (الخلدونية) بتونس شارك فيها شعراء من الجزائر وتونس وليبيا، وكانت لشاعر الجزائر محمد العيد (1904 ـ 1979) في هذا الحفل قصيدة تنبض عروبة، وتعبر أروع تعبير عن لحمة العروبة بين المشرق والمغرب:

قم عـز (مصـر) وعـز الشـرق أقــطارا
ففحــل مصـر، خبــا كـالنجم، وانهارا
عــزاء مصـر، عــزاء الشـرق في ملك
سـاس القريض، فما استخذى ولا جارا
أقــام مــأتمــه الــدنــيــا، وأقــعــدهــا
ودام فــيـهــا، عــشــيــات وأبــكــارا
وفي الجــزائــر مــن وجــد بمــأتمــه
هــول عليهــا طـغى كـالمـوج تيـارا
وابن الجـزائـر، بــابن الشـرق مــرتبط
وإن أحــاطـت بــه الأشــواك أســوارا

كان ذلك شعر العزاء، شعر الدمعة السخينة، لكنه كان يحمل في طياته الدفقة القومية النابضة، والتواصل المتنامي الذي لم يزده التطاول الدخيل إلاّ عمقاً في المشاعر، وتناسخاً في الأرواح. كانت هذه اللقاءات فرحة أو محنة، بسمة أو دمعة، كانت المورد الأصفى، المروي للغلة في دنيا الظمأ القومي كما قال زعيم الحركة الإصلاحية في الجزائر (**محمد البشير الإبراهيمي 1898 - 1965**) **وكتب هذه الأبيات سنة** 1951.

رعـى الله من عــرب المـشــارق أخــوة
تنــادوا، فــدوى صــوتهم في المغــارب
تــوافــوا عــلى داع من الحق مـسمــع
ووفــوا بـنــذر في ذمــام الأعــارب

مــو رأس مــالي، لانــضــار وفـضــة
وهم ربــح أعمــالي، ونـجــح مــآربي

وهم مــوردي الأصفى، المــروي لغلتي
إذا كــدرت (أم الخــيــار) مــشــاربي

و (أم الخيار) كناية عن فرنسا.

* * *

ولو تلمسنا خطا آخر لفرصة اللقاء، لقاء المغرب بالمشرق، لوجدناه رائعاً دافقاً، حتى في هذه الزيارات التي يقوم بها رجال الفن، وأعلام الموسيقى والغناء والمسرح إلى أقطار المغرب العربي، فلا يتلقى فيهم المواطن إلاّ رسلاً للعروبة، يفدون بعطاء الشرق، ويؤوبون بوفـاء المغرب، فكـل نفحة تهب من الشـرق، نغمة موسيقية، أو فيلماً سينمائياً، أو فرقة مسرحية إنما هي ريح الصبا، تنعش النفوس، وتعمق اللقاء.

ويوم زار تونس الشيخ سلامة حجازي سنة 1914، استقبله الشاعر والصحافي التونسي (حسين الجزيري) بأبيات منها:

أيــا (خــضــراء) حــق كــل الهــنــاء
بــزورة مــن لــه حــق الــثــنــاء

لــقــد أصــبــحــت في شــرف وعــز
وعــمــتــك المــســرة والــصــفــاء

بـــزورة مـــن لـــه الألـبـــاب تـــصـفـــو
وتمـــدحـــه الـــشـــفـــاه بمـــا تـــشـــاء
لـقـــد سحـــر الـقلوب بـحـســن مـغـنى
يـعـجـــز مـــن لـــه، انـقـــاد الـــغـنـــاء

وحتى عازف الكمان (سامي الشوا) يجد فيه الشاعر الجزائري (مفدى زكرياء 1908 - 1978) رسول عروبة، وافداً من ضفاف النيل فلا يملك إلا أن يحمله رسالة البقاء على العهد، والوفاء للأخت الكبرى مصر. كان ذلك سنة 1932 يوم زار (الشوا) تونس، والشاعر موجود بها:

سـلاماً، يـا ابن وادي الـنيـل (سـامي)
وأهـــلاً بـــالـــكـــريـــم ابـــن الـــكـــرام
تحـــيـــيـــك الجـــزائـــر، يـــا مـــلـيـــكـــاً
تـــربـــع عـــرش أفـئـــدة الأنـــام
وتـكـــرم في نـبـــوغـــك أهـــل مـــصـــر
ومـــصـــر، مـنـبـــت الـــقـــوم الـــعـــظام
ومـــا هـــدى الجـــزائـــر، غـــير مـصـــر
همـــا أخـــتـــان مـــن عـــهـــد الفـــطـــام

ولشاعر الجزائر (محمدالعيد) قصيدتان في فيلمي (أنشودة الفؤاد) و (وداد) عندما عرضا لأول مرة في الجزائر، فشاهد الشاعر فيهما نفحة من نفحات (الضاد) تهب على المغرب العربي و (فريد الأطرش) لا يرى فيه الشاعر (عبد الكريم العقون)

شهيد الثورة الجزائرية سنة 1956 إلا رسولاً للضاد، يوم زار المغرب العربي في أواسط الأربعينات:

مرحباً بالشرق في أشخاصكم
مرحباً بالضاد، عنوان الصلات
احملوا منا إلى ذاك الحمى
شوق شعب، وتحايا عطرات

ولقاء عميد المسرح العربي بجمهور المغرب العربي في مستهل الخمسينات بمسرحياته الاجتماعية المثيرة مثل (**أولاد الشوارع**) كان لقاء مفعماً بالمشاعر الجياشة، طافحاً بالمعاني القومية، وربما ناءت (**الفرقة القومية المصرية**) بالرسالة القومية التي حملها إياها الشاعر الجزائري محمد الصالح رمضان، في ذلك القصيد الرائع الذي ألقاه في الحفل الذي أقيم للفرقة بـ (**دار الحديث**) بتلسمان العاصمة التاريخية في غرب الجزائر. لقد كانت الأبيات الشعرية مجنحة في الأبعاد القومية، لم تتلمس في خشبة مسرح (**يوسف وهبي**) إلا منطلقاً لمشاعر قومية حبيسة، ومنبراً لتصحيح ظنون سيئة متفشية تتهم الجزائر في أقدس مقدساتها، وأعز مقوماتها:

لقد قال قوم، قد مسخنا فرنجة
وصرنا بمنأى عن بني الشرق، مبهم
فما نحن إلا من سلالة يعرب
وللشرق نعزى، لا لغرب مهدم

ألا أبلغوا مصرا، إذا ما رجعتم
إليها، بأنا لم نمت، لم نحطم
وقولوا لها إنا لمصر جنودها
وإنا لها مثل الوشيج المقوم
ستعتز مصر، والعروبة، كلها
بنا، إن رعوا حق الجوار المعظم
جناحك يا مصر العزيزة (مشرق)
قوي، عزيز الريش واللحم والدم
و (مغربنا) هذا مهيض، أصابه
من الغرب جرح، لم يزل في تورم
فما بال نسر العرب ما انفك واقعاً
أما آن للنسر الصعود لأنجم

كان هذا اللقاء الفني الشعري في رسالة قومية، وثورة نوفمبر الخالدة على عتبة ميلادها سنة 1954 وكانت المغرب وتونس في طريقهما إلى الاستقلال فيتاح لنسر العروبة أن يحوم من جديد، وللجناح المهيض أن يطاول الأنجم.

* * *

ما من شك في أن المحنة التي امتحن بها الإسلام، ومنيت بها العروبة في شمال إفريقيا من طرف المحتل الغاصب، كانت سبباً مباشراً في هذا الوعي المبكر لفكرة العروبة عند كتاب المنطقة وشعرائها، ربما أسبق كثيراً من بعض الأقطار العربية، وأعمق

إيماناً بهذه الوجهة القومية، لأن العروبة نمت وتصاعدت في المغرب العربي بين الحديد والنار، في معاناة لم يعشها بلد عربي في المشرق، ضرارة في المحنة، وامتداداً في الزمن. لم تكن الغزوة أرضية استيطانية فحسب، بل كانت بالدرجة الأولى حضارية، داهمت النفوس لتستبدل لغة بلغة، وديناً بدين، وعادات بعادات.

فعناصر القومية، من لغة، بما تستتبع اللغة من سمات الحضارة المميزة، ومن دين، بما يستوجب الدين من مقومات الشخصية المتميزة، هذه العناصر طاردها المحتل شبراً شبراً، وأحكم عليها الخناق، مسجداً، ومدرسة حرة، وكتاباً عربياً، وصحيفة وطنية، وناديا ثقافياً، وبذر الفرقة، مذهباً، وعقيدة، عرقاً وأرومة. حتى قال (المولود بن الصديق) في جريدة (وادي ميزاب) سنة 1927:

«قاتل الله التعصب المذهبي والاعتقادي، فقد تركنا متشتتين، متنازعين متباغضين، يتربص كل فريق بالآخر».

في ذروة الإحساس بهذه المحنة، والوعي البصير بأبعادها، في العشرينات، كانت العروبة بمفهومها الحديث تتشكل في معاناة، وهبتها عمق المنطلق، ووضوح الرؤية، حتى إذا نادى الأمير شكيب أرسلان بالعروبة، تلقته النفوس في المغرب على ظمأ وتوق إلى المخرج، وإيمان وعمل بالمبدأ.

يضيف (المولود بن الصديق) مخاطباً الأمير شكيب سنة 1927:

«رأيت رأياً هو عين الصواب، أن هذه الفرق يجب عليها أن تتحد في جنسيتها العربية، وأن تلتف حول الوحدة الوطنية، وأن تعمل يداً واحدة، قلباً وقالباً للوحدة القومية، مع احترام المذاهب والعقائد، أياً كانت».

وما باركه (**المولود بن الصديق**) نثراً، نادى به من ليبيا (حسين **الأخلافي**) شعراً، ووضع النقط على الحروف، وحدد المواقع، وعدد الجنسيات والانتماءات المصطنعة، أدان التعصب الجنسي، وأعاد الأمر إلى رسول القومية العربية.

فيا أولياء الأمر، إن محمداً
نهى الناس عن هذا التعصب للجنس
فمالكم فرقتم الناس، بينكم
شعوباً، فذا مصري، وذا طرابلسي
وذاك حجازيّ، وذلك تونسي
رويداً فهذي غاية الدول الخمس
وهذا الذي أودى بأمة أحمد
وأطمع أحفاد الخنازير في القدس

والعروبة بمفهومها الحديث، الوحدوي القومي، ليست وافدة على المغرب العربي، وإنما نابعة منه ومن تاريخه العريق في الدولة

العربية الإسلامية، وإنما المحنة الاستعمارية الحديثة، والمداهمة العرقية التي استهدفت العالم العربي مشرقاً ومغرباً هي التي بلورت الفكرة من جديد، وما هي بالجديدة، ولا الغريبة. كما يقول عبد الوهاب عزام:

«وما هي بدعوة جديدة، ولا فيها غريب، بل هي الأصل، واستسلام العرب في المشرق والمغرب للعيش بغير دولة هو الغريب. فها آنذاك أسائل العرب في آسيا وإفريقيا. بل أسائل المرتابين في مستقبل هذه الأمة العظيمة أن يذكروا ماضيهم، ليذكروا أمبراطورية الأمويين والفاطميين والمرابطين والحفصيين ليذكروا مئات السنين التي كانت فيها أمبراطورية العرب زاهية عزيزة».

* * *

من هذا المنطلق ندرك من جديد فرحة الشعر في المغرب العربي بطلعة علم من أعلام العروبة والإسلام في المشرق، وجزع الشعر من فقدان واحد منهم. ولم يبرز هذا الوفاء في موقف، مثلما تجسم في الوفاء للأمير شكيب أرسلان حياً وميتاً. وكانت حسرة الشعر في وفاته، تنم عن عمق الإدراك للفكرة التي بشر بها حياً، وذلك ما تركز عليه الأبيات التي بكته.

لقد كان (**شكيب أرسلان**) بالنسبة لـ (**مصطفى خريف**) من تونس رمزاً بطولياً في وجه كل معاني الصغار المسلط على أبناء

المغرب العربي، وأصبح رحيله وقفة للبيعة من جديد، بيعة الوفاء للعروبة في مشرقها ومغربها، والانتصار على الوهن والضعف في الحفاظ عليها.

يقول (**مصطفى خريف**) في أربعينية (**أرسلان**) سنة 1946:

أصمتا؟ وغيم الحادثات ملبد
وأفق بلادي مثقل بدخان
وبين ربوعي، تستذل كرامتي
وتنهب خيراتي، ويضعف شأني
يباع ويشرى الساكنون، وأرضهم
بسوق ظلام، سميت بلجان
فأين زئير الليث في الغاب، إن عوت
ذئاب، ورام الطعن كل جبان
لئن غيبوا في القبر جثمانك الذي
تلقاه بشراً بالرضا الملكان
فما زال فينا ذلك الروح حائماً
يقرب منا عزنا، ويعاني
ويبعث فينا همة وعزيمة
ويبعد عنا غرة وتوان

و(**الأمير**) الفقيد بالنسبة لـ(**عبد الكريم العقون**) من الجزائر، رجل المروءات وحامي العروبة، رادها بصدق، ومحضها النصح في السر والعلن. ونافح عنها أميراً للبيان والمعاني. وبقدر

عمق الوفاء في الحياة، كان عمق الجرح بعد الرحيل: يقول **(العقون)** سنة 1949 في ذكري وفاة **(الأمير)**:

أمير المعاني، قد رحلت ميمماً
عوالم، ما فيها من الظلم ألوان
وخلفت جرحاً للعروبة دامياً
وحزناً به تصلى قلوب وأبدان
فوا رحمتا للعرب، تبكي فقيدها
«شكيباً» لها دمع مدى الدهر هتان
خلقت لدين الله، والضاد حارساً
فأنت لعمر الله، للمجد عنوان
تجاهد للفصحى جهاداً، يزينه
مضاء وإقدام، وعزم وإيمان
ثمانون عاماً، في الكفاح قضيتها
ذياداً عن الفصحى، به الغرب حيران
فيا علماً، قد كان في الشرق خافقاً
به يحتمي حق مهان، وأوطان
عزيز علينا أن تغيب، وينطوي
كتاب به فضل، ودين وعرفان

لم يكتفِ الشعراء في المغرب العربي بالتغني بلفظة **(العروبة)** أجراساً وحروفاً، أو تناولوها تناولاً غائماً طافياً، وإنما كانت اللفظة تعني تموجات فكرية، وذبذبات عقائدية، مستمدة من الصراع

اليومي، والمواجهة الدائبة في سبيل الحفاظ على مقومات العروبة، يوم كانت العروبة في أقطار عربية كثيرة مجرد جرس منبري، ونشوة اعتزاز مقعد.

والدكتور ماهر حسن فهمي في كتابه (**القومية العربية والشعر المعاصر**) يقدم إحصائية لها دلالتها، لما نشر من كتب عن (**القومية العربية**) قبل تأسيس (**الجامعة العربية**) وبعدها. وهي تشير بصورة واضحة إلى أن الوعي بهذه الفكرة القومية لم يشهد تصاعده وتماسكه إلا بعد تأسيس الجامعة بينما كان قبلها بطيئاً، على الأقل في المعالجة الفكرية. والتنظير الفلسفي، فلا أحد ينكر بأن قيام الجامعة كان استجابة لرغبة قومية ملحة منذ بداية القرن، ولكن هذه الرغبة ظلت تتغذى بالمشاعر الحماسية، والعاطفة المضطهدة أكثر مما استمدت من التحليل والتنظير، وبلورة الفكرة على الصعيد القومي إلا في بعض الكتابات المتميزة لروّاد فكرة العروبة مثل (**شكيب أرسلان**) و (**ساطع الحصري**) في المشرق، و (**البشير الإبراهيمي**) في المغرب العربي، الصعيد القومي الذي كان يعاني في كثير من أجزائه، من الاحتلال والانتداب والحماية، هذا الثالوث الأجنبي الذي استنزف الجهود العربية في جبهات قطرية.

يقول الدكتور ماهر حسن فهمي:

«والمطلع على قائمة المراجع التي نشرتها دار الكتب في أواخر العام الماضي (1958) متضمنة الكتب الخاصة بالقومية العربية،

يعرف ذلك. فالكتب التي تعرضت للقومية العربية قبل قيام الجامعة العربية تعد على أصابع اليد الواحدة، ثم تتدرج القائمة المذكورة تدرجاً بيانياً غريباً. فمنذ إنشاء الجامعة سنة 1945 حتى حرب فلسطين سنة 1948 طبعت حوالى عشرة كتب. ومنذ حرب فلسطين حتى قيام ثورة الجزائر سنة 1954 طبع خمسة وثلاثون كتاباً، ومنذ ثورة الجزائر حتى العدوان الثلاثي سنة 1956 طبع أربعون كتاباً، ومنذ العدوان الثلاثي حتى أواخر 1959، طبع أكثر من مائتي كتاب».

وقيام (**الجامعة العربية**) كان عرساً للشعر في المغرب العربي، ومن غير محاباة لشاعر هنا، أو تحامل على شاعر هناك، فإن القصائد التي انتفضت فخراً واعتزازاً بالجامعة الوليدة في أرجاء المغرب العربي، تنفرد بصدق عاطفتها، وعراقة نخوتها، وعريض أملها في المؤسسة القومية، التي أطلت بشائرها على ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، وهي في عهد من الطغيان حالك الجنبات، وسورة من التحدي صادقة العزمات، فكيف لا تذهب النشوة بالشاعر (**الطاهر القصّار**) كل مذهب، ويستظل بظل علم الجامعة العربية، ويدوس تحت أخمص قدميه العلم المثلث الذي يحتل أرضه، ويصرخ في وجه المحتل وفي حفل مشهود، (عربي أنا).

ملكت عزة العروبة نفسي
فافسحوا لي، فقد طغى فيض حسّي

واتركوا لي المجال، فاليوم يومي
وذروا لي النزال، فالبأس بأسي
عربي أنا، وهبت حياتي
لبني العرب، لا لروم وفرس
كلما قمت هاتفاً بمعاليهم
رأيت الجلال يغمر طرسي
وبحسبي رضى الضمير، وأني
(تونسيّ) وهبت للعرب نفسي

وعيد الجامعة العربية عند (مصطفى خريف) هو عيد العروبة، يحييه في الذكرى الأولى لميلاد الجامعة، فيتملّى فيه تباشير المستقبل، وبشائر الخلاص، ويلح على الصورة التي طالما نادى بها الشعراء صورة النسر العربي أو العقاب الذي تضيق عنه الآفاق، ويخونه التحليق إن خانه جناحه في المغرب العربي:

عيد العروبة، عد، فدتك دمانا
واقبل تحيتنا ومحض هوانا
عد بالبشائر، ناشراً علم المنى
طلقاً، طروباً، ضاحكاً، جذلانا
عد كالربيع، إذا تبسم نوره
وكسا الربوع بحسنه ألوانا
عد في بلاد المشرقين أمانيا
عد في بلاد المغربين أمانا

إفـريقيـا الكبـرى جنـاحـك، إن تـطر
أطـلق جنـاحـك، تـسبـق العـقـبـانـا

وللشاعر (علي الديب) من ليبيا. أبيات في تأسيس الجامعة العربية، منها:

دعـوهـا، فقـد هبت أسـود عـرينـها
تفـك رقـاب العـرب من ربقـة الأسـر
دعـوهـا، فقـد حـل الـوئـام بـأرضهـا
تضم شتـات الشرق في سـاحـة الـطهـر

على مدى الفترة الممتدة من بداية القرن، ولم تزل، يعيش الشعر في المغرب العربي مسيرتـه القوميـة، بأنفـاس مطمئنـة، وخطوات رائدة، من غير بنيات جانبية، أو اهتزاز في الرؤية، أو تشكك في الهدف الأسمى من المسيرة، لم يتطرق الشك إليـه في ضباب المحنة، وتلبد الأفق، وتبدل الأرض والسماوات. فكيف يحدث ذلك بعد استرجاع الحرية، وللمحافـظة على المقـومات الأساسية كل الفضل في المدخل الصدق إلى المعركة، والمخرج الصدق منها.

وكل سمة من سمات الوفاء للعروبة، وكل فرصة من فرص التغني بهذا الوفاء والمعاهدة عليه، تجـد للشعر حضـوراً فيها، وللرؤية الشعرية إضافـة عليها، وللشـاعـر فـي كل ذلـك دوره

الريادي، متقدم على الركب، مستشرف للأبعاد، متحسب لخبايا الأيام والليالي.

وهكذا تتردد أسماء العواصم العربية، عناوين لقصائد الشعراء حتى لتكاد تخرج من هذه العناوين بخارطة للوطن العربي من المحيط إلى الخليج، وتحوم لفظة العروبة، وتقع عنواناً لقصائد تؤلف مجتمعه **(ديوان العروبة)**، بل إن كل ما سجله التاريخ الحديث من شعر في المغرب العربي، لم يكن إلا نبضاً عربياً دافقاً، يغذي دم العروبة حمية، ويفجره بركاناً وحمماً في وجه الغاصب.

وقبل أن تصبح (فلسطين) قضية العرب الأولى، تردد اسمها في قصائد شعراء المغرب العربي منذ العشرينات، بوعي شفاف، وتنبوء صادق بنذر النكبة، ويوم صدقت الرؤيا، أصبحت فلسطين بيت القصيد في المغرب العربي، ولم تبرح. ومن قصيد بعنوان (فلسطين) لعلال الفاسي نقتطف هذه الأبيات:

لولا فلسطين الحبيبة، لم تفق
أوطاننا، بعد الزمان الراقد
لولا فلسطين الحبيبة، لم نعد
لشعورنا بكياننا المتصاعد
إنا ابتصرنا في قضيتها الحمى
من دون حام، مخلص، ومساند

ألخي لـدى الأرض الحبيبـة، إننـا
سيـان في قـفص وقـيـد عـاقـد
مـاذا أقـول عـن القـضيـة، بـلورت
كـل الـقـضـايـا في جـهـاد واحـد
نحـو البـنـاء لـوحـدة عـربـيـة
ومـن الخـليـج إلى المـحيط الـذائـد

إن العزلة التي فرضت بالحديد والنار على أقطار المغرب العربي في عهد الاحتلال الضارب، وما أطوله عمراً، هذه العزلة لم تكن في الأعماق إلا تواصلا، خادعت المحتل في المظهر، وأنصفت المواطن في السر، تمده بروح المقاومة بقدر ما يمعن الظالم في ظلمه. وتحيطه بالأخوة العربية الحانية، بقدر ما تتطاول أسوار الحصار، ولكل وجهة هو موليها، والشرق وجهة العربي، كما قال مفدي زكرياء:

بـلاد المـغـرب الـعـربي، شـرق
وكـانـت قـبـلة الـعـربي شـرقـاً
فـحـيـوا في بـني بغـداد شـعـبـا
زكـا في الخـالـدين، وطـاب عـرقـا
وحـيـوا مـصـر، مـوطـن كـل حـر
وحـيـوا في أمـاجـدهـا دمـشـقـا
رسـول الشـرق، قـل للشـرق، إنـا
عـلى عهـد العـروبـة سـوف نـبقى

المـــراجع

الإبراهيمي محمد البشير عيون البصائر
دار المعارف 1961

الباروني سليمان ديوان الباروني
مطبعة الأزهار البارونية مصر 1326

الجراري عباس العالم المجاهد عبد الله بن العباس الجراري
دار الثقافة الدار البيضاء 1985

الجابري محمد صالح الشعر التونسي المعاصر

الحاجري محمد طه الحياة الأدبية في ليبيا.
معهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة.

الخرفي صالح المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث. و. ك
الجزائر 1984
صفحات من الجزائر. ش. و. ن. ت
الجزائر 1973
الشعر الجزائري الحديث. م. و. ك.
ط 2 الجزئر 1984

خريف مصطفى شوق وذوق، دار الكتب التونسية، تونس
.1985

الخطيب عدنان الشيخ طاهر الجزائري. معهد البحوث

	والدراسات العربية. القاهرة 1971
داغر يوسف أسعد	مصادر الدراسة الأدبية
ركيبي عبد الله	قضايا عربية في الشعر الجزائري
الزركلي خير الدين	الأعلام
زكريا مفدى	اللهب المقدس. ش. و. ن. ت الجزائر 1983
سعدى عثمان	عروبة الجزائر. ش. و. ن. ت. الجزائر 1983
الشهابي الأمير مصطفى	القومية العربية. معهد البحوث والدراسات العربية 1958
العلمي محمد	علال الفاسي مطبعة الرسالة. الرباط 1980
عمارة محمد	العروبة في العصر الحديث دار الوحدة. لبنان 1981
غلاب عبد الكريم	ملامح من شخصية علال الفاسي. مطبعة الرسالة. الرباط 1974
فهمي ماهر حسن	القومية العربية والشعر المعاصر مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة
القصار الطاهر	ديوان القصار. الدار التونسية للنشر 1971
ناصر محمد	المقالة الصحفية الجزائرية. ش. و. ن. ت. الجزائر 1978

إطلالة

على الشّعر الجزائري الحديث

قد يظن الدارسون أنَّ الحركة الفكرية والأدبية في الجزائر إنَّما هي وليد الثورة المسلحة التي حملت فيما حملت مع أبنائها إلى المشرق بعض النصوص الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، فرأى بعض الإخوة ترجمة هذه النصوص للقارىء العربي مساهمة مقدّرة في تسليط الأضواء على بعض جوانب المأساة في القضية الجزائرية.

أتيح لهذه النصوص، سواء من حيث المضمون البطولي، أو فنية التعبير، أو عالمية اللغة التي كتبت بها، والعاصمة الفرنسية التي صدرت فيها، وقمم الأطلسي التي انطلقت منها. أتيح لها بسبب ذلك وبالجو المشحون بالعواطف الذي خلقته الثورة المسلحة في القارىء العربي، أن تكون أحرَّ لقاء فكري أدبي بيننا وبينكم(*).

ولكن.. نحن أبناء الشعب العربي المسلم المكافح من أجل عروبته وإسلامه طيلة قرن وربع القرن من استعمار المسخ والإبادة والصليبية الحمراء، عزَّ علينا ألَّا نلتقي مع إخوتنا في العروبة والإسلام إلَّا بواسطة الترجمة (**لسان الفتى نصف ونصف**

(*) ألقيت هذه الإطلالة في الدوحة في مفتتح أمسية شعرية ساهمت بها في الموسم الثقافي لسنة 1395 هـ 1975 م. وكانت هذه الأمسية بتاريخ 1975/12/25 وصدرت في (**حصاد الموسم الثقافي**)[3] دولة قطر، وزارة التربية والتعليم ورعاية الشباب.

فؤاده) وعزَّ عليكم أنتم أيضاً. وقد قال الدكتور طه حسين في شيء من التجني في إحدى جلسات مجمع اللغة العربية، في أواخر الخمسينات: **«إنَّ الاستعمار الفرنسي نال من الكتَّاب الجزائريين إلى درجة أنَّهم فقدوا قوميتهم العربية»**.

وعندما تُطرح على القارىء العربي أفكار جزائرية مترجمة عن لغة فرنسية فإنَّ السؤال البدهي الذي يترتب على ذلك هو: أين الأفكار الجزائرية شكلاً ومضموناً؟، وأين عروبة الجزائر دماً ولساناً؟، وإذا كانت عروبة الجزائر بخير، فلماذا لا تصلنا أفكارها إلاَّ بالترجمة؟.

دعونا نرجع نصف قرن إلى الوراء، فإنَّ من لا يعرف حقيقة صراع هذا الشعب مع المستعمر لا يمكن أن ينصفه في حكم له أو عليه.

في سنة 1926، صدر الجزء الأول من كتاب «**شعراء الجزائر في العصر الحاضر**» للهادي السنوسي الزاهري، وبعده بسنة صدر الجزء الثاني، والجزءان يضمان ما يزيد على خمسة وعشرين شاعراً معاصراً لا يرجع أعرقهم إلى أبعد من مستهل القرن، وقد قال «**مبارك الميلي**» مؤرخ الجزائر في مقدمة الجزء الثاني:

«أحس شعراؤنا بحياة جديدة، فنفضوا أيديهم من الأدب البالي المزري بلغة التأليف، ونسجوا من الأدب الغض واستمدوا من حقيقة الشعور، وعلى هؤلاء الشباب نعقد الأمل في تجديد الأدب الجزائري».

(والشعور) الذي أشار إليه «الميلي»: هو ما ركز عليه أحد شعراء هذه الطليعة «السعيد الزاهري»: «إنَّ الشعر هو الشعور. وأبناء الجزائر يشعرون جميعاً بهذه الآلام. فما بالهم لا يكونون شعراء أجمعين. أشعر بمجد الجزائر القديم. وأشعر بعد ذلك بما صارت إليه هذه الأمة من البؤس الأليم، فينفطر قلبي انفطاراً، ويغلي صدري هموماً وأحزاناً، فأتنفس الصعداء أروح ما بين جوانحي، ثمَّ ما زلت كذلك أنفث من صدر موتور وقلب محزون نفثات أرسلت إليك ما حضر منها لتختار منها لكتاب «شعراء الجزائر»».

ولعلَّ «الزاهري» كان أكثر توفيقاً في وصف هذه المشاعر شعراً يعود إلى أواسط العشرينات:

ويلاه.. أذهل خاطري عمَّا بي
ما بالجزائر من أليم عذاب
فنسيت في بؤس الجزائر كل ما
ألقاه في الدنيا من الأتعاب
وفنيت في حب الجزائر، مثلما
يفنى المحب الحق في الأحباب
كيف الخلاص من الجزائر بعد ما
ملكت علي مشاعري وصوابي
فإذا ضحكت فللجزائر أو نحبت
فلم يكن إلاَّ لها تنحابي

أو أبت يوماً، أو ذهبت، ففي
الجزائر، مذهبي أبداً لها، ومآبي
مهما تأذى في الجزائر مسلم
إلاَّ توفر من أذاه منابي
وإذا أصاب بني الجزائر حادث
فهناك عظم بليتي ومصابي
ويلذ لي من بعد ذلك أن يطو
ل على الجزائر في الحساب حسابي

وفي سنة 1928، صدر كتاب «بذور الحياة» للناقد الشاعر «رمضان حمود»، ويعتبر هذا الكتاب مَعْلماً بارزاً في الحياة الفكرية والأدبية في الجزائر، وفي العالم العربي عامة، بما طرح من نظرات نقدية رائدة في فلسفة الشعر وحقيقته، ومواقف جريئة من النهضة الأدبية الحديثة، ومن بعض أعلامها في المشرق. وبما عرف به من عداء مستحكم للنزعة التقليدية في الشعر العربي إلى حد السخرية والتهكم:

أتوا بكلام، لا يحرك سامعاً
(عجوز) له (شطر) وشطر هو الصدر
وقد حشروا أجزاءه تحت خيمة
كعظم رميم، ناخر، ضمَّه القبر
وزُيِّن بالوزن الذي صار مقتفي
بقافية للشط يقذفها البحر

وقالوا: وضعنا الشعر للناس هادياً

وما هو شعر ساحر لا ولا نثر

ولكنه نظم، وقول مبعثر

وكذب وتمويه، يموت به الفكر

يقول «رمضان حمود» في سنة 1927:

«الشعر تيار كهربائي مركزه الروح، وخيال لطيف تقذفه النفس، لا دخل للوزن ولا للقافية في ماهيته ـ وغاية أمرهما أنهما تحسينات لفظية اقتضاها الذوق والجمال في التركيب لا في المعنى»، ثمَّ يضيف:

«والموشحات وإن حطمت أغلال القافية التي أنَّ تحت ضغطها الحديدي الشعر، وأدخلت تحسينات في الوزن المعروف من قبل، فهي لم تتجاوز هذه الحدود المادية كثيراً، ولم تعتن بدرس نفسية الأمة درساً مدققاً في ذلك العصر الذهبي الجميل».

«نعم هو أعلى منزلة من أن يتناوله هؤلاء النَّظامون الماديون، عبيد التقليد وأعداء الاختراع، ولا يدرك كنهه إلاَّ من له فكر ثاقب، وعقل صائب، وذوق سليم».

لا أطرح هنا أفكار «رمضان حمود» للمناقشة، وإنَّما فقط أريد أن أؤكد بعض الحقائق: هذا الناقد والأديب الفقيد الذي ولد سنة 1906 م، واختطفته المنيَّة سنة 1929 أسبق من مجلة (أبولو) بسنوات. ومعاصر لكتاب (الديوان) و(الغربال) وهما فرسا

رهان في مضمار الأفكار التي طرحها «رمضان حمود» وهو في العشرين من عمره.

اسمحوا لي أن أجعل كتاب (بذور الحياة) ثالث ثلاثة، وأترك الحكم النهائي للزمن.

وحقيقة أخرى أريد أن أصل إليها من كل ما تقدَّم: إنَّ أرضية تطرح 25 شاعراً معاصراً وأفكاراً نقدية على هذا المستوى، هي أبعد ما تكون عن العقم والجفاف، وهي بالأحرى تتيح مناخاً فكرياً عربياً، إن لم نقل شوهد فجره مع فجر القرن العشرين، فمع الحرب العالمية الأولى.

ولم لا، فجر القرن العشرين، فيوم زار الشيخ محمد عبده الجزائر سنة 1903، أكَّد الشيخ محمد رشيد رضا، أنَّ الإمام وجد في الجزائر حزباً دينياً مصلحاً ينتمي إليه من حيث لم يكن يعلم، وقد أكَّد شاعر النيل «حافظ إبراهيم» هذا الوجه العربي المسلم للجزائر في القصيدة التي استقبل بها عودة الإمام من جولته في شمال أفريقيا.

وسرى البرق للجزائر بالبشرى
بقرب المطهر الأواب
فسعى أهلها إلى شاطىء
البحر، وفوداً بالحل والترحاب
أدركوا قدر ضيفهم فأقاموا
يرقبون الإمام فوق السحاب

ليت مصراً كغيرها تعرف الفضـ
ـل لذي الفضل من ذوي الألباب

والحزب الديني المصلح الذي عناه الشيخ محمد عبده، هو الذي سيولد ميلاداً سرياً خفياً مع انشغال السلطة الاستعمارية بالحرب العالمية الأولى، يوم بدأ زعيم الحركة الإصلاحية في الجزائر «الشيخ عبد الحميد بن باديس» ـ رحمه الله ـ يبذر في جامعين اثنين في قسنطينة بذور الحركة التي ستولد ميلاداً رسمياً في وجه الاحتفال بالذكرى المئوية للاحتلال سنة 1930 ميلاد عملاق قوامه (العروبة والإسلام).

وابن باديس لم يكن شاعراً ولكن الأيام والأحداث خلدته بنشيد وطني لم يزل على طرف كل لسان:

شعب الجزائر مسلم
وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله
أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له
رام المحال من الطلب
هذا لكم عهدي به
حتى أوسد في الترب
فإذا هلكت فصيحتي
تحيا الجزائر، والعرب

وابن باديس الذي توفي سنة 1940، وترك صيحته هذه داوية في أرجاء الجزائر، حتى تفجرت على قمم الأطلس سنة 1954 ثورة معجزة، الأمر الذي دفع الدكتور محمود قاسم إلى أن يعتبره **(الزعيم الروحي لجبهة التحرير الوطني)**.

ابن باديس هذا ورفاقه «**الشيخ محمد البشير الإبراهيمي**» - رحمه الله - وشهيد الثورة المسلحة الشيخ «**العربي التبسي**» والمرحوم الشيخ «**الطيب العقبي**» وغيرهم كثير، هم الذين سهروا على مقوِّمات الإسلام والعروبة في الجزائر، بما أسسوا من مدارس عربية حرة ونوادٍ ثقافية فكرية، وبما أصدروا من صحافة وطنية رائدة وفي بعض ذلك مناخ فكري منعش للنص الأدبي الذي عاش أزهى فتراته في العشرينات والثلاثينات والأربعينات.

ولعلَّ نظرة خاطفة على الصحافة التي أصدرتها الجزائر في النصف الأول من هذا القرن تعطي دلالة قاطعة على عراقة هذا الشعب في عروبته وإسلامه.

كانت جريدة «**الجزائر**» طليعة الصحف الوطنية، وقد صدرت سنة 1908 للصحافي الرائد «**عمر راسم**»، ولكن الجريدة لم تدم طويلاً، فصدرت بعدها جريدة «**الحق الوهراني**»، وواصل فيها «**عمر راسم**» نشاطه القلمي، ثمَّ أصدر جريدته «**ذور الفقار**» سنة 1913، باسم مستعار هو **(ابن المنصور الصنهاجي)**، وكانت كما تقول ديباجتها: **(جريدة عربية اشتراكية انتقادية)** ولفرط إعجاب «راسم» بالشيخ محمد عبده، فقد عيَّنه من طرف

واحد: (**المشرف الديني على المجلة**).

وهذه الجريدة، كما يؤكد مؤرخ الجزائر «**أحمد توفيق المدني**» في كتاب «**الجزائر**» الذي صدر سنة 1931، هي أوَّل جريدة عربية اكتشفت الخطر الصهيوني وحذرت منه سنة 1914.

ولم يزل صاحب (**ذور الفقار**) يواصل نشاطه في اتجاهه التحرري حتى ألقي القبض عليه مع الحرب العالمية الأولى وحوكم عسكرياً، وصدر عليه الحكم بالأشغال الشاقة التي قضى فيها سنوات الحرب.

وصدرت قبل الحرب جريدة (**الفاروق**) لـ«**عمر بن قدور الجزائري**» وكانت آية في اتساع الأفق وأصالة الفكرة، وطوَّحت بأفكارها إلى ما وراء الجزائر، وعالجت قضايا العالم العربي والإسلامي ومحنة الخلافة العثمانية واعتبرها «**فيليب دي طرازي**» في كتابه (**تاريخ الصحافة**) من الصحف العربية الرائدة قبل الحرب الأولى، وقال عن صاحبها: «**يعد هذا الأديب من أكتب الصحافيين في المغرب الأوسط وأرقاهم**».

ولم يزل صاحب (**الفاروق**) في صراع مع الإدارة الفرنسية، حتى تحداها بمقال منعته من نشره، فنشره، فصادرت الجريدة، وساقت صاحبها راجلاً منفياً إلى صحراء الجزائر، حيث قضى سنوات الحرب.

وبعد الحرب صدرت لـ«**الأمير خالد**» حفيد الأمير عبد

القادر جريدة (**الإقدام**) فرنسية اللسان في أول عهدها، ثمَّ أضاف إليها من العدد 36 وجهاً عربياً، وكانت هي الأخرى لسان الحركة الخالدية التي تعتبر أول تجربة سياسية في الجزائر في هذا القرن، وكانت جريدة (**الإقدام**) متنفساً لأقلام مختلفة، ومنطلقاً لأفكار مكبوتة، وأفقاً لتباشير أدبية شعرية ونثرية.

ولكن صاحب (**الإقدام**) لم يمهل، فنفته الإدارة الفرنسية إلى الإسكندرية سنة 1924.

وفي العشرينات بدأت صحافة الحركة الإصلاحية في الظهور، ليبدأ معها عهد جديد من الإنتاج الفكري والصراع العقائدي بين الحركة وخصومها، وكانت (المنتقد) طليعة هذه الصحافة، وقد استوحت اسمها من الشعار السائد في تلك الفترة (**اعتقد ولا تنتقد**) وصدرت (المنتقد) في سنة 1925، وكان المستعمر لها بالمرصاد ،أوقفها من أعدادها الأولى وخلفتها مجلة (**الشهاب**) الأسبوعية، وامتدَّت بها الأيام من سنة 1926 إلى سنة 1929، حيث تحوَّلت إلى مجلة شهرية فرضت نفسها وأفكارها ومبادئها على الدخيل عشر سنوات كانت المجلة فيها مدرسة فكرية أدبية استقطبت كل الأقلام التي ستتمخض عنها النهضة الأدبية الجزائرية الحديثة.

وتوقفت مجلة (**الشهاب**) مع الحرب العالمية الثانية.

وإلى جانب (**الشهاب**) صدرت (**الإصلاح**) في بسكرة سنة

1927، أصدرها أحد أقطاب الحركة الإصلاحية بعد رجوعه من الحجاز وهو «**الطيب العقبي**».

وفي الثلاثينات تصدر للحركة جرائد متتابعة تتفاوت أعمارها طولاً وقصراً منها: (**السنة**) و(**الشريعة**) و(**الصراط**). وكانت (**البصائر**) أطولها عمراً في سلسلتها الأولى. واستمرت سلسلتها الثانية من 1947 حتى 1956.

وللشيخ «**أبي اليقظان**» شيخ الصحافة الوطنية في الجزائر صدرت ثماني جرائد بين سنة 1926 - 1938، وقد نشر «**أبو اليقظان**» في جريدة (**الأمة**) سنة 1934 إحصائية بما صدر في الجزائر من جرائد باللغة العربية وما أسس فيها من معاهد وجمعيات ثقافية في الفترة الممتدة بين سنة 1904 - 1934 فكانت كما يلي:

35 جريدة ومجلة.
18 جمعية إصلاحية.
15 ناد ثقافي.
15 معهد ومدرسة.

والقائمة التي ذكرها «**أبو اليقظان**» للصحافة الجزائرية بعضها مثبت في تاريخ الصحافة لـ «**دي طرازي**».

وأبو اليقظان «**شاعر**» إلى كونه «**صحافياً**» وقد صدر له ديوان سنة 1931.

ولم يكتف أدباء الجزائر وشعراؤها بالنشر في المغرب العربي. فقد كانت الرقابة الاستعمارية مسلطة على الصحافة الوطنية، سواء في تونس، حيث تخرَّج جل أدباء الجزائر من جامع الزيتونة، وسواء في الجزائر ذاتها، أو في المغرب الأقصى، حيث يلتحق البعض بجامع القرويين في فاس.

فتطلعت أنظار أبناء الجزائر إلى صحافة المشرق العربي والإسلامي، فنشر «**عمر بن قدور**» شعراً ونثراً في جريدة (**الحضارة**) في الآستانة للشهيد: عبد الحميد الزهراوي» قبل الحرب الأولى. ونشر قبلها في جريدة (**اللواء**) القاهرية لمصطفى كامل في سنة 1906. ونشر غيره في جريدة (**المهاجر**) التي أصدرها الجزائريون في الشام سنة 1913. وتولى إدارتها «**محمد التهامي شطه**» ونشر «**محمد السعيد الزاهري**» مقالاته وقصصه في كل من مجلة (**الفتح**) و(**المقتطف**) في العشرينات، ومجلة (**الرسالة**) في الثلاثينات.

على صعيد هذه الصحافة العربية الحرة قرأنا لشعراء مرموقين على رأسهم محمد العيد شاعر الشمال الإفريقي، و«**مفدي زكريا**» شاعر الثورة المسلحة، و«**السعيد الزاهري**» و«**أحمد سحنون**» و«**الأمين العمودي**» و«**عبد الكريم العقون**» و«**الربيع أبو شامة**» وثلاثتهم من شهداء الثورة المسلحة.

وقرأنا للقصاص الرائد «**محمد العابد الجلالي**» في مجلة (**الشهاب**)، في مستهل الثلاثينات، وللقصاص الشهيد «**أحمد**

رضا حوحو» في الأربعينات وبداية الخمسينات في (البصائر).

وينفرد «محمد العيد» بنزعته الفلسفية وصوفيته الوطنية وانغماسه في مأساة بلاده إلى حد الاختناق، يقول في قصيدة الشك والتشكي سنة 1933:

هل للحقائق في الحياة وجود؟
كادت على عقلي الشكوك تسود
ما في الحياة حقيقة محدودة
إلاَّ اصطلاحات بها وقيود
تدعو إلى العرفان وهي جهالة
وتشيد بالإيمان وهي جحود
مثل الدفوف على المسامع طنة
رنانة وعلى الأكف جلود
دنيا على الأعمى الْتَوَتْ أوعارها
من يرشد الأعمى بها ويقود
ظلمات أمك يا جنين كثيفة
شتى وأمك يا جنين ولود
صبراً على ليل الحياة وطوله
حتى يشق من الصباح عمود
من مات لا ريب استهل فلا تخف
الموت دنيا واللحود مهود
يا موت خولت ابن آدم راحة
ما بعد جودك لابن آدم جود

في القبـــر نُـزل طيب وكــرامـة

كـــبــرى وظــل وارف ممــدود

والنــاس أطهـرُ في القبــور جبلة

ولـــو أنهم رمـــم هــنـــاك ودود

وطني الـــذي همُّــوا بـــه ودليـله

كـدليـل يـوسف ثـوبــه المقـدود

لا يـأمنـوا صب العـذاب عليهم

فـــرعـــون أعـتى منهـم وثـمـــود

أمَّا «مفدي زكريا» فإنَّه يمتاز بقصائده السياسية المنبرية، وأمَّا قصائده التي تسربت من أعماق سجن (بربروس) إبان الثورة فإنَّها مزيج فريد من العاطفة الذاتية الوطنية في نغمة هادئـة مؤمنة عميقة الوفاء لكل من الحبيب والوطن:

سيـــان عنــدي مفتـــوح ومنغلق

يا سجن بابك أم شدت به الحلق

أم السيـــاط بهـــا الجــلَّاد يُلهبني

أم خازن النار يكويني فأصـطفق

والحوض حوض وإن شتى منابعه

ألقى إلى القعر أم أسقى فأنشرق

سِرِّي عظيم فلا التعذيب يسمح لي

نطقاً ورب ضعاف دون ذا نطقوا

يا سجن ما أنت؟ لا أخشاك تعرفني

من يحذق البحر لا يحذق به الغرق

إني بلوتــك في ضيق وفي سعـة
وذقت كأسك لا حقد ولا حنق
أنـام ملء عيـوني غبـطة ورضى
عـلى صياصيـك لا همٌّ ولا قلق
طوع الكرى وأناشيدي تهدهدني
وظلمـة الليـل تغـريني فـأنــطلق
والـروح تهزأ بـالسجَّان سـاخـرة
هيهـات يـدركهـا أيـان تنــزلق
تنسـاب في ملكوت الله سـابحـة
لا الفجر إن لاح يفشيها ولا الغسق
ورُب نجـوى كدنيـا الحب دافئة
قد نام عنهـا رقيبي ليس يسترق
عادت بها الروح من سلوى معطرة
فالسجن من ذكر سلوى كله عبق
(سلوى) أناديك (سلوى) مثلهم خطأ
لو أنَّهم أنصفوا كان اسمك الرمق
يا فتنة الروح هلًّا تـذكرين فتى
مـا ضـرَّه السجن إلَّا أنــه ومق
(سلوى) حديثك يا (سلوى) يباغمني
والطرف يختان لا يدري به الحدق
أنفاسك الطهر كالصهباء تغمرني
دفئاً ويسكرني في فرعك العـرق

سمراء خدَّرهـا الباري وصـوَّرها

إن ارتشف ثغرها يفتك بي الأرق

(سلوى) أناديك (سلوى) هل تجاوبني

(سلوى) فإنَّ لساني بـاسمها ذلق

ردي عـليَّ أهـازيجي مـوقعـة

فقـد أعـارك وزنـاً قلبي الخفق

يـا لائمي في هواهـا، إنَّها قبس

من الجـزائـر والأمثـال تنـطبق

بنت الجزائر أهوى فيك طلعتهـا

فكل ما فيك من أوصافها خلق

أحبهـا مثـل حب الله أعبـدهـا

آمنت بـالله لا كفـر ولا نـزق

أعود إلى الظن الذي افتتحت به هذه المقدمة وافتراض أنَّ الحركة الأدبية والشعرية إنَّما هي وليدة الثورة المسلحة!. قد يكون الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية وليد الثورة وهو في أقدم نص له لا يرجع إلى أبعد من سنة 1945 أمَّا الأمر المؤكد، فهو أنَّ الثورة الجزائرية المسلحة هي وليدة الحركة الفكرية والأدبية والسياسية التي رادتها منذ بداية القرن وعبأت لها النفوس والمشاعر، وغذت الاعتزاز بالشخصية والنزوع إلى الاستقلال على مدى خمسين عاماً، ولذا فإنَّ شعر الثورة المسلحة لم يولد عندنا في سنة 1945، ولكنه عاش الثورة وتنبأ بها قبل الثلاثينات والأربعينات.

وعندما نقرأ هذه الأبيات لـ «**محمد العيد**» في المؤتمر الإسلامي، الذي عقد في الجزائر سنة 1936، نجدها أبياتاً ألصق بثورة (**نوفمبر**) 1954 م:

متى توفى الوعود! فقد مللنا
تساؤلنا متى توفى الوعود!؟
حنت أعناقنا الأغلال ظلماً
وحزت في سواعدنا القيود
وأعلنا المظالم والشكايا
فأخفتها الدسائس والكيود
وأنغضت الرؤوس لنا هزوءاً
وإنكاراً وصعَّرت الخدود
فما هذا التجاهل والتناسي
وما هذا التنكر والجحود؟

ثمَّ يلتفت الشاعر إلى فرنسا:

فسوسي المسلمين بكل عدل
وخلي ضيمهم فهم الأسود
لهم في مقبل الأيام شأن
به يتمخَّض الزمن الولود
فقم يابن البلاد اليوم وانهض
بلا مهل فقد طال القعود
وقل يابن البلاد لكل لص:
تجلى الصبح وانتبه الرقود

وخض يابن الجزائر في المنايا
تظللك البنود أو اللحود
بغى الباغي رداك، فخاب سعياً
وللباغي الردى، ولك الخلود

إنَّ المدرسة الفرنسية قد آتت بعض ثمارها، ولكن بعد أن تجلى الصبح وانتبه الرقود، كما قال «**محمد العيد**»: فأصبحت الجزائر اليوم تعود عودها الأحمد إلى النبع الصحيح، إلى العروبة والإسلام وتخوض ثورة التعريب بزحف لا رجوع فيه، وإنَّ شعباً لم يفرط في إسلامه وعروبته طيلة قرن وربع من الاستعمار الصليبي، لن يفرِّط فيهما بعد ثورة المليون ونصف المليون من الشهداء. يقول صالح الخرفي:

عرب نحن والعروبة غذت
بهواها عروقنا ودمانا
هي كالنبع دافق في الحنايا
إن تكن في اللسان غاضت بيانا
لوثة العجم إن غزتنا فبأس
العرب فينا بيانه لا يدانى
سكتت ألسن عن الضاد لما
ألسن النار رددته فبانا
عرب اليوم بالدماء وإنا
عرب في غدٍ دماً ولسانا

مُحَمَّد العِيد

ومَلامح مِنَ المأْساة الجَزائريَّة

مأساة وشاعر[1]

مع بزوغ القرن العشرين أطلَّ على الجزائر شاعر، صادف المأساة في ذروتها، فانغمس في أحـداثها وهـو دون العشرين، وتجاوب معها تجاوباً أفقده بسمة الحياة، وسلبه نضارة ربيع العمر فانعكست الصورة على حياته الخاصة حتى الرحيل. فتزهد الشاعر وترهب، واعتصم (بمحرابه) ورمى نفسه بعيداً عن صخب الحياة المادية، بينما ارتمى بروحه ووجدانه في صميم مأساة شعبه.

كان الشاعر ابن عشرين سنة يوم ألقى نـظرة على حـالة شعبه، فارتدَّ الطرف خاسئاً وهو حسير، وتلاشت نضارة الشباب في ذبول الحياة البائسة، وصوح الزهر في مهب السموم، واندثرت الحياة الخاصة بآمالها الغضة، في الحياة العامة بآلامها المضنية. وحلَّ العزوف عن الحياة محل الإقبال عليها، واليأس منها محل الأمل فيها، واكتسى الشباب الوارف، سمة الشيخوخة البائسة.

إنَّ الحياة في الجزائر أصبحت سجلاً متتـابع الصفحـات، متلاحق السطور بالآلام والمآسي، يتصفحه محمد العيد فلا يلبث أن يقول:

سئمت على شرخ الشباب حياتي
سئمت ولم أملك على ثباتي
سئمت وإن كنت ابن عشرين حجة
حوادث لا تنفك مستعرات
وأقرأ من آي الشقاوة أسطراً
على صفحات الكون مرتسمات
فسطر عاييل، أمضهم الطوى
عراة على لفح الأثير، حفاة
وسطر أيامي يصطرخن توجعاً
من البؤس لا يقتأن مكتئبات
وسطر يتامى مرهقين، تكبهم
على جرف البلوى يد العثرات
وسطر شيوخ كالأهلة شيب
وهل شيبهم إلاً نذير وفاة
وسطر مشائيم غرار أذلة
يسامون بالأرزاء والنكبات
وفوقهم سطر من الخلق كله
جناة لعمر الحق فوق جناة
جناة يرى الرائي من الليل مسحة
على سطرهم والظلم كالظلمات[2]

ونعثر على لوحة شعرية أخرى قاتمة الألوان، داكنة الظلال،

ذات زوايا لا يحصيها العد في المجتمع الجزائري في أوائل هذا القرن:

قف معي اليوم في (الجزائر) واسبر
غور أحوالها بعين وأذن
تجد الطفل في الأزقة يلهو
والفتى يشرب الخمور ويزني
تجد الطفلة اليتيمة تشقى
تحت خدر تنوء، أو تحت خدن
أو لدى (البيض) نصروها وقالوا:
أدركتها يد المسيح بحضن
و (النيابات) أسفرت عن مآسي
بل مواسي، تحدها كالمسن
كاذبات البريق من كل خب
يعد الناس باطلاً، ويمني
والمشاريع والشرائع، والآ
داب، والكتب والنهى في تعني
ومن اللسن في المجامع، والأقلا
م في الصحف، شر طعم وطعن[3]

وتتفرغ ريشة الشاعر لزاوية من زوايا المأساة، تجلي معالمها وتقرب أبعادها، زاوية الفقر والبطالة المتفشية، الفقر المفروض على شعب خيرات بلاده في يد المحتكر الدخيل. زاوية الخطى المتعثرة هزالاً وإعياء، على أرض الكنوز الزاخرة والخيرات

الفياضة. قصة اليد الصناع، والفرص المؤودة. الفكر الخلاف والأبواب الموصدة. مأساة مصرع الجزائري المجند دفاعاً عن العلم الفرنسي (المثلث) وفلذات أكباده المخلفة للفقر والضياع:

كم ضارب منهم في الأرض، منتشر
ما حاول الرزق إلا اعتاص وامتنعا
وعاطل صنع الكفين، مقتدر
مهما أتى معملاً، عن بابه دفعا
ومستغيث وجل الناس في شغل
عنه، وطاو وجل الناس قد شبعا
وساهد لم يجد ضوءاً لمنزله
إلاَّ الفؤاد ذبالاً، والحشا شمعا
وعاثر الجد لم يظفر بمنتشل
حر، يقيل عثاراً أو يقول: لعا
وثاكل واصلت ندب البنين، فما
قلب لها حن، أو طرف لها دمعا
وأيم ويتامى حولها اصطرخوا
في الليل واصطرخت من بينهم هلعا
قالوا: متى الصبح إنَّ الليل أزعجنا
قالت: وماذا يفيد الصبح إن طلعا
قالوا: متى الأكل إنَّ الجوع أحرقنا
قالت: إذا منح المعروف من منعا

قالوا: وأين أبونا كيف أهملنا
قالت: به وقع الأمر الذي وقعا
الموت طار به كالنسر مختطفاً
والموت طاح به كالسيل مقتلعا
بني. مات أبوكم، لم يدع أثراً
إلاَّ الأماديح بين الناس والسمعا[4]

ويعتصم الشاعر بمحرابه، محتجاً على الحالة التي تسود شعبه، لا يغادر المحراب إلاَّ لمحفل قومي يقوم فيه منشداً، أو جمعية (**خيرية**) ينبري فيها مهيباً، أو إلى مدرسة (**حرَّة**) يتصدى فيها لتعليم ناشئة لفظها الاستعمار في أرصفة الشوارع، تنوء كواهلها الغضَّة بصناديق مسح الأحذية، وتحدودب ظهورها من الإقعاء أمام أرجل السادة البيض.

وفي جوف المحراب تلاحق الشاعر المنزوي أشباح المأساة، فكل شبر في الجزائر ناطق بها، مشير إليها، وكل فتر في الأرض الجريحة مسرح لها، وقبل ذلك فالمأساة تنبع من قلب الشاعر، تصطخب بين ضلوعه، فأين المفر؟ إنَّه جهاز مرهف للالتقاط والإرسال في آن واحد فليس في مقدوره إلاَّ أن يكون الصورة الصادقة لما يكتنفه من أجواء.

استأجر (**محمد العيد**) ظاهر العاصمة الجزائرية، بيتاً له في سفح (**جبل باب جديد**) لعلَّه يجد في سكون الطبيعة ما يبدد صخب الحياة، وفي بسمتها ما ينسي الواقع المتجهم، ولكنه فتح

شباك غرفته ذات صباح، فقال لنا:

«هذه قصيدة وضعتها متأثراً بمشاهدة فقير بائس، لا يزال في مقتبل العمر، يأوي في أكثر الليالي حينما يجن عليه الليل إلى (جبل باب جديد) الذي تشرف عليه نافذة غرفتي، وفي العراء وتحت أديم السماء يقضي الليل كله» كان ذلك سنة 1930».

بـدا لـعـيـني تـاعس تـاعس
على الثرى، في الصبح بالي الثياب
جاث على الركبين، حـاني الحشا
والظهر هاوي الجسم ذاوي الشباب
فهـاج من حـزني ومن لـوعتي
كـما يهيج النـار عـود الثقـاب
ورحـت من شـعـر إلى عـبـرة
والشعـر والعبـرة جهـد المصاب
وقـمـت أدعـوه عـلى رأسـه
لـعلّني أحـظى بـبعض الجـواب
يـا أيهـا الآوي إلى حـفـرة
في سفح طود عند ملقى الشعاب
يـا أيها الهـاوي عـلى وجهـه
تحت أديم الجـو فـوق التـراب
يـا أيهـا المـلتـم في طـمـره
كـالقنفـد انهالت عليـه الكـلاب

أنـومـك الآن خـداع لـنـا
أم لك؟ أم أنك صلب الإهـاب
هـل أنـت إلاّ بشـر مـثـلنـا
أم أنت جن زال عنك الحجاب

ويفقد المنظر مدلولـه الضيق، ليندرج في مـدلول أوسـع، وتكتسي الحادثة المحـدودة تموجـات لا نهائية في خضم الحيـاة الصاخبة، وتتبخر في نظر الشـاعر اللمسـات الحسية للمنـظر، ليناجي المأساة في أوسع نطاقها، وأعمق أعماقها، ويجعل التاعس الناعس عنواناً صغيراً لها:

طـواك عسف الـدهـر في حفـرة
بجـانب الـطود كـطي السحـاب
وملت مثـل القـوس مـوتـورة
بـنبـلهـا، مشـهـورة للضـراب
منكس الـعنق إلى الأرض، من
همـك، والهم مـذل الـرقـاب
كـأنمـا شـخصـك رمـز لـنـا
فيـما نلاقي من صنـوف العذاب
كـأنمـا عـينـك في سـهـدهـا
عـين لنـا راصـد كـل بـاب
أبـعـد مـا روعتـني مصـبحـاً
يلذ لي الـطعم ويحلو الشـراب[5]

ويبدو أنَّ المأساة المريعة التي تخبطت فيها الجزائر كانت أقسى من أعصاب الشاعر الحساسة، وأن الحياة الخانقة كانت أضيق صدراً من أن تتحمل نفساً يتردد في صدر شاعر، فاستحال الانزواء يأساً، وآلت الإقامة في المحراب إلى برم من الحياة كلها، وتعلَّقت النفس بالرحيل، وأصبحت الثلاثين عند محمد العيد، نساوي الثمانين عند (لبيد):

إنَّ الثلاثين التي ناهزتها
رسل إلي من البلى ووفود
فعليك يا عهد الشباب تحية
فيحاء ما تلت العهود عهود[6]

وسبق للشاعر وهو ابن العشرين، أن تساءل عن الرحيل والحّ في التساؤل:

طال المقام بنا والدار موحشة
متىَ الرحيل بنا من هذه الدار
يا مانع الصفو أن تروى به كبد
حيرتنا بين إيراد وإصدار[7]

ليل بهيم

وخيم على (الجزائر البيضاء) ليل من الاستعمار بهيم، وأناخ الاستبداد بكلكله على الأرض الطيبة وتطاول الدخيل على الشعب الأعزل بسلاحه الفتاك، وضاقت الدار بأهلها، ونعقت الغربان عليها:

وأغرب خطب هالني خطب موطن

لنا، منعته الشمس أسراب أغرب

كما حبست عنه الرياح، وعارضت

له دون سيل القطر من كل مسرب

بـأجنحـة سـود، كـان خيـالها

ظلام بليل، قاتم الوجه، غيهب

فيـالـك فـردوسـاً تحـولت دمنة

ويا وحشتا من أغرب فيك نعب

ويـا وحشتا من محنـة نكبت بهـا

سلالة (مازيغ) وفتيـة (يعرب)[8]

وإذ أصبحت الحياة ليلاً، فلابدع أن يغدو الشاعر في ظلماتها أعمى، يواصل قرع عصاه لعلَّ رحيماً يأخذ بيده:

صبـراً على ليـل الحيـاة وطـولـه

حتى يشق من الصبـاح عـمـود

ظلمـات أمـك يـا جنـين كثيفـة

شتى، وأمـك يـا جنـين ولـود

صبـراً على ليـل الحيـاة وطـولـه

حتى يشق من الصبـاح عـمـود

من مات لا ريب استهل، فلا تخف

المـوت دنيـا، واللحـود مهـود

يـا موت خـولت ابن آدم راحـة

مـا بعـد جـودك لابن آدم جـود

في القبـر نـزل طيب، وكــرامـة
كـبــرى، وظــل وارف ممـدود
والنـاس أطهـر في القبــور جبلة
ولــو أنَّهم رمـم هنــاك ودود[9]

ولا ريب أنَّ الليل كان أشد وطأ من ليل امرىء القيس، فرمى الشاعر في أحضان هذه الأفكار القاتمة، ولا شكَّ أنَّ المأساة هي الأخرى تمطَّت بصلب، وأردفت أعجازاً، وناءت بكلكل. فقد امتدَّت إلى خنق الأنفاس، وكم الأفواه، والوقوف بالمرصاد لكل رعشة تسري في جسم الشعب ليقوى بها على النهوض. فكأنَّ هذا الشعب قدر عليه في حكم المستعمر أن يكون لحماً على وضم:

أرى الأنفــاس مــرهقــة بجــو
كمثــل الغــاز يــوسعهــا بخنق
يــدوي بــالــوعيــد دوي رعــد
ويــومض بـالـردى إيمـاض بــرق
أيــوثـق بــالأداهـم كــل كــف
ويــوطـأ بــالمنـاسم كــل عنق؟!
فمهــلاً يـا زمــان البغي مهــلاً
فقــد أعيـا كــواهـلنـا التـلقي
رحى المهجات أنت فكم تقاسي
بــك المهجـات من سحق ومحق

ورفقاً منك بالإنسان رفقاً

فما هو للهوان بمستحق

لماذا توضع الأسداد، ضرباً

على فمه، ألم يخلق لنطق[10]

وإذ أصبحت الحياة الجزائرية جحيماً، يذكي المستعمر زفيرها، وانسدت سبل العيش أمام سالكيها، وبلغت القلوب الحناجر، فلا مناص من تلمس اللقمة ولو بين فكي الأسد. وكانت فكرة الهجرة إلى فرنسا. وكأنَّ العامل الجزائري وهو يرمي بجسمه المنهوك تحت رحمة الفولاذ في مصانع فرنسا، إنَّما يردد: فداوني باللتي كانت هي الداء.

غير أنَّ الهجرة بدورها محرمة على الأهالي، ممنوعة على العامل الجزائري. فقد أراده المعمر أجيراً مسخراً له، يموت جوعاً فوق أرضه الزاخرة بالكنوز، حتى تكتمل الصفقة الرابحة على حساب عرق المواطن ودمه وحياته[11].

ولكن الجوع استبدَّ بالأمعاء، وتضورت منه أفراخ زغب الحواصل، لا يملك عائلها إلاَّ أن يرمي بنفسه في الجحيم ليفتك لقمة عيش فلذات أكباده، فأصبح سفر العامل الجزائري إلى فرنسا (**عملية تهريب**) يزج به في بيت الوقود في الباخرة، حتى لا تقع عليه عين الرقابة. يحدوه الأمل في أن تكون فرنسا من وراء البحر غيرها في الجزائر، في أن تكون (**الأم الحنون؟!**) وفيَّة لمتبنيها في رد بعض الجميل إليهم. ومن خلال الآمال البراقة المغرية

تخف وطأة الحجرة الجهنمية في الدرك الأسفل من الباخرة. غير أنَّ الحياة القاسية لا تمهل العامل حتى يلامس واقعية هذه الآمال، أو يضع رجله على مرفأ مرسيليا.

فقد سافر أربعون عاملاً جزائرياً سنة 1926 إلى فرنسا في بيوت الفحم والوقود في باخرة (سيدي فرج) (فروش) هاربين إلى فرنسا، فاختنق منهم أحد عشر عاملاً تحت وطأة اللهيب، ووصل الباقون بين الحياة والموت.

ويقدم لك محمد العيد، الحادثة المريعة بآمالها المتصاعدة المتهاوية، بظلالها الزاهية القاتمة. بما كان يساور الشعب من حسن ظن في فرنسا وليدة الحرية والإخاء والمساواة:

قسا البلد الجريح وضاق ذرعاً
بهم، فتيمموا البلد الرحيبا
وقالوا. إنَّ في باريس عيشاً
يروق غضاضة ويلذ طيبا
وقالوا. إنها تسلى المعنى
وقالوا. إنها تأوي الغريبا
وأن لها من الحسنى لحظا
وإن لنا من الحسنى نصيبا
ألسنا المخلصين لها حضوراً
ألسنا المخلصين لها مغيبا

محضناها المحبة واغتدينا
نطارحها التغزل والنسيبا
ولبينا مهيب الحرب، لما
أهاب بنا فأرضينا المهيبا

ولكنَّ موجة الأمل تصطدم بصخرة الواقع المحطم لكل أمل، الواقع الأسود الذي يطارد الجزائري حتى في عرض البحر الأبيض:

فسدت في وجوههم النواحي
مسالكها ولم ترحم حبيبا
وقامت ضجة في الغرب كبرى
تصب عليهم النقد المريبا
فكم من قائل أخشى وحوشاً
تدب بأرض (باريس) دبيبا
وكم من قائل أخشى زنوجاً
تبيح القتل، والذام المعيبا
فقل للقائمين على فرنسا
أنيبوا وارتأوا رأياً لبيبا
وقل للقائمين على فرنسا
تعالوا فاشهدوا الخطب العجيبا
جسوم في (فروش) مجدلات
تعاني تحته الغاز الرهيبا[12]

وأجسام ممزقة الحشايا
تكاد لها النواصي أن تشيبا
حديد (فروش) يفريها شظايا
وعزف (فروش) يبكيها نحيبا
وصب عليهم المقدور سوطاً
من الأرياح يستذري (عسيبا)
فحسبك أيها الخطب المفاجىء
لقد أشهدتنا اليوم العصيبا
فأبكيت الهلال به وطه
وأبكيت ابن مريم والصليبا
فسر في ذمة التاريخ خطباً
رهيباً في مسامعنا مهيبا

ويلتفت الشاعر إلى (الأم الحنون؟!)، إلى القطة آكلة أبنائها، يلتفت إليها في حساب مرير، وعتاب أمر، وذلك جهد المقل، وأضعف الإيمان:

فيا (ظئر) الجزائر، يا فرنسا
أيجدر بالجزائر أن تخيبا؟
تناويك العواصم وهي تصبو
إليك، فهل شهدت لها ضريبا؟
ويا ولد الجزائر. صن حماها
وكن براً بساحتها أريبا

ولا تخشى الـوقـاع بهـا، فـإني
رأيـت الله مـطلعـاً رقـيبـا[13]

وطوى الجزائري الأمعاء على الطوى، واكتفى من العيش بالصبابة، وولى وجهه وجهة أخرى، ربما وجد فيها بعض العزاء، ذهب يتلمس طريقاً يبلغ بها صوته إلى الحاكم المستبد يرفع بها حشرجته علّها تصادف التفاتة من قساة القلوب. وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار.

فطلعت (**النيابات الأهلية المالية**) أفقاً لأمل جديد، وتخيل المواطن (**النائب المالي**) مسمعاً لصـوت تصامم عنـه المستعمر، وتوسم فيه مندوباً عن وفد أوصدت في وجهه الأبواب فـأيده بالنفس والنفيس، وعززه بأصوات دامية: فلم تكن الانتخابات في الجزائر - بدسائس الدخيل - إلاّ مسرحاً لسفك المزيد من الدم الجزائري، وكانت ميداناً للصراع بين المستعمر المزيف، والمواطن الذي يدلي بصوته تحت دوي الرصاص، وبين النظرات الشزراء من جلادي الانتخابات، أملاً في أن يرفع على الأكتاف مخلصاً أميناً في إبلاغ صوت الشعب دون تحريف أو تمويه، صلباً في أن ينضم هو الآخر إلى مسرح العرائس التي يرقصها المستعمر.

ولكنّ الانتخابات الفرنسية المبيتة للجزائر، كانت أبعد نظراً، فقد أريد لها أن تكون مضرب المثل في التزييف، وأن تذهب مثلاً شروداً في المجتمعات الدولية. وكانت المعارك الانتخابية الدامية التي يخوض غمارها، لا تساوي عند المستعمر أكثر من صندوق

من الأوراق المبيتة يحل محل الصندوق الحقيقي.

فإذا (بالنيابات) هي الأخرى وبال على الشعب، وإذا بـ (النواب) من صنائع المستعمر يتقدمون باسم الشعب، ليكملوا فظاعة المأساة، ويمثلوا الأدوار التي يمليها عليهم ساداتهم:

أفدني برأي في النيابات هل حوت
أساود في قاعاتها، أم وسائدا
فيا نائباً ناب البلاد بحادث
فخلف شعباً قائماً فيه قاعدا
على أي ظهر كنت سوطك منزلاً
وفي أي نحر كنت سيفك غامدا
وما لك ترغى في النيابة موعداً
ألم تك من قبل النيابة واعدا
ويا مجلس النواب، إنك قاطع يداً
كنت منها ـ لو تبينت ـ ساعدا[14]

مواعيد عرقوب

أمَّا وعود فرنسا التي تسخو بها أحياناً، فلم يكن يقصد بها إلَّا تهدئة الموقف، والحد من غلواء الهيجان الشعبي، وقد يقصد بها استرضاء الشعب واستدراجه لمساعدة الدولة في أزمة ماسكة بخناقها. كالوعود التي تطلق عادة عند تجنيد الجزائريين للحروب التي تخوض فرنسا غمارها لقد كانت هذه الوعود بمختلف صيغها ومناسباتها برقاً خلباً لا يحمل للأرض الجدباء إلَّا التعلل بالأماني

الكاذبة، وإنَّ من أعمق الأسباب في فقد الثقة في فرنسا، وعودها التي لم تكن ذات مدلول واقعي في يوم من الأيام.

قال محمد العيد:

ما للحقوق إلينا غير واصلة
وقد سمعنا بها من منذ أزمان
هل عاقها البحر عنا، فهي عاجزة
عن قطع ما فيه من لج وشطآن
أم راقها البحر حسناً، فهي سابحة
تلهو بما فيه من در ومرجان
أم ألحقت ببنات البحر، فاحتجبت
عن كل قاص من الرائين، أو دان
يا باحثاً ممعناً في كشف حالتنا
إلى متى أنت في بحث وإمعان؟
إلى متى أنت منا خائف حذر
كأننا في البرايا (جنس غيلان)[15]

وبقدر ما كانت هذه الوعود مجالاً للتذكير المتوالي من المواطن المتعطش إلى بصيص من واقعيتها، كانت من جانب فرنسا ميداناً للمراوغة والمماطلة، ومثاراً للمكامن المكبوتة.

يا (وفد) ذكر فرنسا
عهداً تقادم عهدا

قـل: مسنـا الـضـر قبـلا
وخـانـنـا الـصـبـر بـعـدا

مـتى تـفـين بـوعـد
يـا أعـذب الـنـاس وعـدا

لا بـدَّ أن تمـنـحـيـنـا
مـا لا نـرى مـنـه بـدا

فـكـم وسـعـنـاك بـراً
وسـعـتـه الـيـوم جـحـدا

وكـم ظـلـمـنـا، فـقـلـنـا:
لـعـلَّ لـلظلم حـدا

فـخـفـفـي الحـجـر عـنـا
إنـا نـضـاهـيـك رشـدا

إنـا نـقـاضـيـك ديـنـاً
قـد آن أن يـسـتـردا

حـقـاً لـنـا مـنـك يـقـضـي
لا نـعـمـة مـنـك تـسـدى[16]

ويمتد نفس المطل، وتحتد معه صيغة الاستفهام، حتى أنك تتخيل وراء كل نقطة استفهام بركاناً ينذر بالانفجار:

متى تـوفى الـوعـود؟ فقـد مللنـا
تسـاؤلنـا: متى تـوفى الـوعـود!

أصـابتنـا الجـوائـح والـرزايـا
وأعـوزت المـرافـق والـرفـود

حنت أعناقنا الأغلال ظلماً
وحزت في سواعدنا القيود
وأعلنا المظالم والشكايا
فأخفتها الدسائس والكيود
وأنغضت الرؤوس لنا هزوءاً
وإنكاراً، وصعرت الخدود
ألم نوسعك في العظمى جهوداً
ألم تحم الحمى تلك الجهود؟
فما هذا التجاهل والتناسي
وما هذا التنكر والجحود؟
فسوسي المسلمين بكل عدل
وخلي ضيهم فهم الأسود
لهم في مقبل الأيام شأن
به يتمخض الزمن الولود[17]

وينزع الشاعر عنه ثوب الوقار، ويخلع عنه رداء العزلة، ليواجه فرنسا في حساب عسير ويتطور من الاستفهام إلى مكاشفة الحساب، ومن التساؤل إلى الإنكار، ومن الرجاء إلى ما يشبه الأمر الصارخ:

ليس حقاً، أن تحرمي الشعب حقاً
لقي النار دونه والحديدا
ليس حقاً أن تستريحي، ويشقى
ليس حقاً أن تسكني، ويميدا

ليس حقاً أن تستجدي، ويبلى
ليس حقاً أن تخلدي، ويبيدا
يا فرنسا. ردي الحقوق علينا
وأتلي الأذى، وكفي الوعيدا
نحن رغم الطغاة في الأرض، أحرا
ر، وإن خالنا الطغاة عبيدا[18]

بعث جديد

أصبح لزاماً على الشعب أن يعيد النظر في نفسه وأن يقطع الأمل في أي إصلاح لحاله يأتيه من فرنسا، وراح يتلمس بين جنبيه نفساً عصامية، تبعثه من جديد في دنيا المتناقضات وتخلقه خلقاً جديداً في حياة دخيلة كادت تعمي كل المقومات الأساسية للشعب، وتطمس معالمها.

فاتجهت العناية إلى بعث الذاتية الأصيلة، وإذكاء النخوة والاعتزاز بها، وإن أصبحت في مهب العواصف. إنَّ التاريخ القومي الذي أقام المستعمر بينه وبين أبنائه سوراً من حديد، من تزييف للحقائق، وتشويه للمفاخر، وغزو لها بتاريخ فرنسا وإبطالها. هذا التاريخ يجب أن ينشر من جديد بيد مخلصة وفكر نزيه. إنَّ الناشئة في الجزائر تعرف كل شيء عن تاريخ فرنسا، وتجهل كل شيء عن تاريخها، حتى وهنت الرابطة بين النشء وأسلافه، إلى درجة أن أساء بهم الظنون:

يـا حماة البـلاد، يـا فتيـة الضـا
د، ترى هل لكم من الرأي مغني
سار أجواركم مع العصر شـوطاً
وبـقيـتم مــا بــين وهــم ووهن
أين منكم مـهـابــة وانتـصــاف
أم سـكنـتم إلى احـتقــار وغـبن
لا تقـولوا: هـان الجدود، فهنـا
ســاء نشء لهم بــه ســوء ظن
في (تلمسان) في (بجاية) في (تيـ
ـهرت) في (القلعة) ازدهى كل فن[19]
دعموا البر، دعموا البحر، بـالأ
عـلام، من منشآت مـدن وسفن
ثم نيــطوا من الـظروف بمخــز
وأحيــطوا من الصــروف بمخـن
فـإذا العيش حـالـك مثـل ليــل
وإذا الربع مـوحش، مثل سجن
وإذا الأرض قفــرة، وإذا الجـو
مـعمـى، تــظله سحـب حــزن
وتقضى ملك الجــدود، فلم يبـ
ـق، بـأيـدي البنـين غـير التمني
يــا لمجـد مضيــع، غــير مجـد
عض كف عليـه، أو طرق سن

والفخر بالأمجاد في دنيا الاستعمار، دعوى تحتاج إلى برهان وأي برهان، تفتقر إلى التذكير المتوالي، فقد علق بالأفكار وضر ثقيل، والتوت الظنون في عزَّة الشعب وأصالته، فاحتاج الصباح إلى دليل:

وإنـــا لـشـعـب، يعـلـم الله أنَّـــه
كريم حصيف الرأي، مرتفع الكعب
سليـــل جـدود نـــابهـين، أعـــزة
مغاوير شوس، كالضراغمة الغلب
ولكن. عثا الحدثان في الشعب طاغياً
عليه، كما تطغى السيول على العشب
فأصبح مغبوناً من العيش مـرغماً
على الهون، مرهوناً كيوسف في الجب
وغاب عن الأبصار، لولا مخايـل
تلوح كومض البرق من خلل السحب[20]

ولا يزال محمد العيد يعزف عـلى الوتـر الحساس، ويجس النبض بيـد صناع، ويـلامس القلب بخبرة الـطبيب المـاهـر. وينتصب في تحد وكبرياء بتاريخ وطنه المجيد:

عـدمنا الـرشد في الـدنيا، كـأنـا
فـلول معــارك، وغــواة طــرق
ولـــو أنـــا عـــلى الحـق اتفـقـنـا
لـكـنـــا ســـادة الـــدنـيـــا بـحـق

أتسبقنا الشعوب إلى المعالي
ألسنا قبلهم أحرى بسبق؟
ألسنا بينهم خير البرايا
سماحة ملة، وزكاء عرق؟

وتحت تأثير هذه الوخزات، سرت في الشعب رعشة الحياة، ونشط من عقال الغيبوبة وراح يستجلي معالم طريقه في كل ميدان، ويناجي آماله بكل لسان، وانتفض انتفاضة (**الإصلاح**) لكل مزيف بفعل الدخيل. يلاحق الأفكار المضللة (**بالنوادي الثقافية**) ويحضن الجيل المشرد (**بالمدرسة الحرة**) ويفتح من (**الصحافة**) ميداناً للصراع العقائدي، بين مقومات الشعب الأصيلة، وسموم الثقافة الدخيلة، وانتصب عملاقاً بمقوماته في مهب العواصف، أبياً بأمجاده في دنيا السخرية والإهانة، وطاول زمناً باللسان والقلم، وصاول بالصحيفة والمنبر، فلم تلبث (**عصاميته**) القديرة في ميدان القول، أن فتحت له طريق العمل:

شرع الكلام إلى مدى
يا قوم. فالعمل العمل
الشعب منحل العرى
خزيان، مختلف العلل
صاد، وليس به صدى
ثمل، وليس به ثمل
ضربت على يده القوى
وفشت بجانبه الحيل

لـبـلائـه ذعـر الـورى
وبـصـبـره ضـرب المـثـل
مـن لـلجـزائـر، يـفـتـديهـا
الـيـوم من سـفـه الـسـفـل
يـا مـشـهـريـن مـن الـعـزائـم
مـثـل مـرهـفـة الأسـل
خـوضـوا بهـا الأمـواج، واعـ
ـوا الـشـهـب واقـتـلعـوا الـقـلل
مـن قـال. جـلٌ عـدوكـم
قـولـوا لـه. المـولى أجـل[21]

المعجزة تتحقق

وكانت التنظيمات السياسية تعزز في السر، ما يدعو إليه الإصلاح في شبه العلن ومهدت الدعوات الإصلاحية الأرض لبذر بذور الانتفاض، وفتحت الأفكار لقبول (بدعة) الحرية والاستقلال. وبرزت لفظة (الحرية) إلى الوجود، ولكن بوجه مقنع، فالحياة المكبلة لا تحتملها سافرة. فاكتست الحرية اسم (ليلى)، ورفرفت (ورقاء) تارة، وأخرى غردت (هزاراً). ومن خلال الأسماء المستعارة، وبلسان العاطفة، ناجى المواطن عشيقته، وبثها أشواقه، ولاحقها في كل زاوية، علة يحظى بوصل. ولكن عين الرقيب لا تزال ساهرة، فآب التائه الحيران برجع الصدى:

أين (ليلاي) أينها
حيل بيني وبينها
هل قضت دين من قضى
في المحبين دينها
أصلت القلب نارها
وأذاقته حينها
مذ تعرفت سرها
وتعشقت زينها
روعتني ببينها
لا رعى الله بينها
فتعلقت بالطيوف
اللواتي حكينها
وتعلقت بالمنى
فتبينت مينها
ما لـ (ليلاي) لم تصل
مهجات فدينها
وقلوباً علقنها
وعيوناً بكينها
إيه يا عيني اذرفي
لن ترى بعد عينها
السماوات والأراضي،
جميعاً نفنيها

كـم تـسـاءلـت سـالـكـا
أنهجـا مـا حـويـنهـا
لم يجـبـني سـوى الـصـدى:
أيـن لـيـلاي أيـنهـا؟[22]

ويئس الشاعر من العثور على (ليلاه)، ورضي من الغنيمة بالإياب، وراح يطلب (تورية) أخرى في مناجاتها ومناغاتها، ويقرب النعوت والأوصاف، حتى التقى بها (ورقاء) مجنحة، ولكنه لقاء بعيد، فالرقباء أشد ما يكونون تيقظاً وحراسة:

ولقد شجت قلبي وهاجت عبرتي
(ورقـاء) في شـرف بعيـد عـال
حمراء، حرر جيـدها من طـوقها
في الـورق، فهي عديمـة الأمثال
هتفت، فقمت مجاوبـاً لهتـافهـا
ولحنت عن قصد، فقلت: تعالي
شـرقيـة في الـطير، أو غـربيـة
مـا دمت واصلة، فلست أبـالي
والهفتـاه عليـك، حسنـك فـائق
وهـواك ممنـوع، ووصلك غـالي
من كان في العشاق باسمك ناطقاً
فـكـأنمـا هـو نـاطق بمـحـال
قـد أحدق الـرقبـاء والعـذال بي
ويـلي من الـرقبـاء والـعـذال

عـز اللقاء، ولست منـك بيائس
فلعلَّ بعد البين قرب وصـال[23]

ويوم كان محمد العيد يبث هذه الأشواق (لورقائه) ويستجير من الرقباء والعذال كانت الأيام تقترب من 1954. وكانت المعجزة المبنية في الظلام تزحف إلى قمم (الأطلس) لتحقق الوصـل، وتجعل اللقاء لقاء خالداً، وترمي بالرقباء والعذال في عرض البحر من حيث أتوا وتدفع ضريبة لذلك مليون ونصف مليون شهيداً. ومن طلب الحسناء لم يغله المهر.

فما لبث (محمد العيد) أن عانق (ليلاه) و(ورقاءه) و(هزاره) في علم جزائري حر خفاق.

ويـا علمي تحيا عـلى رأس أمتي
شعار كفاح تسحب الذيل بالفخر
وتـاج لجـين شـده بـزمـرد
هلال شموخ، زانه كوكب دري
ويـا علمي تحيـا بـأجـواء أمتي
وآفـاقهـا بـدراً يتيـه عـلى البـدر
تسـير عـلى أضـوائـه مستـدلـة
على الهدف المنشود بالأنجم الزهر
ويـا علمي إني أرى بـك عـالمي
بدا بعد ما أخفته عني يد الستر

فأنت حياتي أنت روحي وراحتي
وراحي وريحاني ويسري من عسري
وأنت صدى عزمي وأنت ندا يدي
وأنت هدى قلبي وأنت مدى عمري
أحييك من قلبي بما أنت أهله
تحية عذري الهوى، صادق العذر
يذوب اشتياقاً للعناق وطيبه
ولكنه مستعصم بعرى الصبر
رآك رفيعاً فاحتفى بك واكتفى
برفع يد حتى اشتفى من لظى الجمر

هوامش المراجعة

(1) ولد محمد العيد في بلدة (العين البيضاء) شرقي الجزائر سنة 1904. قضى سنتين في جامع الزيتونة بتونس، ورجع منه وعمره عشرون سنة. وكوّن نفسه بطريقة عصامية وقضى حياته معلماً حراً في مدارس (جمعية العلماء) وتوفي بمدينة بسكرة سنة 1975 ترجمته في: شعراء الجزائر في العصر الحاضر. محمد الهادي السنوسي ج 1 المطبعة التونسية 1936.
محمد العيد رائد الشعر الجزائري الحديث أبو القاسم سعد الله. دار المعارف 1961. الطبعة الثالثة. الدار العربية للكتاب. المؤسسة الوطنية للكتاب 1984

(2) القصيدة في (شعراء الجزائر)

(3) القصيدة في مجلة (الشهاب) ج 3 م 9 مارس 1933

(4) القصيدة في مجلة (**الشهاب**) ج 2 م 11 ماي 1935

(5) (**الشهاب**) ج 11 م 6 ديسمبر 1930

(6) (**الشهاب**) ج 8م 9 جوليت 1932

(7) (**الشهاب**) ج 9 م11 ديسمبر 1935

(8) القصيدة في (**الشهاب**) ج 1 م8 جانفي 1932. و(مازيغ) بن كنعان بن حام إليه يرجع أصل البربر في الجزائر. انظر (**كتاب الجزائر**) أحمد توفيق المدني ص 97 ط 2 دار المعارف 1963. وانظر مجملاً لآراء المؤرخين في أصل البربر في (**تاريخ الجزائر في القديم والحديث**) مبارك بن محمد الهلالي الميلي. ج 1 ص53 ط2 بيروت 1963

(9) القصيدة في (**الشهاب**) ج 8 م 9 جوليت 1933

(10) القصيدة في (**الشهاب**) ج 5 م 11 أوت (**أغسطس**) 1935.

(11) أصدر قانون منع الهجرة إلى فرنسا م شوطان وزير الداخلية الفرنسية آنذاك. وتاريخ صدوره 8 أوت 1924

(12) (فروش) لغة في (فرج)، بالفرنسية. وعلى شاطىء (سيدي فرج) نزلت الحملة الفرنسية لاحتلال الجزائر.

(13) القصة والقصيدة في (**شعراء الجزائر**).

(14) القصيدة في كتاب (**محمد العيد**). أبو القاسم سعدالله ص 210 دار المعارف. 1961. قيلت القصيدة في سنة 1933

(15) القصيدة في محمد العيد ص 222

(16) القصيدة في المرجع السابق. ص 213. قيلت بمناسبة سفر الوفد المنبثق عن (**المؤتمر الإسلامي**) إلى فرنسا سنة 1936

(17) القصيدة في (**الشهاب**). ج 6 م 13 **أوت** 1937.

(18) القصيدة في (**الشهاب**). ج 4 م 12 جوليت 1936

(19) (**تلمسان**) من أعظم المدن الجزائرية ذات الطابع العربي الإسلامي، وقد بلغت أوج حضارتها في عصر بني زيان. وفيها يقول الشاعر ابن خميس:

تلمســان. لـو أن الـزمـان بهـا يسخـو

مني النفس، لا دار السلام، ولا الكرخ

(**بجاية**) عاصمة دولة بني حماد، وقلعة العلم أيام ازدهارها انظر (**كتاب الجزائر**). أحمد توفيق المدني. ص 184.

(تيهرت) عاصمة الدولة الرستمية. المرجع السابق. ص 192. (القلعة)

قلعة بني حماد. المرجع السابق. ص 218

(20) القصيدة في (**الشهاب**) ج 6 م 7 جوان 1931

(21) القصيدة في (**الشهاب**) ج 11 م 9 أكتوبر 1933

(22) القصيدة في (**الشهاب**) ج 7 م 14 سبتمبر 1938

(23) القصيدة في كتاب (**محمد العيد**). ص 212.

الثَّورَة الجَزائريَّة في الشِّعْر العَربي المَعاصِر

تجاوبت قلوب كل العرب مع الثورة الجزائرية منذ انطلاقها، فكان كل حادث يجري فوق أرض الجزائر يهز مشاعر كل عربي من طنجة إلى بغداد. وإذا تجسَّدت هذه العواطف العربية الأصيلة في الإضرابات الشاملة والمظاهرات الشعبية الكبرى التي امتدت من المحيط إلى الخليج، وتجسَّدت أيضاً في المساعدات المادية والعسكرية للثورة. فإنَّ الشعر العربي قد عبر أصدق وأروع تعبير عن مشاعر العروبة نحو ثورة نوفمبر الخالدة.

لم تزل الثورة الجزائرية مهوى الأفئدة، وملتقى العواطف مهما تلونت، وقبلة النظريات السياسية المختلفة تأتيها متنافسة، وأحياناً متناحرة، فتنصهر في بوتقتها لتنبعث من جديد عاطفة موحدة، أو نظرية سياسية لا تقبل التجزئة، تسمو عن المنازعات الضيقة، لخدمة الإنسانية المضطهدة على أرض الجزائر.

وقد كانت الثورة الجزائرية بالنسبة للعروبة، صدى مدوياً لما كان يجيش في قلب الشعب العربي، وتجسيماً رائعاً للآمال الصاخبة في الجماهير العربية وتجميعاً للأماني المتبخرة بالضربات المتتابعة الموجهة للشعب العربي. ولم تزل العروبة الطعينة في الوطن السليب، والبطولة العربية الجريحة بضياع فلسطين والكرامة

العربية المداسة، بتشريد مليون عربي لم تزل هذه العثرة الدامية، منذ سنوات. تتلمس أين تجد إقالتها وما انفكت هـذه الكبوة الجريحة تنتظر الفروسية الحازمة، التي تشد على العنان ببسالة، وتشفي غليل الثأر الصارخ، وكلما لاحت بارقة أمل، كانت برقاً خلباً، سرعان ما يتلاشى، وتعود الخيبة المريرة إلى سابق عهدها، تتلمس الجرح من جديد، وتعلل النفس بالأمل. ولم يكن تعلق العرب باسترجاع فلسطين، أقوى من تعلقهم باسترجاع الهيبة المندحرة لعروبتهم في فلسطين. ولا أشد حرصاً، من إنقاذ الصفحة الناصعة المعفرة بالتراب المغتصب، والملطخة بالدماء المهدورة، ولهذا لم يكن الطرف العربي الحسير، يتعلّق بأفق معين، لإشراقة آماله، وحتى اللاجىء الفلسطيني، بل العائد، لم يكن تلفته إلى القرى، ومرابع الطفولة التي أبعد عنها في فلسطين أكثر من تلفته لأي أفق عربي، يبشره بفجر جديد إن لم يحمل في واقعه رجوع فلسطين. فهو يختزن في طياته الآمال، الضامنة لرجوعها في يوم قريب.

* * *

الأطلس مشرق الأمل

وأراد الله للأطلس، أن يكون مشرق الأمل، ولشهر نوفمبر 1954 أن يبزغ علينا بعهد جديد للعروبة، والعروبة وإن كانت جريحة هي بدورها في هذا الوطن العزيز، دامية الجرح، طعينة غائرة الطعنة لكن الثورة هنا، لم تكن في سرها، تحمـل الثأر

للعروبة الإقليمية، بقدر ما حملته بسعة صدر، للعروبة في أي وطن عربي. بل إنَّ من الأسباب الرئيسية للثورة هنا، هذه القطيعة التي أراد المستعمر أن يفرضها بيننا وبين أشقائنا العرب. وبيننا وبين مقوماتنا الأساسية، التي هي صلة الرحم بيننا وبينهم، وما فرنسة الشعب، أو مسخ مميزاته، أو تلويث لغته إلاَّ محاولات جنونية، لإبعاده عن الركب العربي، لذا كان من الطبيعي أن تكون الثورة الجزائرية، حنيناً إلى الأصل ورجوعاً إليه.

ولم تكن الثورة، في حاجة إلى وقت، لتركيز دعايتها في المشرق العربي، ولا في فقر إلى مجهود، لاحتلال مكانتها في القلوب العربية، لأنَّ القلوب نفسها كانت متفتحة في أهبة لتلقي مثل هذه الانتفاضة، بل في تشوق واستطلاع لمعانقة وتقبيل هذه الجبهة السمراء الثائرة، بل ربما قلت: إنَّ الجماهير العربية يومئذٍ، كانت تعاني من طول الانتظار، وكان الطرف العربي الكسير الذي كفكف دمعه في الثورة العربية المصرية المظفرة سنة 1952، والتي كانت ردّ الفعل المباشر لنكبة فلسطين، بعد هذه الثورة البيضاء في المشرق كان الطرف العربي تجذبه انتفاضات حمراء في مراكش وتونس، جنح بعدهما بالنظر إلى الجزائر، مترقباً الطلعة الصاعدة على الأطلس الأوسط، وفي اعتقادي أنَّ هذه الطلعة الثائرة، كانت ملء العين والقلب، توسم الشعب العربي، فيها نصفية الثارات المهدورة، وجبر الأجنحة المهيضة، والقلوب الكسيرة، فكان تسابقه إلى مساعدتها، غير مكبل بقيد وشرط. وفي طرفة عين وجد الشعب العربي نفسه، في ساحة حرب

وميدان شرف، إن حدد جغرافيا بالأطلس الأوسط، فلن يحده قومياً وشعورياً، إلاّ الخليج العربي شرقاً، والمحيط الأطلنطي غرباً، بل لن تقلّه إلاّ أرض آسيا وإفريقيا ولن تظله إلاّ سماؤهما.

قال الشاعر العربي المصري محمد السيد الشريف في قصيدة بعنوان «إلى أخي في الجزائر»:

أنا، يا شقيقي في الجزائر
ثورة ترعى كفاحك
تغلي ضفافي الحانيات
هنا، إذا سمعت جراحك
ويفيض نهري، باللظى
المشبوب، يودعه سلاحك
أجلو مع الأحرار في
الشرق الكبير، هنا صباحك
وأصون في أرض البطولات،
انتفاضك واجتياحك

* * *

أنا، يا أخي، خلف
انطلاقات الأباة إلى الجزائر
وبجانبي، السورى
واليمني، تحدونا البشائر

مكن لقبضتك القوية

إن خلفك كل ثائر

يضري ضفاف الرافدين

ويستحث لك العشائر

ويشد في القومية الكبرى،

التي نمت الأواصر

* * *

أنا، يا شقيقي في الجزائر،

في فلسطين الشهيدة

أنا، أيها الحادي خطى

بعثي بصنعاء المجيدة

أنا، أيها اللحن، الذي

صاغ السلام به نشيده

أنا، أيها البعث، المحلق

فوق إفريقيا المجيدة

حطمت قيدي، وانطلقت

إلى معاركك الجديدة

* * *

إنَّ الشعر العربي، باعتباره ترجمان الأحاسيس العربية، ومقياس حرارتها، كان يعاني بدوره، من أثر الصدمة في فلسطين، ولعلَّ الشعر العربي في مختلف عصوره. لم يعرف نكبة نكست

رايته، وأخرست شـدوه، وصارت أنغامه نواحاً مثل ما قاسى وعانى في الوطن السليب، وقد كان يأمل وهو يدخـل معركـة فلسطين، أن تعيد إليه تاريخ «عمورية» بل تاريخ قصيدة أبي تمام البائية في فتح «عمورية» ولكن للأسف الشديد، أعادت فلسطين تـاريخ سقـوط بغداد، وضيـاع الأندلس. إنَّ ضيـاع الأندلس الفردوس المفقود، كان صرخة جريحة في الشعر العربي. تقطع الأكباد لكن لم يبك الشعر العربي الأندلس، بمثل ما بكى به ولم يزل فلسطين السليبة، كانت الموضوعية الدامية الجريحة للشعـر العربي، تنبع في فلسطين نبعاً لا نضوب له، موضوعية مأساتية لا أوَّل لها ولا آخر، وبقدر ما ناء كاهل الشعر العربي بهذه المأساة كان يعاني فراغاً مهولاً في الموضوعية المتوثبة، المرفوعة الرأس. المنطلقة الصرخة التي تضمد الجراح الغائرة، وتلملم الفلذات الممزقة.

* * *

أوراس منبع الإلهام

وأراد الله للأطلس أن يكون منبع الإلهام للشعر العربي، ومنطلق الصرخة الصاعدة من قصائده، وأراد الله أن تكون هذه الثورة بيت القصيد في الشعر العربي في المشرق، وأرادت العروبة الكامنة في هذه الربوع أن ترفرف عروس الإلهام الشعري على قمَّة أوراس، وعلى قمم الأطلس. فلا بدع أن يستمد الشاعر العربي المصري المجدد أحمد عبد المعطي حجازى أن يستمد شعره

ووحيه من قمّة «أوراس» فيقول في قصيدة بعنوان: «قولي يا أوراس»:

يا ينبوعاً يغسل عار الماضي
يا كفا، تبني أنقاضي
قولي، يا حارسة الأبناء، وهمو لازالوا في الغيب
يا نور العرب على طول البحر الأبيض، يا أمني، يا فخري
يا ملهمتي شعري
يا أوراس

* * *

لقد كان الإلهام الشعري، النابع من قمم الجبال الجزائرية غزيراً، غزارة الدم المتدفق على صخورها، وكلاهما موطن العجب من أحمد حجازي بل من العالم كله.

يا مغـرب، يا مغرب
من أين أتيت بكل ضحاياك
هل أنت معين رجال لا ينضب؟!
إن العالم، كل العالم، يعجب
من أينِ أتيت بكل ضحاياك
لك منّي ملحمة كبرى
يا من، ستكون إلى (يافا) أوّل عائد
يا من، ستخط على قمة (أوراس) اسمك واسم الشعب الخالد

لك منّي ملحمة كبرى.
ولكل شهيد أغنية.

حقاً إنَّ لكل شهيد أغنية. ترددها ملايين العرب، بل ملايين الأحرار في العالم، ولو ذهبنا نجمع ما قيل من شعر عربي في الثورة الجزائرية، لما وجدنا في تاريخ الشعر العربي، شعراً تناول ثورة واحدة، بأوفر ما حظيت به ثورتنا، من أهازيج الشعراء وأغانيهم العذبة يقول صالح الخرفي:

وعلى الألسن الجزائر كانت
عثرة في بيانها لن تقالا
ثمَّ أمست فصاحة وبياناً
وجرت في الشفاه ماء زلالا
أي طرس بحسنها ما تحلى
وكتاب ما صاغ منها مقالا
ساجلت صاحب القصيد، فغنى
وتملى بها الخطب. فقالا

وكان الشعر العربي، صدى لنبضات كل قلب ثائر في هذه الديار، كان الشعر العربي في ضفاف النيل، صدى لوقع أقدام الثائر في جبال أطلس، وكان على ضفاف (بردى) صدى لدوي الرصاص في قمة «أوراس» وكان على ضفاف الفرات اللسان المترجم، عن الأحاسيس المضطهدة بأساليب التعذيب في أعماق «بربروس» وكان الشعر العربي، في خيام العائدين الفلسطينيين

ترجيعاً وتجاوباً صادقاً مع آهات وجراحات اللاجئين الجزائريين في الحدود التونسية والمغربية.

نيل مصر، لو استطاع لجاب
البيد شوقا إليك يغزو الرمالا
علّه بالنمير يطفي غليلاً
في يتامى ورضع، وثكالى
وحليباً ينساب في فم طفل
حرم الثدي فاستمات هزالا
برعم القطن، كم يحن لتضميد
جروح، تشكت الأغلالا
(بردى) كم يحن أن لو تراه
أحمراً من دما عدوك سالا
سال شهداً على شفاهك يا شعبي
وصابا على الطغاة استحالا
وخرير الفرات، رجع حنين
ليتيم، بكى أباً مغتالا
وعلى الكعبة الحرام دعاء
يا ابن شعبي بنصرنا قد تعالى
واستثر (ليبيا) تجبك بشعب
قطع العهد في فداك وآلى
أنت قلب، له مراكش والخضرا
ضلوع ترد عنه النصالا

التمازج الروحي
بين الشعر والثورة

ونلاحظ في الشعر العربي، الذي تغنّى بالثورة الجزائرية، تمازجاً روحياً فريداً في نوعه وصدقاً في التعبير عن الشعور الكامن هنا، أو الناطق بلغة الرصاص، وكأنّ البطولة هنا كتب عليها أن تعمل، وكان على الشعر العربي أن يقول ويصف ويسجل للتاريخ. والشاعر العربي، لا يضيره أن يكون بعيداً عن مسرح المعركة الحية الأمر الذي يبدو مخلاً بالواقعية التي يحتمها صدق التعبير لأنّ الشاعر كان يغرف من نبع إيمانه، وفيضان شعوره، بل إنّ البطولات المعجزة التي دارت في هذه الربوع فتحت أمام الشعر العربي آفاقاً لا نهائية من الخيال، وأطلقت العنان للجموح التصوري والتصويري. فمهما طمح الشاعر العربي بخياله في وصف المعارك والمواقف. فقد كان مقتنعاً في قرارة نفسه. بأنّه دون الواقع الصاخب في أرض الجزائر، بل إننا نلاحظ مظهراً لتناسخ الأرواح، في القصيد العربي الناطق باسم الثورة الجزائرية. فالشاعر في أقصى المشرق لا يخاطب أخاه الثائر في سفوح الأطلس أو قممه مخاطبة البعيد، ولا يلوح له بالمنديل، من برج عاجي شعري يتربع فيه، بل لا يرضيه إلاّ أن يتقمّص شخصية الثائر وشعوره وأحاسيسه، ويصدع بها قصيدة مدوية، صاعدة من مسرح البطولات هنا، لا تحية موجهة من هناك فالشاعرة العربية السورية عزيزة هارون لا توجه شعورها

وأحاسيسها إلى واحدة من بنات جنسها في جيش التحرير الجزائري، بل لا يرضي نخوتها العربية، وشعورها الراسخ بوحدة المعركة، إلاَّ أن تكون هي نفس الفتاة المرابطة في جبال الأطلس إن لم يكن واقعاً بالنسبة لها، فهو واقع بالنسبة لجزء منها ومن عروبتها بالنسبة لأختها العربية الجزائرية، وتلقي عزيزة هارون الشاعرة السورية قصيداً في مهرجان الشعر بدمشق بعنوان: «فتاة في جيش التحرير»:

أشعلت من زهو البطولة ناري
ورسمت في إشعاعها أقداري
بين السهول، يلفني إعصارها
وعلى الجبال يلفني إعصاري
الليل. كيف تخيفني أشباحه
من بعد ما حملته أسراري
حررت نفسي والقيود ثقيلة
فكسرتها، ومشيت مع إصراري
وعشقت أخطار البطولة طفلة
ولقد عرفت النصر بالأخطار
طوقت خصري بالرصاص أشده
وجعلته من لوعتي زناري
والبندقية في يديّ بنيتي
مختالة في عزة وفخار

هي لن تجوع، فزادها متوفر
عندي، وإن تك نارها من ناري
أأحن للأزهار حول أريكتي؟
والعز ينبت من دم الثوار
وعذوبة الآمال، تشرق في دمي
ومنى الجهاد، تعيش في أغواري

والثورة في نظر عزيزة هارون ليست تحريراً لديار جزائرية أو مغربية ولكنها انتصار لديار يعرب أنى وجدت وتطهير لها من دنس الغاصب، وإن تصدى الغاصب لهذه الديار بالتحطيم والهدم، فلن يكون إلاَّ حطاماً لها، ولن تهوي إلاَّ على أم رأسه وهو في عداد أنقاضها. الشاعرة عزيزة هارون، الفتاة في جيش التحرير بالشعور مؤمنة ببطولتها اليعربية، بشمائلها، بروحها بإحساسها العربي، متمردة على الأوضاع متجاوبة مع الموجات الثائرة في كل بقعة في العالم، ضدَّ المستغل لأخيه الإنسان، وفي وجه العابث بكرامة البشر:

هذه الديار، ليعرب ولرهطه
لا للعدو الفاتك الغدار
وإذا الديار هوت بقبضة غاصب
حطمت فوق الغاصبين دياري
أحيا على الثارات تبعث أمتي
وتشيد صرح كرامتي وفخاري

آمنت بـالأعمار تبعث في الـذرى
وتـضيـف أعمـاراً إلى أعـمـار
أوراس تنبض بـالبـطولـة والفـدا
أسمعت من أخبـارهـا أخبـاري
إني بمعـركـة الفداء، ولـن تـرى
إلا عـلى ألق الـضحى. آثـاري
لم لا أثـور وكـل شـيء ثـائـر
ضجت بـراكيني وضـج سعـاري
عـربية أنـا، بـالشمـائـل والتقى
بـالـروح بـالإحسـاس بـالأفكـار
إيمـان يعـرب بـالبـطولـة والفـدا
في الأرض في الأزهـار في الأثمار
لم أثـور؟ وكـل شـيء ثـائـر
ضجّت بـراكيني وضـجَّ سعـاري
اتهـان في سجن الدخيـل حـرائـري
ويـذل في أعـمـاقـه أحـراري
أنـا ثـورة الـدنيـا عـلى آلامها
أنـا نقمـة الـدنيـا عـلى الأشـرار

لا أشك في أنَّ عزيزة هارون كانت مرآة صادقة لما يجيش في قلب الفتاة الجزائرية، ولو تصدَّت بنت الأطلس لوصف شعورها لما صورت أحاسيسها بأصدق وأبدع من هذه الأبيات التي لا

أخاها إلاَّ فلذات كبد متطايرة، وصعداء قلب جريح بـل إنَّ المنطق العربي الفصيح هنا، والذي عبث به المستعمر، ولوثه بلغته الدخيلة، لم يعدم منطقاً فصيحاً في المشرق العربي معبراً عنه، وعن أحاسيسه المحتبسة، فهل هي صورة لتكامل بعض هذا الشعب العربي ببعضه الآخر؟

أمَّا أحمد حجازي الشاعر المصري السابق ذكره، فإنَّ له أختاً سمراء تشربت السمرة من ضفاف النيل ومزارع القمح إنَّه ضنين بأخته، يعز عليها أن تتغرب لكنه يتشرف بأن يزفها إلى واحد من أبناء الأطلس، وقف طويلاً على قمة أوراس يصنع التاريخ، إنَّه فارس الأحلام لكل فتاة عربية:

أختي نبتة في وادي النيل
شربت بشرتها نوراً، شربته الحنطة
وأنا أهواها، وأخاف عليها أن تتغرب،
لكن، سأزوجها لفتى من فتيانك يا أوراس
وقف طويلاً فوق القمة
عند الخط الفاصل بين الموتى والأحياء،
ورأى ألف نهار، ورأى ألف مساء،

والدكتورة (**طلعت الرفاعي**) الشاعرة السورية، لا ترضى أنوثتها الثائرة هي بدورها، إلاَّ أن تكون سجينة في أحد سجون الجزائر، ولكي يتم لها الإطار الشعري المؤثر يجب أن تكون مخطوبة وخطيبها بعيد عنها، حتى يكون البعد ذريعة للمراسلة،

وتكون المراسلة طريقاً لتصوير الشعور وبث العواطف الجياشة في أعماقها وأعماق السجن الذي يأويها. قالت الدكتورة طلعت الرفاعي في رسالة من السجن إلى خطيبها:

أنا، ها هنا، من غرفة في
السجن مظلمة رهيبة
هذي السطور، أخطها، في
صمت وحدتي الكئيبة
قد كان في وسعي، احتمال
البرد فيها والرطوبة
لولا أنين الجرح في نفسي،
وأناته رتيبه

* * *

وتتوارد على طلعت الرفاعي نقط استفهام وتعجب، وتكشف عن صراع نفسي، بين البشرية القنوعة المسالمة، وبين المبادىء، والرسالة المقدسة للإنسان على هذا الوجود. والصراع لا يعدو أن يكون صورياً، تهدف الشاعرة من ورائه إلى تجلية السر الذي يعتمل من ضلوعها:

ما ضرَّني، لو لم أثر، وبقيت
في بيتي هنيئة
أغفو علر الريش الوثير،
وأحتسي الكأس الرقيقة

أولـــم يكن خيــراً لأمي، أن تــرى
بــنــتــاً، شــفــيــقــة
تســدي لهـا كف الحنــان، وتنشــر
الــبــشــرى دفــيــقــة

* * *

وسـرعان مـا تنبري للدفـاع عن مبـادئهـا، وتلقينهـا حتى لخطيبها، لتعطي صورة صادقة للمرأة العربية، التي تحدو زوجها وخطيبها إلى مواقف الشرف:

لا. يـا رفيق الـدرب، لم أخـلق
لـكي أحـيـا لـيـومـي
أنـا. بـنت هـذا الشـعـب، لـن
يقضي عـلى ذل وضيم
درس الــفــداء، أخــذتــه، عــن
والــدي وخـالي، وأمي
ومحبــة الأوطــان. قبــل تكـوني،
تــغــلي بــدمــي
ولقـائل، مـا شـأنها، ولكـل هذاك
العذاب
أو لم يــكـــن، أولى لهـــا، أن
تستــريـح ولا نــدامة
عفــواً صــديقي، مــا استــطعت
عـلى الونى إغـلاق بابي

بي، مثــل مــا بــك، من هــوى
الأوطان من حب الكرامة
إمــا حيـاة العــز، أو مــوت بــه
مــعــنى الــســلامــة

* * *

وتتردد على لسان طلعت الرفاعي، فكرة الوطن العربي الموحد، الساخر من الحدود المزيفة، المجتاح لها، الواقف وقفة العملاق أمام الأستار الحديدية التي مزق المستعمر بها وطننا العربي، بل تتراءى هذه الوحدة أمنية رنانة، تشرئب إليها أعناق الجمـاهير العربية، كلما داهمتهم الخطوب، وخرجوا منها بعقيدة لا تقبل الجدل، وهي أنَّ الشعب العربي، لن يسلم من العثرات، ولن تكف عنه الضربات العدوانية على أرضه تتنقصها من أطرافها، إلاَّ بوحدة راسخة الجذور في أعماق الجماهير العربية، دفاقة الشعور في حناياها، الوحدة العربية هي الستار الوحيد بل الأوحد الذي يجعل حداً فاصلاً لمسرحيات الغارات المبيتة، والروايات البوليسية التي لا زال الوطن العربي مسرحاً لها.

لـبيــك، يــا بغداد، أنــت عــلى
المـدى مهـد العــروبـة
مـا (بـورسعيـد) مـا الجـزائـر، مـا
(فـلســطين) السـليـبــة
مـا الأرز يخفق، ما (عمـان) الحـر
مــا (اليمن) الخصيبــة

هي كلها وطني الصمود وإن
تنوعت المصيبة
هي كلها، وطني الكبير، بوحدة
كبرى قريبة

* * *

فهـــرس



المؤلف

د. صالح بن صالح الخرفي

- من مواليد (القرارة) ولاية (غارداية) جنوب الجزائر سنة (1932).
- درس بـ (معهد الحياة) بالجزائر و(الزيتونة والخلدونية) بتونس و(كلية الآداب) بجامعة القاهرة.
- يحمل من وزارة قدماء المجاهدين العضوية الدائمة من المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني في الفترة ((1956-1962).
- مسؤول العلاقات الثقافية مع البلاد العربية في أول وزارة للتربية بعد الاستقلال ((1962).
- أستاذ الأدب الجزائري الحديث بجامعة الجزائر (1964-1976).
- ماجستير عن (الشعر المقاومة الجزائرية) جامعة القاهرة (1966).
- دكتوراه بمرتبة الشرف الأولى في (الشعر الجزائري الحديث) جامعة القاهرة (1970).
- أوّل رئيس تحرير لمجلة (الثقافة) التي صدرت عن وزارة الإعلام والثقافة (1971-1976).
- عضو لجنة إصلاح التعليم الجامعي بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي (1971).

- عضو اللجنة الوطنية للتعريب في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي (1971-1976).
- رئيس دائرة اللغة والثقافة العربية بجامعة الجزائر (1971-1976).
- منح جائزة الشعر في الذكرى العاشرة للاستقلال (1972).
- عضو مؤسس لاتحاد الكتاب الجزائريين.

يتولى منذ سنة 1976 مسؤولية:
- مدير إدارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- رئيس تحرير (المجلة العربية للثقافة) التي تصدر عن المنظمة.

للمؤلف

في الأبحاث والدراسات

1 ـ (شعراء من الجزائر)
معهد البحوث والدراسات العربية — القاهرة 1969

2 ـ (صفحات من الجزائر) ش. و. ن. ت. — الجزائر 1974

3 ـ (الشعر الجزائري الحديث) ش. و. ن. ت. — الجزائر 1975
طبعة ثانية م. و. ك. — الجزائر 1984

4 ـ (الجزائر والأصالة الثورية) ش و. ن. ت — الجزائر 1978

5 ـ (شعر المقاومة الجزائرية) ش. و. ن. ت. — الجزائر 1982

6 ـ (في ذكرى الأمير عبدالقادر الجزائري) م. و. ك — الجزائر 1984

7 ـ (في رحاب المغرب العربي) دار الغرب الإسلامي — تونس 1985

في الشعر

8 ـ (نوفمبر) وزارة المعارف. الدوحة — قطر 1961

9 ـ (أطلس المعجزات) ش. و. ن. ت. — الجزائر 1967
طبعة ثانية و. ن. ت. — الجزائر 1982

10 ـ (أنت ليلاي) ش. و. ن. ت. — الجزائر 1974

في سلسلة الأدب الجزائر الحديث

11 ـ (المدخل إلى الأدب الجزائر الحديث)
ش. و. ن. ت — الجزائر 1983

12 ـ (عمر بن قدور الجزائري) م. و. ك. الجزائر 1984
13 ـ (حمود رمضان) م. و. ك. الجزائر 1985

عروبة المغرب العربي

عروبة الشمال الإفريقي، عروبة أصيلة خالدة، لأن الإسلام كان ولم يزل المدخل التاريخي لها، أصلها بقوة الروح، وخلدها بصلابة العقيدة. ظلل أرضيتها بالدستور السماوي، وربط مقومها الأساسي بلسان عربي مبين.

وأنت إذا أردت أن تدخل هذه البيوت المغربية من «وابها»، فأدخلها من الإسلام وبالإسلام، فستتكشف لك العروبة في أصفى منابعها عراقة، وأروع مواقفها بطولة، وأسمى غاياتها إنسانية.

ولولا الإسلام، لما بقيت للعروبة بقية في هذه الربوع التي ظلت على مر العصور هدفاً للحملات الصليبية، وحسبك مائة وثلاثون عاماً، استيطاناً مسعوراً، وتغريباً مسموماً، وفرنسة حاقدة.

ودخول العروبة إلى هذه الربوع في ظل الإسلام هو الذي ضمن لها المقومات الأساسية من لغة وحضارة، وفكر وثقافة، ودعم هذه المقومات بالروح والعقيدة، فخفف من غلواء العرقية التي تعاني منها قوميات كثيرة، لم تؤتِ ما أوتيته العروبة من رعاية الإسلام لها، وسهره عليها بمقومات تسمو فوق العرق، ومميزات ترقى فوق الجنس «ليست العروبة بأحدكم من أب ولا أم، ولكنها اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي».

صالح الخرفي

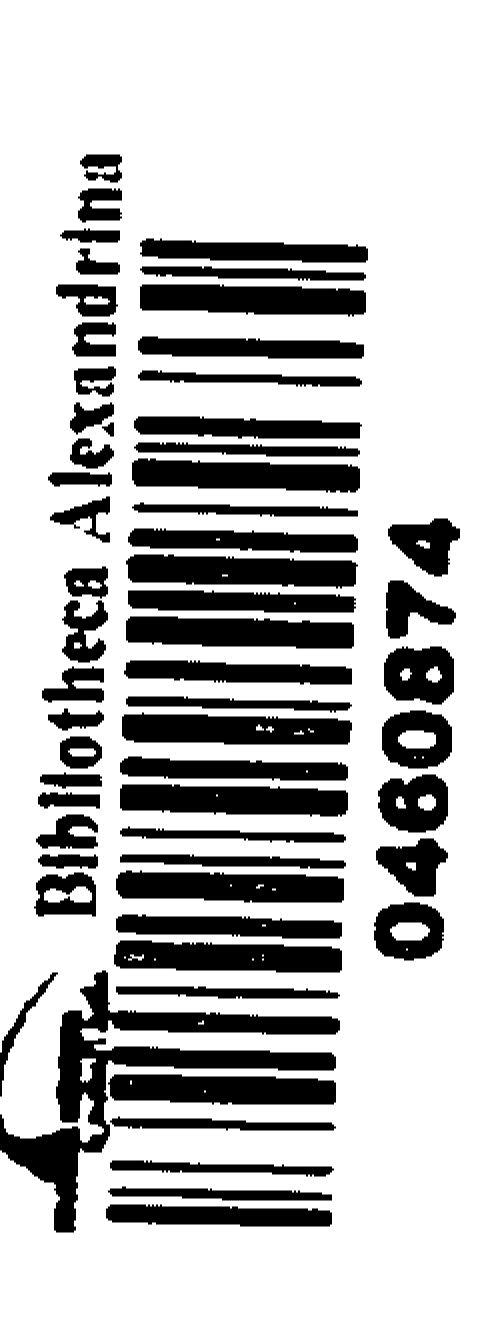
دار الغرب الإسلامي / الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) ـ الحمراء ـ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ـ ص ب 5787-113 بيروت ـ لبنان

الرقم 1985/7/3000/62

التنضيد : كومبيوتايب
COMPUTYPE
ELECTRONIC TYPESETTING

الطباعة: مؤسسة جواد للطباعة والتصوير


Bibliotheca Alexandrina
0460874